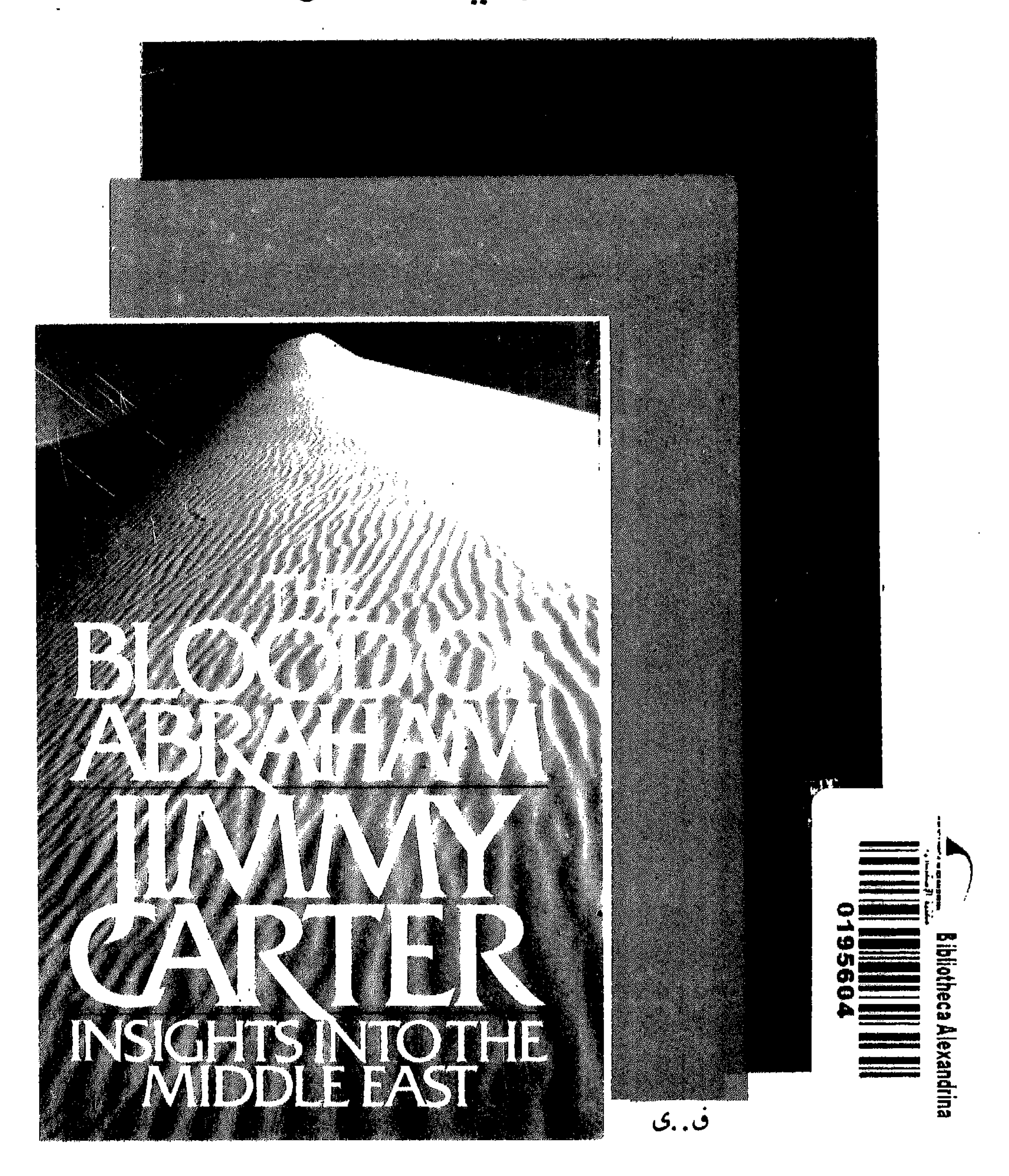
جمهورية مصر العربية
وزارة الإعلام
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة (٧٨٤)

دم إبراهيم

تأملات متبصرة فى أحوال الشرق الأوسط

بقلم : جيمى كارتر



ف . ى

Bibliotheca Alexandrina
0195604

شكر

اشترك معى فى كتابة هذا الكتاب كينيث شتاين الأستاذ المشارك لماد
تاريخ الشرق الأدنى بجامعة ايمورى . فلقد صحبنى « كن » وزوجتى روزالين
فى ربيع عام ١٩٨٣ فى رحلة طويلة شملت مصر واسرائيل والاردن والمملكة
العربية السعودية وسوريا ولبنان والمغرب ، التقينا خلالها بالعديد من رجال
الدولة والباحثين وغيرهم ممن ساهموا بشدة فى معلوماتنا الاكثر حداثة عن المنطقة
ثم ساعد فى الاعداد لأول مشاورة تعقد فى مركز كارتر الجديد بجامعة ايمورى
فى نوفمبر من نفس العام وقد انصبت المشاورة على تحليل الوضع السياسى
والاجتماعى والعسكرى فى الشرق الأوسط تحليلا دقيقا .

واثناء عملى مع الرئيس جيرالد فورد الذى كان يشاركنى رئاسة المشاوره
حددت ومعى الدكتور شتاين، من كل دولة ومن الجالية الفلسطينية ، الأشخاص
الذين يستطيعون تقديم وصف أكثر فاعلية وأكثر دقة لوجهات النظر المختلفة
حول الشرق الأوسط . وخلال الاجتماعات الخاصة والعامة فى أطلنطا ،
استطعنا ان نستمع الى وجهات النظر العديدة دون تحفظ بهدف تشجيع
المناقشة الصريحة والاستفسارات ومنع الاساءة لأى شخص أو انسحاب أى
فرد من المشتركين غاضبا .

وفى أوائل عام ١٩٨٤ أصبح « كن » مديرا لمركز كارتر ، وكرس طاقاته
والتزامه القوى لجعله مركزا أكاديميا للبحث والتعليم والثقافة العامة . وخلال
اعداد هذا الكتاب ، طلبت نصيحة « كن » ، وكان كريما معى فيما أسهم به .
فقد زودنى بمادة جديدة أثناء اعداد المخطوط وقرأ المسودات العديدة بعين
مؤرخ دقيقة ولهذا أشعر بامتنان بالغ .

ولقد شاركتنى زوجتى روزالين السنوات الاربع فى البيت الابيض والثلاثة
عشر يوما فى كامب ديفيد مع بيجين والسادات ، كما شاركتنى جميع رحلاتى
لزيارة شعوب الشرق الاوسط ، ولا يفيها الشكر حقها على ما قدمته من دعم
وأبدته من ملاحظات عميقة قيمة منذ البداية .

وانني أعرب عن شكرى كذلك لنان ا . تاليز التى تعمل فى مؤسسة ميلفن
التى ساعدتنى فى تطوير موجز الاحداث الاخيرة وتحويله الى قصة أكثر اكتمالا
للشرق الاوسط منذ الماضى القديم حتى سنوات مجهولة قادمة .

وكذلك أقدم شكرى الى ويليام برينك المحرر الذى عمل لمدة عشر سنوات
مع وكالة اليونيتدبرس ومجلة النيوزويك ديلى نيوز والذى قضى معى اسبوعا
فى بليتز يراجع معى كل فصل من الفصول بأسلوبه الصحفى الدقيق ، وانتزع

منى بعض وجهات النظر الشخصية الاضـــافية وســاعدنى فى توضيح أكثر الموضوعات غموضا .

وقام الاستاذ ناداف سافران من جامعة هارفارد والكاتب الشهير والمؤرخ، بقراءة المخطوط وقدم لى العديد من المقترحات التى ساعدت على زيادة النص دقـــة ووضوحـــا .

وقام ستيفن هوشمان الذى ساعدنى فى البحث ، بالقراءة الأخيرة للمخطوط للتقليل من الاخطاء والتناقضات وجوانب الغموض والحشو .

ويمكن ان أضيف أن بعض التكرار يقصد به الدليل على ان نفس الحدث نادرا ما يترك نفس الاثر على الاشخاص الكثيرين الذين تأثروا به . ولم تقـع معظم صراعات الشرق الاوسط المتواصلة فى أرض المعارك بل فى عقول الناس الذين يعيشون هناك ولا تزال الفوارق فى المعتقدات التى نشأت منذ اقـــدم العصور ، سببا فى اراقة الدماء بين هؤلاء الذين يشتركون فى شىء واحد اساسى وهو : حلم السلام والعدل .

التسلسل الزمنى للاحـــداث

يمكن فهم الاحداث فى الشرق الاوسط بشكل أفضل اذا استعرض تاريخ المنطقة . وفيما يلى قائمة ببعض الأحداث القليلة الهامة التى أدت الى الحالـــة القائمــــة .

٩٠٠٠ ق.م : كائنات بشرية تترك أول دليل اثرى لوجودها فى أريحا .

٣٥٠٠ ق.م : تطور الحياة فى المدن فى سوريا ــ فلسطين . ومصر .

٣٥٠٠ ق.م : تطور الحياة فى المدن فى سوريا ــ فلسطـــــين . ومصر .
تبدأ تجارتها وتدخلها السياسى فى المنطقة .

٣٠٠٠ ق.م : الملك مينا يوحد الوجهين البحرى والقبلى فى مصر فى دولة واحــــدة .

٢٣٠٠ ق.م : سجلات مكتوبة فى سوريا ومصر تصف استمرار الصراعات بين مصر والدول الأخرى وبين قبائل البدو الرحل وسكان المدن .

١٩٠٠ ق.م : رحلات ابراهيم من أور الى كنعـــان .

١٢٠٠ ق.م : موسى يقود هجرة الاسرائيليين من مصر .

١٠٠٠ ق.م : اختيار شاول كأول ملك للاسرائيليين (١٠٢٢) . والملك داود ، خليفته (١٠١٠ ــ ٩٧٠) يوحد أسباط اسرئيل الاثنى عشر ويفرض سيطرته على الاراضى الخصبة على جانبى نهر الاردن وكذلك اجزاء من سوريا والملك سليمان ، ابن داوود ، يقيم اول معبد فى القدس .

٩٣٠ ق.م : الامة الاسرائيلية تنقسم الى مملكتين أشد ضعفا ، اسرائيــل (عشرة أسباط فى الشمال) ، ويهودا (سبطــان فى الجنــوب) . وواجهت المملكتان صراعات متكررة مع جيرانها حتى تم تدمير اسرائيل على أيدى الآشوريين (٧٢١ ــ ٧١٥) ودمرت يهــودا فى عام ٥٨٧ ق.م على أيدى البابليين الذين اسروا العديد من اليهود وهذا يشهد بداية الشتات اليهودى .

٥٣٨ ق.م : غزاة بابل من الفرس يسمحون لليهود المنفيين بالعودة الى القـــدس .

٣٣٢ ق.م : الاغريق بقيادة الاسكندر يغزون المنطقة . صراع المملكتــين الاغريقيتين فى مصر وسوريا على السلطة اليهودية فى ظل جميع الغزاة يقاتلون من أجل المحافظة على حريتهم الدينية وحماية أماكنهم المقدسة .

١٨٧ ق.م ثورة اليهود تسفر عن اقامة دولة يهودا المستقلة .

٦٣ ق.م : الرومان يستولون على القدس ويسيطرون على فلسطين لكنهم يسمحون بحرية العبادة .

٤ ق.م : ولد المسيح . (وصلب) بعد ثلاثة وثلاثين عاما ، بعد خدمة دامت ثلاث سنوات وأقيمت الكنائس المسيحية فى فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وروما .

٧٠ م : اخماد ثورة اليهود ضد روما وتدمير المعبد فى القدس .

١٣٥ م : عقب المزيد من الثورات اليهودية ساد الرومان ودمروا يهودا . ونفى المزيد من اليهود بأعداد متزايدة الى مناطق أخرى وخاصة فى أوروبا الشرقية والغربية .

٣١٣ : بعد صدور مرسوم ميلانو ، نشر الامبراطور الرومانى قسطنطين التسامح الدينى وباعتباره مسيحيا فقد نشر ديانته فى جميع أرجاء الامبراطورية التى تشمل سوريا وفلسطين .

٥٧٠ : ولد النبى محمدا فى مكة وأسس عقيدة الاسلام ومات فى ٦٣٢ ، وخلال عشرين عاما انتشر الحكم الاسلامى فى جميع أنحاء سوريا وفلسطين وفارس وشبه الجزيرة العربية ومصر . وتحت حكم الزعماء المسلمين سمح بشىء من حرية العبادة .

١٠٩٩ : استيلاء الحملة الصليبية على القدس .

١١٨٧ : المسلمون يستردون القدس ويحتفظون بالسيطرة على فلسطين حتى نهاية الحرب العالمية الاولى باستثناء فترة خمسة عشر عاما (١٢٩٩ — ١٣١٤) .

١٥١٦ : استيلاء العثمانيين على سوريا وفلسطين ثم بعد ذلك مصر .

١٨٦١ : الحرب الاهلية بين المسيحيين الموارنة والدروز فى جبل لبنان تؤدى الى التدخل الفرنسى واقامة لبنان كمقاطعة تتمتع بالحكم الذاتى ضمن سوريا تحت الزعامة المسيحية .

١٨٨٢ : وصول أوائل الصهاينة من أوروبا الشرقية الى فلسطين وهى منطقة كانت تخضع لحكم العثمانيين لاكثر من ثلاثة قرون .

القوات البريطانية تحتل مصر وتستمر هناك حتى عام ١٩٥٥ .

١٨٩٧ : انعقاد أول مؤتمر صهيونى عالمى فى سويسرا .

١٩١٧ : بريطانيا العظمى وهى فى حرب مع الامبراطورية العثمانية تصدر وعد بلفور الذى وعد بوطن قومى لليهود فى فلسطين مع احترام حقوق الفلسطينيين غير اليهود . وكان يسكن المنطقة آنذاك ٦٠٠٫٠٠٠ مسلم و ٧٥٫٠٠٠ مسيحى و ٦٠٫٠٠٠ يهودى .

١٩٢٢ : فرض الانتداب البريطانى بتفويض من عصبة الامم ، على فلسطين وشرق الاردن (الاردن فيما بعد) والانتداب الفرنسى على سوريا ولبنان والعراق . اعتراض الصهاينة بشدة على اية قيود فرضها البريطانيون على الهجرة اليهودية وشراء الاراضى ، فى حين يعارض العرب فى فلسطين صراحة مفهوم الوطن القومى اليهودى وتطوره . ويؤكد الكتاب الابيض بشأن فلسطين التزام بريطانيا العظمى المزدوج باقامة وطن قومى يهودى فى فلسطين مع حماية الحقوق المدنية والدينية للسكان غير اليهود . انتهاء الحماية البريطانية على مصر ، واقامة دولة شرق الاردن تتمتع بالحكم الذاتى .

١٩٣٢ : عزز الملك ابن سعود من سيطرته على شبه الجزيرة العربية وأسس المملكة العربية السعودية .

١٩٣٦ : توقيع المعاهدة البريطانية المصرية لاستكمال استقلال مصر .

١٩٣٨ : انتاج البترول على المستوى التجارى فى المملكة العربية السعودية لاول مرة .

١٩٣٩ : بريطانيا تفرض قيودا مشددة على هجرة اليهود وعلى شراء الاراضى فى فلسطين .

١٩٤٣ : سوريا تحقق استقلالها عن فرنسا .

١٩٤٥ : استقلال لبنان عن فرنسا ، وانشاء جامعة الدول العربية وتعهد اعضائها بالتعاون معا لمنع قيام دولة يهودية فى فلسطين ، وانتهاء الحرب العالمية الثانية ، تاركة يهود أوروبا وقد هلك معظمهم نتيجة للابادة .

١٩٤٦ : استقلال مملكة الاردن عن الحكم البريطانى .

١٩٤٧ . بعد هجمات اليهود الارهابية ضد المرافق والاشخاص البريطانيين وتحت الضغط على نطاق عالمى من اجل اقامة وطن لليهود المطرودين ، تسمح بريطانيا للامم المتحدة التى تشكلت حديثا باتخاذ قرار بشأن فلسطين

نوفمبر ١٩٤٧ : بقيادة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، قررت الامم المتحدة تقسيم فلسطين التى اصبح يعيش فيها حوالى مليون مسلم و ٦٠٠٫٠٠٠ يهودى و ١٥٠٫٠٠٠ مسيحى وتقسمت فلسطين الى مناطق

يهودية وعربية ودولية (القدس) ، واعترض العـالم العربى بشـدة على التقسيم ، وابتهج أغلب اليهود ، ولكن بعضهم طالب بضرورة الاستيلاء على كل فلسطين كما أن بعضهم عارض تماما قيـام دولة فى فلسطين .

مايو ١٩٤٨ : انتهاء الانتداب البريطانى على فلسطين واعلان قيـام دولة اسرائيل التى اعترفت بهـا على الفـور الولايات المتحـدة والاتحاد السوفيتى وهجـوم الجيران العرب على اسرائيل .

١٩٤٩ : اتفاقيات الهدنة مع العرب أعطت اسرائيل أراضى اضـافية ، ولكن العرب احتفظوا بالقدس القديمة . ورغم معارضة الدول العربية الاخـرى ضمت الاردن ما تبقى من الضفة الغربية من نهر الاردن . واحتلت مصر قطـاع غـزة وأسفرت الانتخـابات الاسرائيلية عن فوز حزب العمل وتوليه السلطة حتى عام ١٩٧٧ . وظل العالم العربى فى حـالة حرب مع اسرائيل من الناحية الفنيـة .

١٩٥٢ : ضباط عسكريون شبان يرغمون الملك فاروق على التخـلى عن العرش وفى النهـاية يبرز البكباشى جمـال عبد الناصر كرئيس للجمهـورية وزعيم للعالم العربى فى الخمسينات والستينات .

١٩٥٣ : حسين يصبح ملكا على الاردن وهو فى سن الثمانية عشر عاما .

يوليو ١٩٥٦ : بداية أزمة السويس عندما أمم عبد الناصر القناة ونتيجـة لرفض مرور اسرائيل فى قناة السويس لفترة طويلة وبعد وقـوع مناوشـات متكررة على الحـدود ، قامت اسرائيل بغزو سيناء المصرية وقطـاع غـزة فى شهر أكتوبر واحتلت القوات البريطانية والفرنسـية منطقة القنـاة .

مارس ١٩٥٧ : بضغط من الامم المتحـدة والولايات المتحدة والاتحـاد السوفيتى انسحبت القوات الاجنبية مع جميع الاراضى المصرية وقطاع غـزة وعينت قوات الطوارىء التابعة للامم المتحـدة لتشرف على المناطق الاستراتيجية فى سـيناء .

فبراير ١٩٥٨ : اتحاد مصر وسوريا ليشكلا الجمهورية العربية المتحـدة والاحتفاظ بعلاقة وثيقـة مع الاتحـاد السوفيتى .

١٩٦١ : انفصام الوحدة السورية المصرية بسبب موقف مصر المسيطر على سـوريا .

يونيو ١٩٦٤ : انشاء منظمة التحرير الفلسطينية بهدف تدمـير اسرائيـل واستعادة السيطرة على فلسطين . شن هجمات ارهابية مستمرة ضد اسرائيل .

ابريل . يونيو ١٩٦٧ : اسرائيل تهاجم سوريا اثر الغـارات السـورية على المستوطنات الاسرائيلية وناصر يغلق الميناء الجنـوبى لاسرائيـل وذلك

بفرض حصار على مضيق تيران ويطرد قوات الطوارىء الدولية من سيناء . اسرائيل تشن هجمات اجهاضية على مطارات مصر وسوريا والعراق والاردن وفى ستة أيام احتلت اسرائيل مرتفعات الجولان وقطاع غزة وسيناء والضفة الغربية بما فى ذلك القدس .

اغسطس ١٩٦٧ : تمهد القادة العرب فى مؤتمر قمة عقد فى الخرطوم بالسودان بأنه لا صلح ولا اعتراف ولا مفاوضات مع اسرائيل والتمهد بالتأييد الكامل لاعادة فلسطين الى سيطرة الفلسطينيين غير اليهود .

نوفمبر ١٩٦٧ : صدور قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ (ملحق ١) وأصبح اساسا لمفاوضات السلام المستقبلية . ويطالب القرار اساسا بانسحاب اسرائيل من أراض محتلة ، وحق كل دول المنطقة فى العيش فى سلام داخل حدود آمنة ومعترف بها ، وبحل عادل لمشكلة اللاجئين .

ويعترض الفلسطينيون على وصفهم باللاجئين ، وبدلا من ذلك فانهم يريدون حلا سياسيا لمحنتهم وليس مجرد حل انسانى .

ديسمبر ١٩٦٩ : بعد فشل المفاوضات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى اقترح وليام روجرز وزير الخارجية الامريكى شروطا سياسية للسلام بين اسرائيل ومصر يتضمن عودة الاراضى التى احتلتها اسرائيل (بما فى ذلك الضفة الغربية) ولكن مع بعض التعديلات . وسرعان ما رفض المشروع جميع الاطراف باستثناء الاردن . وكانت اسرائيل قد بدأت بالفعل فى بناء مستوطنات عسكرية ومدنية فى الاراضى المحتلة ؟ .

سبتمبر ١٩٧٠ : نشوب حرب أهلية فى الاردن بين الفلسطينيين والاردنيين ودخلت القوات السورية الاردن ، ولكنها تقهقرت أمام تهديدات اسرائيل بالتدخل بمساعدة من الولايات المتحدة . وفاة الرئيس عبد الناصر وتولى أنور السادات رئاسة مصر .

فبراير ١٩٧١ : اقترح السادات بأنه اذا انسحبت اسرائيل جزئيا من سيناء فان مصر ستقوم بتطهير قناة السويس واعادة فتحها .

يوليو ١٩٧١ : بعد أشهر من الصراع ضد الفلسطينيين الذين كانوا يرغبون فى استخدام الاردن كقاعدة عسكرية ضد اسرائيل ، واجبرت العديد من المقاتلين الفلسطينيين على الالتجاء الى لبناء الضعيف سياسيا .

يوليو ١٩٧٢ : السادات يطرد الخبراء العسكريين السوفييت من مصر .

سبتمبر ١٩٧٢ : الارهابيون الفلسطينيون يقومون بقتل الرياضيين الاسرائيليين فى أولمبياد ميونيخ .

اكتوبر ١٩٧٣ : مصر وسوريا تهاجمان القوات الاسرائيلية فى سيناء ومرتفعات الجولان على التوالى . الا أن الاسرائيليين الذين اخذوا على غرة اجبروا القوات العربية بالتراجع تجاه دمشق وعبر قناة السويس . وفرض العرب حظرا بتروليا على الولايات المتحدة وزاد ثمن النفط أربعة أضعاف . وهدد السوفييت بالتدخل العسكرى المباشر لحماية القوات العربية . وبعد ستة عشر يوما من الحرب صدر قرار الأمم المتحدة رقم ٣٣٨ (ملحق ٢) . الذى أكد القرار رقم ٢٤٢ ، ودعا الى عقدمؤتمر سلام لجميع أطراف النزاع .

ديسمبر ١٩٧٣ : عقد مؤتمر جنيف لمدة يومين طبقا لقرار الامم المتحدة رقم ٣٣٨ برئاسة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبحضور مصر والاردن واسرائيل ، ولم توجه الدعوة لمنظمة التحرير الفلسطينية لحضور المؤتمر وآثرت سوريا عدم الحضور .

يناير ١٩٧٤ : توقيع اتفاقية فض الاشتباك فى سيناء بين مصر واسرائيل التى أسفرت عن الفصل بين القوات العسكرية للبلدين ووضع مراقبين دوليين تابعين للأمم المتحدة بينهما .

مايو ١٩٧٤ : التوصل الى اتفاق فض الاشتباك بين سوريا واسرائيل كجزء من تنفيذ قرار الامم المتحدة رقم ٣٣٨ .

أكتوبر ١٩٧٤ : مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى الرباط يعلن بالاجماع ان منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الوحيد والشرعى للشعب الفلسطينى وياسر عرفات زعيم منظمة التحرير الفلسطينية يلقى خطابا فى الامم المتحدة .

مارس ١٩٧٥ : الرئيس جيرالد فورد يعلن « اعادة تقييم » سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الاوسط للضغط على اسرائيل لتتعاون من أجل التوصل الى اتفاق الانسحاب الثانى من سيناء . وبعد شهرين طالبه ستة وسبعون من أعضاء مجلس الشيوخ « بالاستجابة لاحتياجات اسرائيل الاقتصادية والعسكرية » .

سبتمبر ١٩٧٥ : التوقيع على الاتفاق الثانى للانسحاب من سيناء بين مصر واسرائيل . والولايات المتحدة تعد بعدم الاعتراف أو التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية الا اذا اعترفت المنظمة بحق اسرائيل فى الوجود وقبلت قرارى الامم المتحدة رقمى ٢٤٢ و ٣٣٨ .

١٩٧٦ : اندلاع الحرب الاهلية فى لبنان من جديد بسبب طلب الفلسطينيين الاحتفاظ بحرية المناورة هناك ، وبسبب رغبة المسلمين فى الحصول على نصيب اكبر من السلطة السياسية والازدهار الاقتصادى ، وبسبب مساعى المسيحيين للمحافظة على مايتمتعون به من امتيازات

سياسية . وفى شهر يونيو يرسل الاسد قواته الى لبنان للوقوف ضد تحالف المسلمين والمتطرفين ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وذلك بموافقة كل من الولايات المتحدة واسرائيل . تعارض مصر والعراق بشدة هذا التدخل فى بادىء الامر ولكن بحلول شهر نوفمبر يساند العالم العربى سوريا .

ربيع ١٩٧٧ : الرئيس جيمى كارتر يلتقى بكل من زعماء اسرائيل (فى مارس) ومصر (فى ابريل) والاردن (فى ابريل) وسوريا (فى مايو) والمملكة العربية السعودية (فى مايو) لاستجلاء امكانية القيام بمبادرات سلام .

مايو ١٩٧٧ : انتخاب مناحم بيجين كرئيس لوزراء اسرائيل .

اغسطس ١٩٧٧ : الولايات المتحدة تسعى لايجاد وسيلة لاشتراك الفلسطينيين فى الوفد العربى فى مؤتمر جنيف الذى سيعقد من جديد حول الشرق الاوسط .

اكتوبر ١٩٧٧ : صدور بيان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى حول الشرق الأوسط (ملحق ٣) .

نوفمبر ١٩٧٧ : السادات يزور القدس وبيجين يصل الى الاسماعيلية ردا للزيارة فى ديسمبر وتبدأ المحادثات .

يناير ١٩٧٨ : بيان مصرى — أمريكى يطالب بتطبيع العلاقات بين العرب والاسرائيليين ، وبانسحاب اسرائيل من الاراضى المحتلة وبحدود آمنة ومعترف بها ، ويحل المشكلة الفلسطينية من جميع جوانبها بما فى ذلك حقوق الشعب الفلسطينى فى المشاركة فى تقرير مصيرهم .

مارس ١٩٧٨ : ردا على هجمات منظمة التحرير الفلسطينية اسرائيل تغزو لبنان والولايات المتحدة تحث على انسحاب اسرائيل . قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة تحل محل الاسرائيليين . كارتر ينقل الى بيجين أفكار السادات بشأن تحقيق تسوية شاملة .

يوليو ١٩٧٨ : فشل المفاوضات فى ليدز كاسل (بانجلترا) بين مصر واسرائيل ، السادات يرفض اجراء أى مزيد من المباحثات مع الاسرائيليين .

اغسطس ١٩٧٨ : السادات وبيجين يقبلان دعوة كارتر للتفاوض حول اتفاقية سلام فى كامب ديفيد .

سبتمبر ١٩٧٨ : التوقيع على اتفاقية كامب ديفيد (ملحق رقم ٤) بعد حوالى أسبوعين من المحادثات المكثفة .

نوفمبر ١٩٧٨ : العرب يدينون اتفاقية كامب ديفيد فى مؤتمر قمة بغداد ويتعهدون بمعاقبة السادات .

يناير ١٩٧٩ : الشاه يغادر ايران ، وبعد ايام قليلة يعود الخومينى الى ايران قادما من فرنسا .

مارس ١٩٧٩ : مع تعثر المحادثات ، كارتر يزور مصر واسرائيل للتوصل الى شروط اتفاق السلام . التوقيع على اتفاق السلام فى واشنطن التى تطالب الاسرائيليين بالانسحاب من سيناء واقامة علاقات تجارية ودبلوماسية طبيعية بين البلدين بما فى ذلك تبادل السفراء . نقل مقـــر الجامعة العربية من القاهرة الى تونس .

نوفمبر ١٩٧٩ : اعتقال بعض المواطنين الأمريكيين فى ايران .

ديسمبر ١٩٧٩ : القوات السوفيتية تغزو افغانستان .

يناير ١٩٨٠ : كارتر يعلن أن منطقة الخليج الفـــارسى منطقة حساسة بالنسبة لمصالح الولايات المتحدة ، ويتعهد بالتصدى لأى محاولة للسيطرة عليه من جانب أى قوة خارجية .

سبتمبر ١٩٨٠ : نشوب الحرب العراقية الايرانية .

يناير ١٩٨١ : الافـــراج عن الرهائن فى ايران .

يونيو ١٩٨١ : اسرائيل تقصف المفـــاعل الذرى العراقى وتدمـــره . اعادة انتخاب بيجين رئيسا للوزراء .

اغسطس ١٩٨١ : الأمير فهد ولى العهد السعودى يقدم مشروعا للتسوية فى الشرق الأوسط .

اكتـــوبر ١٩٨١ : اغتيال السادات وتولى حسنى مبارك رئاسة مصر .

ديسمبر ١٩٨١ : اسرائيل تعلن تطبيق القانون الاسرائيلى على مرتفعات الجولان .

ابريل ١٩٨٢ : تطبيقا لاتفاقية السلام ، اسرائيل تعيد بقية سيناء الى مصر بما فى ذلك حقول البترول والقواعد الجوية وازالة مستوطناتها .

يونيو ١٩٨٢ : اسرائيل تغزو لبنان بهدف تدمير منظمة التحرير الفلسطينية واقامة نظام حكم صديق . وعلى الرغم من تعهد بيجين فى بادىء الأمر بأن اسرائيل لن تتوغل فى لبنان اندفعت القوات الاسرائيلية لمحاصرة بيروت .

سبتمبر ١٩٨٢ : ريجان يطالب بتنفيذ اتفاقيات كامب ديفيد مع منح الفلسطينيين حق الحكم الذاتى بالاشتراك مع الأردن (ملحق ٥) . بيجين يرفض هذا الاقتراح . والعـــرب يقترحون فى مؤتمـــر قمة فاس مشروعهم الخاص (ملحق ٦) لتحقيق التسوية الذى فرضته كل من اسرائيل وليبيا والفلسطينيين

المتشددين . القوات البحرية الامريكية تدخل بيروت للاشراف على رحيل اغلب مقاتلى منظمة التحرير الفلسطينية الى البلاد العربية ثم تنسحب . اغتيال الرئيس اللبنانى بشير الجميل فى انفجار شحنة ناسفة ، ليخلفه شقيقه أمين الجميل . ابادة مئات الفلسطينيين واللبنانيين المسيحيين فى مذبحة صبرا وشاتيلا على أيدى ميليشيات الكتائب فى منطقة تقع بالقرب من بيروت ويشرف عليها الاسرائيليين .قوات حفظ السلام الامريكية والاوربية تعود الى بيروت . مصر تسحب سفيرها من اسرائيل احتجاجا على اعمال اسرائيل فى لبنان .

ابريل ١٩٨٣ : مقتل أكثر من خمسين شخصا فى هجوم ارهابى على السفارة الأمريكية ببيروت . الملك حسين يرفض طلب الولايات المتحدة فى الانضمام الى محادثات السلام مع اسرائيل ومصر وبعد فشله فى الحصول على موافقة من منظمة التحرير الفلسطينية .

مايو ١٩٨٣ : اسرائيل ولبنان يوقعان اتفاقا للانسحاب الذى ترفضه سوريا فورا . منظمة التحرير الفلسطينية تواجه تمردا داخليا ضد دور ياسر عرفات القيادى .

١٩٨٣ : مقتل ثمانية وسبعين جنديا فرنسيا من القوات البحرية الامريكية فى هجوم انتحارى فى بيروت . واسحاق شامير يحل محل مناحم بيجين فى رئاسة الوزراء .

نوفمبر ١٩٨٣ : الولايات المتحدة واسرائيل توافقان على تشكيل لجنة لاستكشاف اشكال التعاون الاستراتيجى بين اسرائيل ومصر واعتراض كل من الأردن وسوريا ومصر ودول عربية أخرى بشدة على هذا المشروع .

ديسمبر ١٩٨٣ : اجبار عرفات وقوات منظمة التحرير الفلسطينية على الخروج من شمال لبنان على أيدى المنشقين وبمساندة سوريا . عرفات يجتمع مع الرئيس مبارك فى القاهرة مما سبب ذعرا بين صفوف الأوساط الفلسطينية المتشددة . الولايات المتحدة تشيد بالزيارة ، واسرائيل تدينها .

يناير ١٩٨٤ : وقف انعقاد البرلمان الأردنى منذ اكتوبر عام ١٩٧٤ . ويعود الى الانعقاد بدعوة من الملك حسين ، ومن بين أعضائه نواب فلسطينيون . مصر تستمر فى انتهاج سياسة الدبلوماسية الهادئة بهدف تشجيع المفاوضات .

فبراير ١٩٨٤ : الولايات المتحدة تعلن سحب قواتها البحرية من لبنان والملك حسين وعرفات يجتمعان لمناقشة الخيارات السياسية .

مارس ١٩٨٤ : تحت ضغط من سوريا ، اللبنانيون يقومون بالغاء اتفاق الانسحاب مع اسرائيل والمعقود فى مايو ١٩٨٣ . اجراء محادثات الصلح بين

الطوائف السياسية . استمرار العنف على مستوى محدود ، واستمرار احتلال اسرائيل للجنوب اللبنانى ، وبقاء سوريا فى مناطق أخرى .

مايو ١٩٨٤ : الولايات المتحدة تزود المملكة العربية السعودية بصواريخ ستنجر أرض — جو للدفاع عن ارضها ضد اية هجمات محتملة من جانب ايران ، ادانة سبعة وعشرين اسرائيليا بالقيام بأعمال ارهابية ضد الفلسطينيين فى الضفة الغربية .

يوليو ١٩٨٤ : اجراء الانتخابات الاسرائيلية بدون نتائج نهائية .

سبتمبر ١٩٨٤ : تشكيل حكومة الوحدة الوطنية برئاسة شيمون بيريز لمواجهة المشاكل الاقتصادية الملحة . الأردن ومصر يستأنفان علاقتهما الدبلوماسية .

نوفمبر ١٩٨٤ : بدء المفاوضات الاسرائيلية — اللبنانية بهدف انسحاب القوات الاسرائيلية من الجنوب اللبنانى .

يناير ١٩٨٥ : بدء الانسحاب الأولى .

المقدمــة

لقد تميز تاريخ الشرق الأوسط بقدر هائل من المعاناة والصراع بـين شعوبه . غير انه لم يحدث فى أى وقت من تاريخه المعاصر أن كان سوء الحكم على الأمور سببا بشعا للمعاناة لما حدث فى سبتمبر عام ١٩٨٢ عندما قتل مئات الأشخاص العزل فى مخيمى صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين فى لبنان . ويبدو أنه خلال اللعبة التاريخية للسياسات والصراعات على الأراضى ، غالبا مايلقى الأبرياء مصرعهم وبأعداد غفيرة .

ان مأساة صبرا وشاتيلا ، والاحداث التى ادت الى وقوعها ، تبرهن بوضوح مدى تعقد العلاقات المتداخلة التى طالما ثبطت من عزم أولئك الذين ينشدون السلام فى المنطقة ومن الضرورى أن نفهم أكثر هذا الجزء من العالم لنعرف المزيد عن الاحداث الجارية ، وتاريخه المعاصر وماضيه السحيق .

فى يونيو ١٩٨٢ — اى قبل وقوع المأساة بثلاثة شهور — كان مناحـم بيجين رئيس الوزراء الاسرائيلى قد بعث بقواته الى لبنان تؤيـده الميليشيات المسيحية المارونية اللبنانية (الكتائب) ، وعلى ما يبدو بموافقـة واشنطن . لم يكن هذا الاجراء من خصـائص السياسة الاسرائيلية ، فقد احجم الزعمـاء الاسرائيليون السابقون عن اتخـاذ اى اجراء عسكرى الا فى حـالة الانتقـام من هجمـات ارهابية محددة ، أو كـرد على تهديد مباشر لامن اسرائيل . ولم تمض ايام معدودة حتى كانت بيروت تحاصر من كل جانب .

وافادت التقارير ان الآلاف قد لقـوا مصرعهم وان عشرات الآلاف قد شردوا خـلال الحصار والقصف اللذين استمرا عشرة اسـابيع . وبهـذا حقق بيجين احـد اهدافه الرئيسية وهو طرد ياسر عرفات واثنى عشر الفا من مقاتلى منظمة التحـرير الفلسطينية من بيروت . ومن ثم غادرت قوات حفظ السـلام الأمريكية والأوربية لبنـان بعد الانتهـاء من عملية الاشراف على الانسحاب . وكان القـادة الاسرائيليون ومؤيدوهم الأمريكيون فى غاية السرور للنجـاح الظاهر لهذه المغامرة العسكرية .

وفى هذه الأثناء كان بشـير الجميـل احـد قادة الكتـائب وصـديق اسرائيل يستعد لتولى منصبه كرئيس للبنـان . ولكن بعـد أيام قليله من الانسحاب قتل الرئيس المنتخب بشير الجميل فى حادث انفجـار قنبلة . وبعد ذلك قامت قوات الكتائب بطريقة منظمة بقتل مئات من الفلسطينيين واللبنانيين المسـلمين الضعفاء الذين كانوا يقيمون فى مخيمى صبرا وشاتيلا للاجئين ، وذلك فى احدى مناطق بيروت التى يسـيطر عليها الاسرائيليون . وخـلال

يومى المذبحــة وبعدها تم دفن المئات من الضحايا سرا فى قبــور جماعية . وكانت المحصلة النهائية أكثر من ١٤٠٠ قتيل ومفقــود ، أغلبهم من الاطفال والنســاء وكبار السن . ولم يظهر أى دليــل على تواجــد قوات من منظمة التحرير الفلسطينية أو الميليشيات بين الفلسطينيين فى المخيمين .

وكان رد فعل العالم الذى صدمته هذه المأساة هو الادانة والشجب . وعلى الرغم من أن الكتائبيين هم الذين نفــذوا عمليات القتــل ، فان قادة الحكومة الاسرائيلية هم الذين واجهوا النقــد الشديد . وكان رد الفعل بين أكثر العرب اعتدالا بنفس درجة العنف الذى يكنه ألــد اعداء اسرائيــل . وشعر المصريون على وجه الخصوص بالحرج بسبب هذه النتيجة المؤسفة التى أسفرت عن معاهدة السلام التى وقعوها مع اسرائيل ، وسحبوا ســفيرهم من تل أبيب . وبين عشية وضحاها كان السوريون ومؤيدوهم الســوفييت قد كسبوا فرصة جديدة لتعويض حظهم ، وربما الانتشار أخيرا فى لبنان .

ومع ذلك ، فلم يكن رد الفعل فى أى مكان آخــر أكثر غضبا أو ألمــا من رد فعل المجتمع الديمقراطى الاسرائيلى . فقد عمت المظاهرات الشعبية الصاخبة والمطالبات باجراء تحقيق فورى وغير محدود . واشــار شيمون بيريز زعيم المعارضة الى « أن هــذا العمل البغيض كمــا وصفه الحاخامات يتناقض تماما مع تقاليد الديــانة اليهــودية » . وطالبت الصحف الاسرائيلية الرئيسية باستقالة بيجين رئيس الوزراء ، واريل شــارون وزيــر الدفاع والقادة العسكريين المسئولين عن عملية لبنان . وعندما رفضت حكومة بيجين المطالب المتزايدة باجــراء تحقيق ، خرج أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ مواطن — أكثر من عشرة فى المائة من سكان اسرائيل — فى مظاهرات للتعبير عن استيائهم وللمطالبة بتحديد الاشخاص المذنبين ومعاقبتهم . وأسفرت هذه الضــغوط أخيرا عن اجبار بيجين على تشكيل لجنة للتحقيق فى دور اسرائيل فى هــذه المذبحــة .

وفى الوقت نفسه فقد تم تعيين امين الجميل ، شقيق الزعيم اللبنانى القتيل ، رئيسا للبنان . وكانت القوات الامريكية قد عادت الى بيروت كجزء من القوات المتعددة الجنسيات لاعادة الشكل العام للنظام فى العاصمة التى مزقتها الحرب . وبدلا من البقــاء على الحياد ، فقــد وجــد الأمريكيــون أنفســهم متحالفين مع حزب الكتائب التابع للجميل ضــد الأغلبية التى تضم المسلمين والدروز ومسيحيين آخــرين .

وتمثل أحداث هذا الشــهر بعض العناصر المثيرة للقلق فى صراعات الشرق الأوســط ، ويظهر ذلك فيما يلى :

استمرار اراقة الدماء بسبب التنافس القديم بين الاسرائيليين والعرب وبين المسيحيين والمسلمين .

تـدرة القوات العسكرية الاسرائيلية المؤكدة على الاستيلاء على الارض ، وفشلها فى تحقيق الاستقرار الدائم أو الامن فى المنطقة .

عدم فاعلية الدول العربية فى ابتكار أو تحقيق سياسة متماسكة فيما بينها للتعامل مع الوجود الاسرائيلى .

الاستمرار المثير للدهشة لمعاهدة السلام المصرية الاسرائيلية مع وجود اعتقاد مصرى متزايد بأن هذه المعاهدة يمكن أن تسهم فى الهجمات الاسرائيلية على العرب الآخرين .

سوء توجيه السياسة الامريكية ، التى ساعدت على وجود الأوضاع العدائية مثل وضع سوريا والاتحاد السوفيتى .

الانقسامات المتزايدة داخل اسرائيل نفسها بشأن الحكمة والنتائج النهائية للسياسات التى انتهجها بيجين وحكومته .

ولكن هل هناك أى أمل فى تحقيق السلام فى الشرق الاوسط ؟ وما سبب سلسلة الاحداث المتعاقبة هذه خاصة بعد مرور اربعة أعوام على توقيع اتفاقية كامب ديفيد ؟ . لقد قضيت جزءا هاما من حياتى العامة فى محاولة الاجابة على السؤال الأول بايجابية ومحاولة معرفة الاجابة على السؤال الثانى .

يمتد الشرق الاوسط بالتحديد ليشمل جميع الدول التى تحد السواحل الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط ، ويمتد من المغرب الى تركيا والبحر الأحمر وخليج العقبة والخليج الفارسى . ويتناول هذا الكتاب هذا الجزء من الشرق الأوسط الذى يضم الدول المعنية أساسا ومباشرة فى الصراع حول مستقبل الاراضى المقدسة — اى اسرائيل وجيرانها — (مصر والاردن وسوريا والاراضى المحتلة وتشمل الضفة الغربية وقطاع غزة) والمملكة العربية السعودية ، وربما يعتبر الشرق الأوسط أكثر المناطق عرضة للانفجار والمستهدفة للاستيلاء عليها فى العالم ، كما أن عدم استقراره يعتبر أكبر تهديد للسلام .

وكانت هذه المنطقة — لقرون عديدة — مركزا هاما للطرق التجارية ، مركزا للصراع من اجل السيطرة على الاراضى المليئة بالثروات التى تحيط بالاماكن المقدسة للديانات الثلاث الكبرى التى تدعو الى التوحيد : اليهودية والمسيحية والاسلام — وهى عقائد الذين يشتركون فى دم « سيدنا » ابراهيم — علاوة على أن شبه الجزيرة العربية بها أكبر احتياطات النفط فى العالم الحر ، وهو الوقود الذى تعتمد عليه دول اخرى فى العالم الى حد كبير .

كما أن الدولتين العظميين ذاتهما لديهما مشروعات استثمارية ضخمة اقتصادية وسياسية وعسكرية فى الشرق الأوسط ، الأمر الذى دفعهما الى حماية مصالحهما الخاصة ومصالح حلفائهما وتوسيع نفوذهما من أجل المستقبل. وكنتيجة لهذه القوى ، الداخلية والخارجية ، فان الصراعات فى المنطقة تهدد باستمرار بتوقف الامدادات الحيوية من البترول ، ويحرم الجماهير من المطالب المتزايدة للحصول على فوائد مالية واجتماعية لا يمكن ان تتحقق الا بالسلام .

ولفهم جذور الكراهية واراقة الدماء والتى لا تزال تميز العلاقات بين شعوب المنطقة ، فانه من الضرورى الرجوع الى الكتب المقدسة التى ظهرت فى العصور القديمة . وبدرجة ملحوظة فان « ارادة الله » هى الأساس لكل المجادلات الخفية والهجمات الارهابية الأكثر شراسة بين اليهود والمسلمين والمسيحيين .

فكيف نكون وعود الله السابقة اداة للصراع الذى استمر حوالى أربعين قرنا بعد أن أصبح سيدنا ابراهيم ابو العرب واليهود فى الأرض المقدسة ، وبعد حوالى ٣٠٠٠ عام منذ حكم الملك داود العظيم ، وبعد حوالى ٢٠٠٠ عام بعد أن بشر المسيح برسالته الثورية لنفس الأرض ، وبعد ١٣٥٠ عاما منذ انتهاء عهد النبى محمد « صلى الله عليه وسلم » . والشىء المحزن انه بالنسبة « لأهل الكتاب » الذين يعترفون ويعبدون نفس الاله ، فان الكتب المقدسة تعتبر مصدرا للخلاف اكثر من العيش فى سلام .

وخلال مناقشاتى حول الصراعات بين هذه الديانات مع الرئيس المصرى أنور السادات ، أشار مرارا وفى أغلب الأحوال بشكل عرضى الى الاخوة بين العرب واليهود وكيف انهما أبناء أب واحد هو « سيدنا » ابراهيم . واشارة الرئيس السادات الى « سيدنا » ابراهيم دفعتنى الى اعادة دراسة قصة « سيدنا » ابراهيم وأبنائه الأوائل ، ومعرفة مغامراتهم من وجهة نظر اليهود والمسيحيين والعرب على التوالى وتساءلت كيف يمكن للمؤمنين بديانات مختلفة والمقتنعين بنفس التاريخ أن يعتقد كل منهم انه هو شعب الله المختار ؟ .

ومن المتصور ان نتذكر أن وطن سيدنا ابراهيم وهو ، « أور » فى العصر البابلى كان ربما فى العراق بالقرب من نهر الفرات بالخليج الفارسى . وتنفيذا لأوامر الله رحل سيدنا ابراهيم وأسرته الى الشمال الغربى على بعد مسافة تصل الى اكثر من ١٢٠٠ ميلا ، واستقر لفترة من الزمن فى سوريا الشمالية ، ثم أمره الله عندما بلغ من العمر خمسة وسبعين عاما بالذهاب الى أرض كنعان الموعودة (غالبا هى الأرض الواقعة بين نهر الاردن والبحر الأبيض المتوسط) والتى سوف تؤول اليه والى نسله الى ما شاء الله . وعندما وصلوا وجدوا مجاعة كبيرة . ولهذا انتقل « سيدنا » ابراهيم وأسرته بعيدا الى الجنوب ، الى مصر

وعاش « سيدنا » ابراهيم فى مصر فى بحبوحة من العيش ، وبعد فترة اعده فرعون الى أرض كنعان مع جمهور كبير ، وبسبب كبر حجم عدد أفراد أسرتسه وثرائهم ، تبين لهم أنهم لن يستطيعوا العيش سويا ، الأمر الذى أدى الى قيام « سيدنا » ابراهيم بالسماح لابن أخيه « لوط » أن يختــار الأراضى الخصبة الواقعة فى وادى نهر الأردن وحول البحر الميت . وأخذ « سيدنا » ابراهيم ما تبقى من الأراضى وهى المناطق المرتفعة الواقعة فى الغرب .

وكان « سيدنا » ابراهيم حكيما وانسانا طيبا ، ووعده الله مرة اخـرى بمباركات كبيرة أخرى ، بما فى ذلك الأراضى الواقعة من النيل الى الفرات وان يرث ما وراءهما .

ولم ترزق زوجة « سيدنا » ابراهيم « السيدة سارة بأطفال ، ولهـــذا منحت زوجها جارية مصرية اسمها « السيدة » هاجر ليتزوجها ، واحتقــرت السيدة هاجر ، التى كانت حاملا فى ذلك الوقت ، السيدة سارة ، فأجبرتهـا السيدة سارة فيما بعد على مغادرة المنزل · وعثر ملاك الرب على « الســيدة هاجر فى منطقة قفر ، وبشرها بالعودة الى منزل « سيدنا » ابراهيم ووعدها بولد يكون له نسل كبير . وكان « سيدنا » ابراهيم قد بلغ من العمر خمســة وثمانين عاما عندما ولد « سيدنا » اسماعيل من السيدة هاجر . وبعد ثلاثين عاما أخذ الله على سيدنا ابراهيم عهدا آخر فوعده بأن « السيدة » ســـارة سوف يكون لها ابن اسمه اسحاق وتتكون من ذريته الأمم وأن سيدنا اسماعيل سوف ينجب اثنى عشر أميرا ويكون له كذلك أمة كبيرة . وتم ختان ســيدنا ابراهيم وسيدنا اسماعيل وجميع الخدم والعبيد للتصديق على العهد كما أمـر الله ، وولدت السيدة سارة لسيدنا ابراهيم الابن الموعــود سيدنا اسحــاق ، وأجبرت فيما بعد السيدة هاجر وسيدنا اسماعيل على ترك المنزل . وقد سبب ذلك حزنا عميقا لسيدنا ابراهيم ، ولكن التوراه تقول « ان الله ظل يبارك سيدنا اسماعيل حتى نهاية أيامه .

ورزق أسحاق وزوجته « رفقة » بتوأم ، يعقوب وعيسو ، اللذين افترقا بسبب الغيرة ثم تصالحا فيما بعد ، وتعاهدا على الحب لأنهما يحملان دما واحدا . وبعد موت السيدة سارة رزق سيدنا ابراهيم بستة أبناء آخريــن من زوجتــه « كيتورا »، الذين كون نسلهم القبائل الكاملة للشعب الــذى عاش فى لبنــان وسوريا والأردن ومصر ودول افريقيا الشمالية الأخرى . ومات سيدنا ابراهيم عن مائة وخمسة وسبعين عاما ودفنه ولداه اسحاق واسماعيل بجوار السيدة سارة بالقرب من منزله فى الخليل .

وأوحى الرب فيما بعد لاسحاق : «سوف أجعل له ذرية ليتكاثروا مثل عدد النجوم فى السماء ، وسأعطى الى نسلهم كل هذه الامم ، وسيبارك نسلهم فى جميع امم الأرض » . والمسلمون يعتبرون انفسهم من نسل « سيدنا » ابراهيم

من خلال « سيدنا » اسماعيل ، ولكنهم يبجلون كذلك بعض شخصيات الكتاب المقدس مثل اسحاق وموسى والأنبياء والمسيح . ونزل فيما بعد الوحى على محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو جبريل ، وهذا يؤكد ايمانهم بأن السماء تباركهم بصفة خاصة .

ويشارك اليهود فى دم سيدنا ابراهيم من خلال اسحاق وذريته ، ولكنهم يؤكدون الوراثة الخاصة ليعقوب .

وكان يعقوب اصغر توامى اسحاق ، ولكن بمساعدة أمه تمكن من خداع أخاه عيسو ، الذى كان يفضله اسحاق ، بعيدا عن مباركة والده . ووعد اسحاق يعقوب بانه سيصبح سيدا على اخوته ، ولكن عندما اكتشف الخدعة، أخبر عيسو ، بأنه يجب أن يعيش ومعه سيفه ، وأن يخدم أخاه ، مضيفا الى « أن عيسو سوف يخضع يعقوب ويعاقبه بقسوة » .

وتغير اسم يعقوب الى اسرائيل عندما تصالح الاخوان ، ومن نسله جاءت القبائل القديمة وحملت اسمه الدولة الحديثة . وبعد أن دفن اسرائيل (يعقوب) وعيسو والدهما اسحق ، اقاما سويا فى أرض كنعان حتى أصبحت عائلاتهما كبيرة للغاية وثرية . وبعد ذلك رحل عيسو ونسله بعيدا الى الغرب فى آدوم ، وبقى اسرائيل فى كنعان .

ورحلت اسرة اسرائيل الى مصر فى فترة قحط شديدة واصبح نسله عبيدا للفراعنة . وبعد أن عاشوا فى أرض غريبة لمدة ٤٣٠ عاما ، أوحى الله الى موسى بتحرير ابناء اسرائيل الاثنى عشر والخروج بهم من مصر الى الحرية وكان تعداد الأثنتى عشرة قبيلة من سلالة اسرائيل ٦٠٣ر٥٥٠ رجلا وكانوا أقوياء البنية ، بالاضافة الى عدد لايحصى من الكهنة والنساء والأطفال ورجال طاعنين فى السن أو غير قادرين على الحرب .

وكانوا قد وعدوا بأرض كنعان وطنهم ، لكن بسبب آثامهم فقد أجبرهم الرب على التيه فى البرية حتى جاء جيل جديد ، وقادهم يشوع عبر نهر الأردن وأقاموا فى « ارض الميعاد » وناضل الاسرائيليون ضد اعدائهم وكانوا ينتصرون عليهم عندما يكون الرب راضيا عن اعمالهم . وبعد حوالى الف عام من عصر ابراهيم ، (وقبل مولد المسيح بنفس المدة) اتحدت الاثنتا عشرة قبيلة تحت زعامة الملك داود فى شكل امة قوية . ووعد الله داود بسبب ايمانه بأن مملكته سوف تستمر الى الابد .

ومع ذلك فان سيدنا موسى قد أوضح للاسرائيليين بأن وعود الله تلزم دائما شعبه المختار بأن يكون مطيعا ومخلصا للعقيدة والقانون السماوى . وكان لداود وابنه سليمان العديد من الخلفاء ، اغلبهم لم يكن مطيعا ، وانقسمت الأمة الى أمتين منفصلتين فى عهدهم : يهودا واسرائيل . وفشلت الامتان فى

الوصول الى مستوى الاخلاص والعدل للرب ، ولهذا فقد تم تدميرهما بواسطة اعدائهما . وتم تدمير اسرائيل حوالى عام ٧٢٢ قبل الميلاد ، ويهودا حوالى عام ٥٨٦ قبل الميلاد ، ووقع اليهود في الأسر ولكن بعضا منهم عاد الى القدس تباعا حيث عاشوا تحت سيطرة أجنبية ولكنهم كانوا قادرين على المحافظة على عاداتهم وعقيدتهم الدينيـــة .

وهذا العرض المختصر للتاريخ القديم للكتاب المقدس يعتبر أمرا هاما حتى يومنا هذا باعتباره أساسا مشتركا لكل من اليهودية والاسلام . ويعتبر اليهود أن وحى الله الذى أنزله على ابراهيم واسحاق ويعقوب وموسى يطبق عليهم فقط . كما يعتقد المسلمون أن جزءا من هذا التاريخ له اهمية جوهرية ويستخلصون منه المبرر لوضعهم المميز فى نظر الاله ، كما اوحى فيما بعد لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وأنه لمن الامور الهامة للغاية بالنسبة لمسيحيى العالم أن يعلموا أن المسيح ، وهو من نسل الملك داود ، هو تلبية لوعود الله السابقة بشأن المباركة الدائمة ، وأن مملكته ستستمر على مدى الازمان وبين جميع شعوب الأرض ، لذلك فانه ينبغى على المسيحيين والمسلمين أن يعلموا أن وعود الله ليست مقصورة على شعب موسى . والمسيحيون يؤمنون بأن الله بارك ابراهيم بسبب ايمانه ، وليس بسبب جنسه ، وأنه أب لكل الذين يشاركون ايمانه بالله .

وخلال مقابلاتى الطويلة مع رئيس الوزراء بيجين ومقابلاتى الأطول مع الرئيس السادات ، تناقشنا فى الديانات الثلاث المؤمنة بوجود الله ، وتأثير تلك الديانات على العلاقات القديمة والحديثة بين شعوب الشرق الأوسط ، وكذلك ، تأثيرها علينا كأفراد : فنحن الثلاثة نمثل اليهود والمسيحية والاسلام — ونحن نسعى لتحقيق السلام ، ويبدو أن السادات كان مغرما بالحديث فى هذا الموضوع ، وكان يشير دائما الى خططه بشأن بناء مجمع مقدس فوق جبل سيناء حتى يمكن للمؤمنين بالأديان الثلاثة أن يمارسوا عبادتهم سويا .

وكان بيجين مهتما بشكل خاص بشأن تحليل التاريخ ، وخاصة فيما يتعلق بمدى تأثير الايمان فى يهود الدياسبورا (الشتات) وكيف انه جعلهم وحدة بالرغم من عهود الاضطهاد التى عانوا منها ، وتجزئتهم داخل اقليات وطنية تناثرت بين أمم متعددة . وكنت مطلعا على الاساس الدينى لبعض التزاماته السياسية بخصوص استيعاب أراض اضافية داخل اسرائيل ، وقد لاحظت هتاف مؤيده فى الحملة الانتخابية عندما كانوا يرددون : « بيجين ملك اسرائيل » وهذا الهتاف كان تذكرة حديثة من جانب أتباع ورئيس الوزراء بمجد اسرائيل القديم ، عندما قاد الملوك اليهود ، وعندما حقق الملك داود العديد من الانتصارات وحكم اغلب أراضى المنطقة .

وربما مراعاة لمعارضتى القوية والعلنية لخطط بيجين الخاصة باستيعاب كل أراضى الضفة الغربية وغزة ، فانه نادرا ماكان يستند الى أى أمر من الله بخصوص ضرورة وجود خطوط جغرافية خاصة توضع حدود سيطرته . وباعتباره دارسا للتوراة فانه كان يتلو أحيانا فقرات من الكتاب المقدس مثل ما معناه ؟ . « اذا نسيت القدس ، فاجعل ياربى يدى اليمنى تصاب بالشلل » ، بهدف التأكيد على أنه لن يجعل هناك من يشاركه السلطة فى القدس . ولا أتذكر المناسبة التى أثار فيها بيجين مناقشة عن المسيحية أو الاسلام ، او اشترك فى أى تحليل مقارن للمعتقدات الدينية . والواقع ان التعليقات التى أثارها السادات حول مقاسمتنا لدى ابراهيم كانت تسبب نوعا من الارتباك لبيجين الى حد ما .

وكان السادات شأنه شأن بيجين رجلا ورعا . وكان يناقش ونحن فى اجنحتنا الخاصة وخلال نزهاتنا الصباحية فى كامب ديفيد عن معتقداته الاسلامية . وكان سعيدا عندما كان يجيب على اسئلتى المديدة . وأثناء اعدادى لمناقشات السلام حول الشرق الاوسط ، قمت بدراسة مختصرة للقرآن ، الامر الذى جعل مناقشاتى مع السادات لها دلالة اكبر ، ولكنه كان يعرف قدرا كبيرا عن اليهودية والمسيحية أكثر من معرفتى عن عقيدته .

ان اليهودية والاسلام لهما تأثير عميق على الحكومات والسياسة العامة فى اسرائيل وفى الدول العربية . فاسرائيل تعتبر دولة يهودية تم انشاؤها لتكون وطنا لليهود الذين يحصلون تلقائيا على حق المواطن بمجرد وصولهم الى اسرائيل . حتى هؤلاء اليهود غير المتدينين يعلنون فى كثير من الأحيان عن تأييدهم لأكثر السياسات الاسرائيلية اثارة للجدل حول الكتب المقدسة . كما أن طريقة حياتهم الاجتماعية والسياسية متأثرة بالتقاليد العميقة لليهودية .

ويعتبر الاسلام كذلك أكثر من مجرد ديانة . فأحاديث النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) تعتبر مرشدا للوجود القبلى والعائلى : كيف تعامل الأصدقاء والأعداء والضيوف ، والذين يؤذون جيرانهم او الذين لديهم خصومات قانونية . والقرآن الى جانب الأحاديث التى نقلت عن محمد (صلى الله عليه وسلم) تعتبر قوة ملزمة حيث تمد الدول العربية بلغة مشتركة وثقافة مشتركة ، باستثناء لبنان . وهو دين مشترك بين الدول تستمد منه القوانين الاساسية . وهذا التجانس بين الحكومة والدين يتجه الى تعزيز مفهوم الوحدة بين الامم الاسلامية ، وبين اسرائيل واليهود فى مختلف دول العالم الامر الذى تفتقده ، بشكل كبير الدول المسيحية حاليا .

وبالرغم من وجود لغة وعادات وديانة مشتركه ، وبغض النظر عن رغبة القادة ذوى النفوذ فى التنسيق ووحدة الهدف ، فان العالم الاسلامى لايزال

ممزقا نتيجة للصراعات التى لم تعد مقصورة على الحرب مع اسرائيل . فالحرب المدمرة بين ايران والعراق تهدد سلام جيرانها تهديدا خطيرا .

وتعتبر الثورة أمرا محتمل حدوثه باستمرار فى الأمم التى بها أقليات دينية عرقية كبيرة لا تتفق مع الصفوة الحاكمة . فالثورة الايرانية والصراع السيادى فى لبنان قاما لمواجهة خلفية من مثل هلاه الجماعات المتنافسة التى تسعى الى تعزيز قواتها وهيبتها . كما أن اختلاف الأديان والجنس والأصل ، تسهم كلها فى التوترات السياسية التى تعم كافة أرجاء المنطقة ، وليس فقط داخل الدول العربية ، ولكن أيضا بين المواطنين داخل اسرائيل .

بيد أن السبب الرئيسى لاستمرار اراقة الدماء فى المنطقة يرجع الى هذا الصراع من أجل الأرض . ضاعف الاسرائيليون مساحة الاراضى التى يسيطرون عليها بعد حرب عام ١٩٦٧ الخاطفة ثلاثة أضعاف على حساب مصر والأردن والفلسطينيون وسوريا ، وهذه الدول عاشت لسنوات عديدة وهى مؤمنة ايمانا قويا بأنها غير قادرة على قهر اسرائيل عسكريا .

ولكن فى أكتوبر عام ١٩٧٣ وقع الهجوم المفاجىء من جانب سوريا ومصر . واثبتت الدفاعات الاسرائيلية كفاءتها ، ولكن القوات العربية حاربت بكفاءة عالية ، وكانت قادرة على استعادة مفهومها النفسى لمبدأ المساواة . فقد اكتسبت هذه القوات قدرا كافيا من الكبرياء والثقة بالنفس ، الأمر الذى سمح للقادة المصريين والسوريين بقبول اتفاقية انسحاب محدودة مع اسرائيل . بالرغم من أن الاسرائيليين استمروا فى احتلال أجزاء حيوية من أراضيهم .

كذلك فان حرب ١٩٧٣ غيرت من الدور الأمريكى فى الشرق الاوسط . فبعد المساعدات التى قدمتها أمريكا بخصوص شروط وقف اطلاق النار ، فقد تم الاعتراف بها كوسيط يحظى بالقبول من الجانب العربى والاسرائيلى . وكان واضحا من الحرب أن القوة الساحقة للعسكرية الاسرائيلية لا يمكنها وحدها ضمان أو فرض الحل السلمى للخلافات .

وبمرور الوقت انتخبت رئيسا للولايات المتحدة فى عام ١٩٧٦ ، وشعرت ان القادة فى المنطقة يمكن أن يرحبوا بالمبادرات التى تقدمها الولايات المتحدة لتحقيق هدف السلام . وكان قد صدر قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ فى نوفمبر عام ١٩٦٧ الذى ينادى بالأرض مقابل السلام ، وسيادة واستقلال جميع الدول فى المنطقة ، وانهاء حالة الحرب وايجاد حل لمشكلة اللاجئين ، وتقديم مساعدة خارجية لتسوية الخلافات القائمة ، وانهاء الصراع المستمر (ملحق رقم ١) وهذا القرار كان من الممكن ان يكون الأساس لجميع الجهود المستقبلية لتحقيق السلام ، الا ان الفلسطينيين رفضوا هذا القرار لانه لم يعترف

بمطالبهم الخاصة بحقهم فى أن يكون لهم وطن ، أو بحقهم فى انشاء دولة . وجاء قرار الأمم المتحدة رقم ٣٣٨ فى نهاية حرب ١٩٧٣ ، وطالب بوقف اطلاق النار الفورى واقترح اجراء مفاوضات تحت رئاسة مشتركة للدولتين العظميين (ملحق رقم ٢) .

وبطريق غير مباشر بدأت تتبلور مواقف جديدة فى اسرائيل وبين جيرانها ، فقد لمس القادة الاسرائيليون الدليل على حرص الولايات المتحدة على أمن دولتهم . فى حين وقفت أغلب الدول الغربية الاخرى على الحياد على أفضل الأحوال . وفى مواجهة اعادة تقييم سياستها فى الشرق الاوسط التى أعلنها الرئيس جيرالد فورد فى عام ١٩٧٥ ، والتى كانت تهدف الى فرض ضغط على اسرائيل ، قام مؤيدو اسرائيل فى الولايات المتحدة باستعراض « عضلاتهم » السياسية ، ووقع ستة وسبعون سيناتورا أمريكيا على خطاب يحذرون فيه الرئيس من اتخاذ أى عمل يمكن أن يحرم اسرائيل من احتياجاتها العسكرية أو الاقتصادية . وكان الاسرائيليون يثقون تماما فى قوتهم العسكرية وفى تأييد الولايات المتحدة لهم سواء فى البيت الابيض أو فى الكونجرس على وجه الخصوص .

وكان الرئيس السادات قد سبق أن حطم الروابط القوية مع الاتحاد السوفيتى ، وكان يؤمن أن الولايات المتحدة يمكن الوثوق بها لحماية كل من المصالح الاسرائيلية والعربية فى أوقات الازمات ، كما اثبت كذلك أنه يرغب فى التفاوض بطريق مباشر مع اسرائيل مستعينا بالرئيس الامريكى ووزير خارجيته كوسيطين .

وكان من الواضح تماما أن مصر تميل الى الانسحاب من هذا الصراع القائم مع اسرائيل اذا حصلت على شروط مقبولة ، وأثبت السادات أنه هو وبلده على استعداد لمواجهة أى ادانة من جانب الدول العربية الاخرى بسبب اجراء مثل هذه المفاوضات .

بيد أن الرئيس السورى حافظ الاسد لم يكن مرحبا بالتعامل مع اسرائيل على أساس ثنائى . وكان قد أذعن لشروط وقف اطلاق النار مع اسرائيل على مضض شديد فىنهاية حرب ١٩٧٣ ، كما وافق على قرارات الامم المتحدة الرئيسية فقط بشروط صارمة . وفى ديسمبر عام ١٩٨٣ لم يحضر جلسات مؤتمر جنيف التى استغرقت يومين ، وقد عقد هذا المؤتمر وفقا لقرار الامم المتحدة رقم ٣٣٨ .

وبحلول عام ١٩٧٦ تراجع الأردنيون ليصبح لهم دورا ثانويا فى رسم سياسة المنطقة ، لانهم فقدوا السيطرة على الضفة الغربية فى حرب ١٩٦٧ ، وبقى الأردنيون بمعزل نسبى عن حرب عام ١٩٧٣ ولهذا ظلوا

بعيدين عن عملية التفاوض ، وفى مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى الرباط فى أكتوبر ١٩٧٤ تم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية تحت زعامة ياسر عرفات باعتبارها الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . وكانت منظمة التحرير تريد الضفة الغربية وغزة كحد ادنى لتنشىء منها دولة فلسطينية مستقلة غير تابعة لأى سيادة أجنبية . وقد حد قرار مؤتمر الرباط بشكل كبير من سلطات الملك حسين فى المساومة مع اسرائيل حتى بالنسبة لوضع الأراضى الاردنية التى فقدها فى الضفة الغربية ، وفى هذا النطاق أبدت الأردن تشددها فى الخلافات المتعلقة بهذه الأرض وشعبها .

وخلال مفاوضات فك الاشتباك بعد حرب ١٩٧٣ تعهد وزير الخارجية هنرى كيسنجر والرئيس فورد — سرا — بعدم الاعتراف أو التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية حتى يعترف قادة المنظمة بحق اسرائيل فى الوجود وقبول قرارى الأمم المتحدة ٢٤٢ و ٣٣٨ . وأمام هذه الظروف لم تقبل منظمة التحرير الفلسطينية هذا الوضع ، ولهذا استبعدت المنظمة كمفاوض ، سواء مع الولايات المتحدة أو اسرائيل . وقد تركت سلسلة الأحداث هذه الاراضى المحتلة بدون صوت عربى على مائدة المساومات المحتملة سواء من جانب سكانها الفلسطينيين أو من الأردن .

واثناء ذلك وعبر الخليج الفارسى بدأت بذور الثورة تنبت فى ايران بسبب حكم الشاه المطلق ، والطلب المتزايد للحصول على مزيد من عوائد الثروة النفطية الوطنية ، ونتيجة لرد فعل الزعماء الدينيين المحافظين المعارضين لتحرك الشاه السريع نحو اقامة مجتمع غربى وعلمانى . وكان أهل الشيعة من المسلمين ينتقدون على وجه الخصوص حقوق المساواة المرأة ولغير المسلمين ، وينتقدون أيضا غياب التأثير الاسلامى فى الحكومة ، والاتفاقيات التجارية الأجنبية بخصوص بترول ايران ومنتجاتها الزراعية ، واضطهاد الدولة الوحشى لكل من يتظاهر ضد سياسات الشاه .

وخلال منتصف السبعينيات لم يكن هناك أى تفكير جدى سواء من جانب أجهزة مخابراتنا أو من جانب القادة السياسيين فى أوروبا أو الشرق الاوسط ، بأن الشاه سيتم عزله بالفعل . ونظراً للتقارير الواردة عن زيادة أعمال العنف فى ايران أثناء زيارة الشاه الاولى لواشنطن فى نوفمبر ١٩٧٧ ، فقد أطلعت الشاه على ضرورة مخاطبة القوى الثورية المضادة من بين الطلبة الايرانيين فى الولايات المتحدة والمتظاهرين فى شوارع ايران . لكن الشاه قلل من أهمية هذه النشاطات باعتبار ان القائمين بها « قلة من الشيوعيين والمتعاطفين معهم » ، الذين ليس لهم مطالب مشروعة أو أى تأييد شعبى . وأصر على أن حبس الاصوات المعارضة وفتح النار

من جانب قوات الشرطة التابعة له على الجماهير المتظاهرة تعتبر من افضل الطرق لاخماد هذه الفتنة . والواقع أن الشاه قد ذهب الى حد أنه اقترح أن يقوم القادة الغربيون بمحاكاة تشدده خشية أن تنتج مبادئنا الديمقراطية السمحة الطريق أمام موجة عارمة من احتجاج جماهيرى لا يمكن السيطرة عليه .

وباعتبارى رئيسا لدولة كان يجب على أن أواجه هذه العوامل المتعددة فى الشرق الاوسط ، ولكن كانت هناك دلائل تشير الى أن التوفيق يعتبر أمرا ممكنا . فاسرائيل وجيرانها العرب يعتبرون فى حالة حرب من الناحية الفنية ، ولكن المنطقة يسودها الهدوء بكل ما تحمله الكلمة من معنى . كما كانت الزعامة فى جميع الدول الرئيسية فى المنطقة كما هى ومستقرة فى مواقعها . وكانت الدلائل تشير الى أن السادات ربما يكون مستعدا لاجراء مفاوضات أخرى ، أما القوات السورية فانها تحافظ على استقرارها الظاهرى فى لبنان ، هذا فضلا عن أن الجهود الموفقة التى تبذلها السعودية للتخفيف من حدة الانقسام بين الزعماء العرب ، جعلت الولايات المتحدة وغيرها من الدول تشعر بأن أية خطوات اخرى لاحقة تجاه السلام يمكن أن يقبلونها . وبالرغم من أن الفلسطينيين مازالوا مستبعدين من أية محادثات سلام ، فانه من الممكن تخطى هذا الحاجز من خلال حسين ملك الاردن . وكانت الانتخابات الاسرائيلية على الابواب عام ١٩٧٧ وكان هناك أمل فى امكانية تشكيل تحالف حاكم اكثر قوة يتمتع بتأييد شعبى يمكنه من القيام بتحركات ديبلوماسية جريئة فى مجال التفاوض من اجل السلام .

وكنت على استعداد للاشتراك شخصيا فى هذه المهمة ، اذا اقتضت الضرورة فقد تمت خلال الشهور القليلة الاولى لتولى منصبى ، باجراء محادثات مع اسحاق رابين رئيس وزراء اسرائيل (فى مارس) . ومع الرئيس المصرى أنور السادات (فى ابريل) ، ومع حسين ملك الاردن (فى ابريل) ، ومع الرئيس السورى حافظ الاسد (فى مايو) . ومع ولى العهد السعودى الأمير فهد فى (مايو) وأخيرا مع رئيس الوزراء الاسرائيلى المنتخب حديثا مناحم بيجين (فى يونيو . وبعد كل هذه الاجتماعات صممت على مواصلة جهودنا من أجل تحقيق السلام . وكان أغلب القادة العرب يؤيدون هذه الجهود ، وأن كانوا غير موافقين على تورطهم المباشر فى أية مفاوضات مبكرة . وكان السادات وبيجين فقط هما اللذان لديهما الاستعداد للانضمام الى محادثات حقيقية بخصوص الموضوعات الاساسية وهى : الارض وحق اسرائيل فى العيش فى سلام مع جيرانها ، وحقوق الفلسطينيين .

وقد تحقق بعض التقدم الهام فى سبتمبر عام ١٩٧٨ فى كامب ديفيد ، خلال المفاوضات اللاحقة التى اسفرت عن معاهدة سلام بين مصر واسرائيل

عام ١٩٧٩ ، غير أن الاحداث التالية حالت دون حدوث أى تقدم آخر . فقد رفض الاردنيون والفلسطينيون المشاركة فى المحادثات التى كانت ستفى بالوعود التى قدمت للفلسطينيين الذين يعيشون فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، ولم يتم احترام الالتزامات التى قدمت فى كامب ديفيد بشأن الاراضى المحتلة وحقوق الفلسطينيين . كما أدى غزو اسرائيل للبنان الى تقويض أى تقدم نحو السلام .

ومع توقف عملية السلام فان تدخل القوى الخارجية وتحالفها مع العناصر المتنازعة فى الشرق الاوسط أصبح أمرا ضروريا بشكل متزايد . لم يكن التنافس من أجل فرض النفوذ فى المنطقة بين الدول الشرقية والدول الغربية بالشىء الجديد . فقد كانت القوى الخارجية ، منذ أكثر من الف عام قبل « سيدنا » ابراهيم ، تتصارع على طول السواحل الشرقية للبحر الابيض المتوسط ، سواء من أجل تجارتهم أو من أجل أطماع سياسية ، أو بسبب حرمان أى عدو من التمتع بخيرات المنطقة . وبعد ذلك خضعت هذه المنطقة الساحلية خلال أربعة قرون حتى نشوب الحرب العالمية الأولى لسيطرة الأتراك باعتبارها جزءا من الامبراطورية العثمانية ، باستثناء مصر التى خضعت للنفوذ الفرنسى ، ثم النفوذ الانجليزى منذ فتح قناة السويس فى عام ١٨٦٩ .

وتفرغت بريطانيا وفرنسا بعد انتصارهما فى الحرب العالمية الاولى لتقسيم الاراضى العثمانية فيما بينهما . وبتكليف من عصبة الامم تم الاعتراف بالحكم الفرنسى على سوريا ولبنان ، فى الوقت الذى احتفظ فيه البريطانيون بسيطرتهم القوية على مصر والعراق ودولة شرق الاردن الجديدة وفلسطين . ومن ثم ناضل السكان العرب واليهود من أجل تحقيق السيادة على فلسطين ، ولكن ظلت السيطرة السياسية النهائية فى يد بريطانيا .

وكانت الدولتان الاوروبيتان ملتزمتين أمام عصبة الامم وأمام شعوب تلك الدول الاصلية بتحقيق استقلال تلك الدول . وقد تم اعتبار فلسطين مسألة ميئوس منها وذلك لانه لن يمكن التوصل الى اتفاق بين العرب واليهود على اقامة حكومة واحدة تضم الطرفين . وعلاوة على ذلك كان على البريطانيين أن يضعوا فى اعتبارهم وعد بلفور ، الذى يطالب : « باقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين بدون الاضرار بالحقوق المدنية والدينية للطوائف الاخرى غير اليهودية » ، تلك الورطة التى لا تزال تعانى منها المنطقة حتى وقتنا الحالى .

ومع حلول الحرب العالمية الثانية كان البريطانيون والفرنسيون لا يزالون يسيطرون على الشرق الاوسط ، ولكن نيران الحركة الوطنية المتزايدة اشتعلت فى كل منطقة . وبذل النازيون كل ما فى وسعهم لزيادة اشتعال

لهيبهـــا ، وان لم ينجحـــوا الا نجـــاحا محدودا فى ذلك ، وحتى بعد سقوط فرنســـا فقد حل البريطانيون بسرعة محل قوات فيشى فى لبنـــان وسوريا . وظلت المملكة العربية السعودية المستقلة تقــف على الحيـــاد من الصراع حتى وقت متأخـــر ، ثم أعلنت الحرب على المانيـــا . وفى ايران تحالف الشاه رضـــا بهلوى فى بادىء الامـــر مـــع المحـــور ، ولكن البريطانيين والروس قاموا فيما بعد بخلعه . واعتلى ابيــه محمد رضا بهلوى العـــرش فى عـــام ١٩٤١ بمساندة الحلفاء ، وظل يحكم حتى خلعته الثورة فى عام ١٩٧٩ ، اى بعد حـــوالى ثمانية وثلاثين عاما من ارتقـــائه العرش .

وكان النفوذ البريطانى مسيطرا على مختلف انحـــاء المنطقة مع حلول عام ١٩٤٥ عندما انتهت الحرب ، وحاول السوفيت ـــ بلا جـــدوى ـــ احتلال شمال ايران بصفة دائمة ، واصبح الصراع على النفـــوذ بين الاتحـــــاد الســـوفيتى والدول الغربية بمثابة عامل هام فى الحياة السياسية للمنطقـــة بأسرها ، وحصلت كل من ســـوريا ولبنان على استقلالهما بعـــد نهــــاية الحـــرب ، وسلمت بريطانيـــا العظمى مسئولية ادارة فلسطين الى الامـــم المتحـــدة ، وسحبت جميع قواتها من المنطقة فى عـــام ١٩٤٨ تاركة وراءهـــا ما اصبح معروفا بالقدس المقسمة ، ودولة اسرائيل الجـــديدة ، والضــفة الغربيـــة كجزء من الاردن ، وقطـــاع غزة الذى تحتله مصر .

وبدأ النفـــوذ الاوروبى يتلاشى تدريجيا بعد الحرب العالمية الثانية ، على وجـــه الخصوص بعد اخفاق الجهود الفرنســـية والبريطانية ـــ بمساعدة اسرائيل ـــ فى انتزاع قناة السويس من مصر فى عام ١٩٥٦ . وزاد بعد ذلك النفوذ السوفيتى والامريكى ليملأ الفراغ السياسى الذى نشأ بعد ذلك .

بيد انـــه فى السبعينيات اضطربت المصـــالح من جـــديد ، ونشـــأت تحالفات جديدة بين دول أوروبا وبعض منـــاطق الشرق الاوســـط ، وكان البترول احـــد الاسباب الرئيسية وراء هذه الاوضاع . وقد أسفرت حاجـــة أوروبا الملحـــة لضمان استمرار تدفق الطاقة عن اتخـــاذ موقف أكثر توازنا ازاء الصراع العربى ـــ الاسرائيلى بوجـــه عام ، واكثر تناغمـــا ازاء وضع الفلسطينيين من الصراع بصفة خاصة . وقد ظهـــرت كل هذه الاتجـــاهات بشكل واضح خلال حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ بين اسرائيل وجيرانها العـــرب ، عندما لم تســـمح أى من الدول الاوروبية بتزويد طائرات الولايات المتحـــدة بالوقـــود ونقلهـــا المؤن الى اسرائيل خـــلال الايام الاخـــيرة من الصراع . وكان هذا الوضع بمثابة قطيعة واضحة مع الولايات المتحدة واسرائيـــل ، وبمثابة مظهر لاجماع الاوروبيين على الوقوف بجانب الدول العربية .

ولكن هذا الاهتمام والنشاط المتجدد بين أوروبا والشرق الاوسط ربما يكون خادعا ، فلا تملك أى من هذه الدول او حتى دول السوق الاوروبية المشتركة القوة او النفوذ لتحل محل الولايات المتحدة كقوة اساسية لتحقيق السلام فى المنطقة . وعلاوة على ذلك فانه حتى اذا وافق العرب والاسرائيليون على أن يكون الاوربيون وسطاء اكفاء ، فانه من غير المحتمل أن تقوم أى دولة أوروبية باستثناء جزء جوهرى من موالدهم السياسية المحدودة خاصة فى هذا الجو المشحون الذى يسود المنطقة ، وذلك لان شعوبهم من المحتمل الا تساند هذه الجهود لفترة طويلة . ولايزال العالم العربى ينظر الى الدول الاوروبية وخاصة الدولتين العضوين الدائمين فى مجلس الامن (بريطانيا وفرنسا) كدولتين غير متحيزتين فى سياستهما المتعلقة بالصراع العربى الاسرائيلى .

ولكن ما هى مصالح السوفييت فى الشرق الاوسط ؟ ، والى اى مدى تختلف هذه المصالح عن مصالح الولايات المتحدة ؟ ان الاتحاد السوفيتى، شأنه فى ذلك شأن بعض الدول الاوروبية الغربية ، كان بسبب قربه من المنطقة مرتبطا بالشرق الاوسط خلال فترات تاريخية مختلفة ، بينما ظلت الولايات المتحدة ، التى تبعد عن الشرق الاوسط بخمسة آلاف ميل ، حتى وقت قريب بعيدة عن القضايا الداخلية للمنطقة . ويشترك السوفييت فى الحدود مع كل من تركيا وايران وافغانستان ، ويزعمون أن لديهم مصالح اقليمية فى سوريا والعراق ولبنان وشبه الجزيرة العربية شأنهم فى ذلك شأن الولايات المتحدة فى امريكا الوسطى .

كذلك فان هناك شك سوفيتى قديم حول مفهوم الثقة أو الصداقة مع الجيران ، لهذا فانه ليس مستغربا أن يصبح الشرق الاوسط — الذى تسوده الاضطرابات — الاولوية الاولى من حيث الاهمية بالنسبة للاتحاد السوفيتى — فالسوفييت يخشون أى وجود او نفوذ غربى غير ملائم فى هذه المنطقة . كما أنهم يشعرون بالقلق ازاء تغلغل اية مفاهيم اسلامية الى الاجزاء الجنوبية من اراضيه الواسعة حيث تعيش أقلية مسلمة تمثل عشرين فى المائة من مجموع السكان .

وتلعب كل من المصالح العلمية والايديولوجية دورا فى المخططات السوفيتية فى المنطقة ، كما اتضح ذلك من أسلوبهم العدوانى باغراء المصريين والسوريين بالوقوف الى جانبهم فى الخمسينات . علاوة على ان غزوهم لافغانستان فى ديسمبر عام ١٩٧٩ يمكن اعتباره بمثابة اجراء دفاعى بهدف اقامة دولة تابعة أخرى لهم على حدودهم الجنوبية ، وبمثابة حافز أيديولوجى بهدف نشر المفهوم الماركسى — اللينينى . وبصرف النظر عن أهدافهم النهائية أو دوافعهم فانه ليس هناك أدنى شك فى أن السوفييت

سيبذلون كل ما فى طاقتهم للحفـــاظ على وجودهم وتوســـيع نطاقه فى الشرق الاوســـط .

بيد انه بسبب القوى الغربية المتنافسة ، وبغض (بضم الباء) المسلمين الطبيعى للشيوعية الملحـــدة ، والخـــوف من الدمار الداخلى ، ظـــل النفوذ السوفيتى فى المنطقة محدودا . ويدرك العرب اتجاه السوفيت الواضح وهو التحرك ومحاولة اقامة حكومة عميلة ، تخدم مصالحهم من أجل حماية أمنهم . وبالرغم من هذه العوامل المتضاربة ، فقد عقد السوفييت معاهدات صداقة وتعاون طويلة الأجل مع كل من العراق وأثيوبيا وأفغانستان واليمن الشمالى واليمن الجنوبى وسوريا .

وهناك دافع آخر وراء وجود السوفييت فى الشرق الاوسط وهو مطالبة موســـكو بأن تكون على قدم المساواة مع الولايات المتحدة فى المنطقـــة . فهم يريدون أن يكون لهم عملاء تابعين لهم مثل عناصر تمثل منظمـــــة التحرير الفلسطينية ، وسوريا ، وليبيا ، وغيرها من الدول الأخرى ، تماما كما لنا نحن أصدقاء فى اسرائيل وفى مصر وفى بعض الدول العربية المعتدلة مثل الأردن ، والدول الواقعة فى شبه الجزيرة العربية .

وفى الوقت نفسه لا يريد السوفييت أن يتم استبعادهم من أية عمليـــة لتحقيق السلام ، ولهذا فانهم أبدوا فكرة عقد مؤتمر جينيف عام ١٩٧٣ ، وكذلك الاعلان الامريكى السوفييتى لعام ١٩٧٧ (ملحق رقم ٣) .

واخيرا وبالرغم من أن السوفيت يهتمون بتحقيق نفوذ أكبر فى المنطقة ويرحبون أحيانا بل ويشجعون وقوع انقسامات وخلافات فيهـــا ، فانهم لم يتدخلوا مباشرة فى انتاج البترول أو فى الاستيلاء على حقول البترول أو منع الناقلات من نقل البترول . وهـــم يعملون فقـــط على « المحافظة على حالة الغليان » باستخدام التنافس المحلى ، والعداء الوطنى ، والنزاع العربى — الاسرائيلى من أجل خدمة أهدافهم . فهناك سبب وراء الجدال بأن الاتحـــاد السوفييتى « يحتاج » الى اسرائيل من أجل أن يزيد العـــداء العـــربى للدولة اليهودية ، من اعتماد العالم العربى على موسكو بهدف الحصول على الاسلحة وعلى التأييد السياسى .

ومما لا شك فيه أن العداء الأمريكى السوفيتى ، والتنافس فيما بينهما قد زاد بالفعل من صعوبة الوضع فى الشرق الأوسط . فتجمد العلاقات وانهاء أغلب المفاوضات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى خلال الســنوات القليلة الماضية يساعد على ايجاد مجالات للاتفاق يمكن أن تنهى المأزق الذى يواجه عمليات السلام فى الشرق الأوسط واسرائيل والولايات المتحـــدة على الاقل متفقتان بأن اشتراك الســـوفييت بأية صـــورة فى الجولة القـــادمة

للمحادثات سوف يضيف ، عاملا آخر من عوامل النزاع وسوف يزيد من تعقيد الامور . وبمنتهى البساطة فان الاسرائيليين وكثير من العرب لا يثقون فى السوفييت ، وبالرغم من اختلال توازن الدبلوماسية الأمريكية وميلها نحو اسرائيل ، فلا يزال القادة العرب — الذين سيعترفون بالوجود الاسرائيلى — يعتبرون الولايات المتحدة أكثر القوى الخارجية التى تستطيع أن تحقق فى المنطقة — استقرارا جديدا وخطوة أخرى تجاه حسم الخلافات القائمة . وستصبح احتمالات السلام مستبعدة أو ليس لها وجود ، اذا ما تجاهلت الولايات المتحدة هذا الواجب ، كما أن السوفييت سوف يستمرون فى الاستفادة من عدم التواجد الأمريكى .

واثناء اعدادى لهذا الكتاب فى (ينساير عام ١٩٨٥) كانت القوات الاسرائيلية لا تزال متواجدة فى الجنوب اللبنانى وفى الضفة الغربية وغزة وفى مرتفعات الجولان . وكان لا يزال وضع السفير المصرى كما هو عليه بعد سحبه من اسرائيل ، كما كان « سلام بارد » غير محدد المعالم لا يزال يسود البلدين . وكانت رغبة الملك حسين فى احياء عملية السلام والتفاوض باسم الفلسطينيين لا تزال محبطة بسبب عدم حصوله على تأييد من منظمة التحرير الفلسطينية ومن قادة الدول العربية المعتدلة . وكانت الولايات المتحدة تعانى من هزيمة نكراء ومكلفة فى بيروت ، وظهر الرئيس السورى الاسد كقوة خارجية فى لبنان لا يمكن تحديها .

وعلى احسن الاحوال فقد كان يعم الشرق الاوسط حالة من الجمود تتفاقم باضطراد نتيجة للسياسات والتصريحات والاعمال على كافة الجوانب التى تزيد من الشكوك والمخاوف وسوء الفهم . وبالرغم من حالة الضعف التى تعانى منها الولايات المتحدة فى ذاك الوقت فى المنطقة ، فقد كانت لا تزال تربطها علاقات طيبة بكل ما تحمله الكلمة من معنى مع بعض الدول المعنية ، وخاصة مع اسرائيل ومصر والملكة العربية السعودية . بيد أن الروابط بين الولايات المتحدة وكل من سوريا ولبنان كانت لا تزال متوترة ، فى حين فقد الاردن الثقة فى التزام واشنطن تجاه عملية السلام ، وظلت العلاقات الرسمية مع الفلسطينيين كشعب غير قائمة .

وفى بعض الاحيان استطاع المسئولون الامريكيون ، فى ظل ظروف صعبة على حد سواء ، ان يجمعوا الاطراف المتنازعة معا ، وأن يحققوا فى بعض المناسبات بعض النجاحات المحدودة مثل : تبنى قرارى الامم المتحدة رقمى ٢٤٢ و ٣٣٨ ، وتأييدهما ، ودبلوماسية كيسنجر المكوكية فى عهد الرئيس نيكسون وفورد التى أسفرت عن اتفاقيتى فك الاشتباك فى سيناء واتفاقات كامب ديفيد ، ومعاهدة السلام المصرية الاسرائيلية .

ان أهداف الولايات المتحدة فى الشرق الاوسط قد أعلنت مرارا ، ولكن كالعادة أسىء فهمها . ومن الســـهل تعدادها (ولكن من الصعب للغـــاية تحقيقها) .

وتتمثل هذه الاهداف فى :

ـــ ان تعيش اسرائيل وجيرانها العرب فى سلام وأمان .

ـــ ان تصبح كل دولة مستقلة تتمتع بالحكم الذاتى ، وألا تتعـــــرض لاى تدخل خارجى .

ـــ أن يحصل الفلسطينيون فى الضفة الغربية وغزة على حقـــوقهم المشروعة بما فى ذلك حقهم فى تقرير المصير .

ـــ ان تنسحب اسرائيل من الأراضى المحتلة .

ـــ منح لبنان السيادة الكاملة والاستقلال مع انسحاب جميع القـــوات الاجنبية من أراضيه .

ـــ أن يكون الشرق الاوسط بمعزل عن اى مواجهـــة بين القـــوتين العظميين .

ـــ تحقيق أقل حد ممكن من التدخل السوفيتى فى شئون المنطقة .

ـــ انهاء حالة الحـــرب بين ايران والعراق والعـــودة الى حدودهمـــا الوطنية السابقة .

ـــ تحقيق الرخاء الاقتصادى وحياة كريمة لشعوب المنطقة .

وهذه الأهداف تبدو معقولة ومتوازنة للغاية حتى بالنسبة لأغلب شعوب الشرق الأوسط . فلماذا اذن يكون من الصعب ـــ بل من المستحيل ـــ تحقيق السلام فى المنطقة ؟ . من الواضح أن شعوب كل دولة تريد وضع نهاية لاراقة الدماء والمعاناة . ولكن ما الذى يمنع قادتهم من الذهاب الى مائدة المفاوضات ؟

ان الأطراف المتنازعة تؤمن بعدالة قضيتها . كما أن بعض هذه الأطراف على استعداد لمواجهة الموت دون أن تغير من موقفهـــا ، أو حتى الاعتراف بالوجود المشروع لاعدائها . وتتصرف هذه الاطراف من منطلق أنها تنفذ ارادة اللــــه .

ان أغلب الحقائق ليست محل جدل . فكيف اذن يمكن وجود مثل هـذا التضارب الحاد فى الآراء بين الشعوب التى تعيش فى نفس المنطقة ؟

ان سماع الأصوات فى كل دولة ، ودراسة تاريخ كل شعب عن قرب ، يمكننا من التوصل الى الاجابة على هذه الاسئلة .

اسرائيـــــل

كانت اول زيارة لى لاسرائيل فى مايو عام ١٩٧٣ تلبية لدعـوة الجنرال اسحاق رابين ـــ أحد ابطال حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ ، والذى أصـبح فيما بعد أحد اعضاء الوزارة الاسرائيلية ـــ وكان قد سبق له أن زارنا فى قصر الحاكم بولاية « جورجيا » كمبعوث الى واشنطن . وكنت أنا وروزالين مهتمين منذ فترة بالمنطقة من خلال قراءاتنا الأسبوعية للكتاب المقدس ، ولذلك فعندما اتيحت لنا الفرصة رحبنا بزيارة اسرائيـــل التى تعتبر بلدا ديمقراطيا حديثا ومثيرا للاعجاب ، وذلك بعد الانتهاء من مهمة عمل لعدد من البلدان الأوروبيـة لولاية « جورجيـا » .

وباعتبارى حاكما للولاية فقد كنت ضيفا رسميا على جولدا مائير رئيسة الوزراء ، ولكن لم أثقل بالأعباء واعتبرنا هذا الجزء من رحلتنا بمثابة أجازة ، وقد أمدتنا الحكومة الاسرائيلية بسيارة مرسيدس قديمة مجهزة بالأثاث وسائق ومرشد شاب شجعنا على اختيار خط سير رحلتنا .

واثناء اعدادنا للرحلة انغمست أنا وروزالين فى قراءة الخرائط ، واطلعنا على التاريخ القديم والحديث لاسرائيل وكنت موزعا بين متعة زيارة الأمـاكن المسيحية المقدسة التى كنت أتوق الى رؤيتها منذ كنت طفـلا وبين المعلومات التى كان من الواجب أن أعدها لمستقبلى السياسى . وكانت خططى فى ذلك الوقت معروفة فقط لمجموعة من الناس عندما أعلنت ترشيحى لمنصب رئيس للولايات المتحدة ـــ ولهذا كانت أمامنا سلسلة من الحلول الوسط نختار منهـا ما يحلو لنا لقضاء الأيام الثمينة فى اسرائيـل . وكان يومى يبـدأ كل صباح فى منطقة القدس مبكرا . وكنت اتجول قبل شروق الشمس فى انحاء المدينـة القديمة ، وكنت أريد أن أراها وهى تعاود نشاطها عندما يتواجد بها عدد قليل من السياح ، وأشعر بعبقها الذى كانت عليه منذ الفى عام عندما كان المسيح يتجول فى نفس هذه الشوارع ، وقمنا بزيارة الأفران الصغيرة حيث تعد أرغفة الخبز اللذيذ والمقاهى الصغيرة لشرب القهوة ، أو الشاى ، ومراقبة البائعين وهم ينظمون بضائعهم ليشاهدها المارة طوال اليوم . وأجريت أحاديث طويلة مع بعض الأثريين الأمريكيين الذين اشتركوا فى اكتشاف مدينـة داوود التى وردت فى الكتاب المقـدس وهـم يسعون الى استكمال مايمكن استكماله من أعمالهم خلال الساعات الأكثر برودة . ووصفوا لى كيف أن حطام المدنيـات القديمة قد رفعت من مستوى الشـوارع بمتوسط قـدم كل قرن . فقد كانوا يحفرون لعمق ثلاثين قدما ، وعرضوا على بعض العملات الرومانية التى يرجع

تاريخها الى عهد الملك سيرودوت والتى عثروا عليها على عمق حوالى ثلاثين قدما تحت الأرض . وهذا جعل الأمور أيسر فى فهمنا لماذا كانت مناظر المدن التى قمنا بزيارتها فى القدس وبيت لحم والخليل واريحا الناصرة (تزارينا) مختلفة كلية عما كنا نتوقعه ، وكانت هذه المدن تبدو مدفونة ومزدحمة وتمج بالحركة التجارية وليست مدنا بدائية وبسيطة كما تصورنا ، وشعرنا فقط عندما رحلنا الى الاماكن المفتوحة ورأينا جبل الزيتون وبستان القبر المقدس وقانا الجليل وجبل الكرمل وبحر الجليل وجبل التجلى وكفر ناحوم وبيت صيدا ونهر الأردن ، اننا نشاهد هذه الاماكن كما كانت تبدو فى عصر التوراة . وخلال ترحالنا وجدنا أن البلد مسترخية بشكل يثير الدهشة ، ورأينا فقط خلال رحلتنا عددا قليلا من الرجال بالزى العسكرى وكانوا فى الغالب ينظمون حركة المرور فى بعض التقاطعات المزدحمة . كما كانت هناك علاقات بسيطة تربط بين مختلف طبقات الشعب بما فى ذلك اليهود والعرب .

وبعد زيارة كنيسة نتانفيا والمنازل الموجودة تحت الارض فى الناصرة (تزارينا) التى قيل انها مماثلة للمنازل التى كان يسكنها اليهود ، استمتعنا بدعوات غداء مثيرة وصاخبة الى حد ما مع العمدة المسلم ونائب العمدة المسيحى ومع عمدة الناصرة العليا اليهودى وعدد من اسرهم واصدقائهم . ولمدة ساعات تناولنا كميات ضخمة من لحوم الضأن المشوى بأصابعنا وكذلك فاكهة وخضراوات وخبز ، وتناولنا أيضا كميات من المشروبات الروحية وأخيرا القهوة السوداء التى يتم اعدادها بالطريقة المحلية .

وقد أثار فضولنا كيف ان المسئولين فى الناصرة يسعون لزيادة حجم السياحة وتحقيق التقدم الاقتصادى . وبعد الظهر ذهبنا الى مدينة جديدة لمقابلة بعض المهاجرين الجدد من الاتحاد السوفيتى الذين كانوا يتدفقون بشكل منتظم ، وكان طلاء الشقق الجديدة التى نقلت اليها كل اسرة لم يجف كلية ، وكانت هناك خطة لبناء ثلاثة آلاف وحدة اخرى لاسكان الذين يفدون ، وقال لنا العمدة أن هناك مئات من المصانع حول منطقة الناصرة سوف تتيح فرصة العمل لكل من المقيمين القدامى والجدد . وكانت الهجرة قد زادت بعد نصر اسرائيل الكبير فى حرب ١٩٦٧ حيث بلغت أعلى مستوى لها فى العام الذى كنا فيه . وقد اشتكى بعض السكان القدامى من المعاملة الخاصة التى يحظى بها القادمون الجدد ولكن هذه الاصوات المعارضة لم تكن منتشرة أو مستمرة ، وتكلمنا مع العديد من المقيمين السوفييت الذين اعربوا عن فخرهم لانهم بدأوا يدرسون اللغة العبرية منذ اليوم الأول لوصولهم الى منازلهم الجديدة . وبعد ذلك قمنا بزيارة بعض المستوطنات (الكيبوتزات) التى تقع بالقرب من بحر الجليل وفى المنطقة التى تقع جنوب صحراء النقب وابلغونا فى « ايليت هشاهار »

الواقعة شمال الجليل بأن المستوطنة اليهودية قد انشئت منذ أربعة وخمسين عاما ، وباعتبارى مزارعا فقد كنت مهتما بمعرفة زراعة التفاح وقدرتهم على المحافظة عليه فى مخازن باردة للبيع منه طوال العام تقريبا ، وكيف أنه يتم حلب أبقارهم ثلاث مرات يوميا (بدلا من مرتين كما هو معتاد) بهدف زيادة الانتاج وبالتالى الارباح . وهذه المستوطنة التى تضم المئات من المواطنين تعتبر كذلك مركزا سياحيا وتستقبل العديد من الزائرين من الولايات المتحدة وغيرها من الدول الأخرى ، وكان اليوم هو يوم السبت وسألنا اذا كنا نستطيع أن نحضر احدى الصلوات . وفى الوقت المحدد دخلنا المعبد ووقفنا داخله فى هدوء . ولم نجد سوى شخصين يصليان . وعندما سألت عما اذا كان ذلك أمرا مألوفا ابتسم مرشدنا وهز كتفيه معبرا بأن هذا أمرا لا أهمية له . وفى يوم تناولنا غداء من سمك بطرس فى عين حيفا الواقعة على ساحل بحر الجليل وصعدنا الى مرتفعات الجولان وذهبنا الى مستوطنة ميفوها ، ووجدنا هناك روحا عالية تفوق روح الرواد الاوائل ، وتأثرنا للاخلاص الهادىء الذى يميز العائلات الشابة التى تعمل فى الزراعة سويا ويبدو عليهم أنهم يشتركون فى كل شىء ، وكان يبدو عليهم الفخر لعملهم اليدوى الصعب ولعدم تواجد السلع العالمية فى منازلهم . وأخذنا قادة المستوطنة الى المرتفعات العربية الشاهقة المنحدرة التى تطل على الجليل كى نشاهد مكان المدافع التى أقامها واستخدمها السوريون ضد الاسرائيليين خلال حرب ١٩٦٧ ، وتمكنا من هذا المكان المميز من مشاهدة القرى الصغيرة الواقعة على شاطىء البحيرة والمنازل أسفل الوادى والسيارات فى الشوارع والجرارات وهى تحرث الحقول ، وكانوا مكشوفين ومعرضين للهجوم تماما بحيث يمكن قذفهم بحجر من المكان الذى نقف فيه ، وبالطبع يمكن اطلاق صاروخ أو قنبلة عليهم . وكان من الواضح أن السيطرة على هذا الموقع يعتبر أمرا هاما بالنسبة لاسرائيل وأثناء وقوفنا كان الشباب الاسرائيلى يتكلم بحماس متزايد وكأنهم يتحدثون ويتناقشون عن عدو غائب ، وشرح كل فرد من المجموعة الصغيرة من الرجال والنساء كيف كانت اسرائيل محاطة بأعداد أقوياء قرروا تدمير أمتهم الضعيفة ، وقالوا أن الارهابيين الفلسطينيين كانوا يختبئون على طول الحدود ويساندهم عرب آخرون ويقومون بغارات متعددة ضد التجمعات الاسرائيلية غير المحمية . وكان السوريون على وجه الخصوص يسعون الى تشكيل كتلة متحدة من الدول العربية بهدف القاء اسرائيل فى البحر وكانت قوة اسرائيل تختبر يوما تلك القوة التى يجب الا تفقدها .

وأخبرنا مضيفونا الاسرائيليون بفخر أن المستوطنات مثل مستوطنتهم هذه انشأت مزارع منتجة من الاراضى الصحراوية فى الاراضى العربية المحتلة الاخرى مما يساعد على تدعيم الاقتصاد الاسرائيلى . وقالوا ان الزراعة كانت أهم صناعة اسرائيلية وخاصة فى مجال البرتقال ، ويليها فقط عمليات صقل الماس

الذى يصدر على نطاق واسع ، واخذوا عهدا ان يقوموا بعملهم ولا يستأجرون اى مساعدين . وهذا جانب مثير من روح اسرائيل . ولم يكن هناك عـــدد كبير من المستوطنين فى الاراضى المحتلة ولكن هؤلاء الناس اقتنعوا بأن مستوطنتهم لها قيمتها سواء من الناحية الاقتصادية أو العسكرية ، وقرروا البقاء فيهـــا وأوضحوا لنا بأنهم لن يسمحوا بوجود أسلحة للعدو تطلق نيرانها من هـــذه المنحدرات مرة أخرى . ولكى احصل على فهم أفضل لقدرة اسرائيل العسكرية فقد طلبت رؤية بعض المرافق البحرية ـــ والاطلاع على برامج التدريب التى يتم وضعها للجيش المدنى ، والحصول بقدر الامكان على ملخص شـــــامل لقوة اسرائيل بالنسبة لجيرانها العرب . وقمنا بزيارة جبل الكرمل لنرى اين كان النبى ايليا يقوم باظهار قوة الدب المعجزة أمام الملك أخاب ، وكذا انبياء البعل (الملوك المحليون عند الكنعانيين والفينيقيين) . ثم نزلنا الى القاعدة البحرية بحيفا وقمنا برحلة بحرية على ظهر أحد زوارق الصـــواريخ ، وكان مضيفونا فخورين للغاية لان هذه الزوارق قـــد تـــم خطفها بطريقة خفية من الفرنسيين فى شيربورج بالرغم من فرض حظر بيع الاسلحة لاسرائيل بعـــد حرب ١٩٦٧ وكانت هذه الزوارق سريعة وفعالة كما ان جزءا كبيرا من اطقمها من النســـــاء .

ومن شاطىء البحر اتجهنا شرقا ، ثم جنوبا الى الضفة الغـــربية على مقربة شديدة مـــن نهر الاردن . فلقـــد قرأنا كثيرا عن هـــذا النهر ودرسنا وغنينا لـــه ، ولهـــذا كنا نتصوره مجرى قويا لـــه تيارات شديدة ومواصفات سحرية ، ولقـــد أصبنا بالدهشـــة عندما شاهدناه فلم يكن فى الواقـــع فى اتســـاع العديد من الروافد التى تجرى فى انهـــار اصغر فى جورجيا ، وكان طبيعيا ان يكون المجرى صغيرا وعلمنـــا ان كثـــيرا من مياه النهر تم تحويلها الى أراضى اسرائيل ، وكان هذا هـــو السبب الاول الذى ادى الى العـــداء بين اسرائيل وجيرانها . واثناء ذهابنا الى الجنوب ابعدنا سلك شائك وعوائق طريق على شاطىء النهر وعن منطقة أمن ضيقة نسبيا ، ولكن تمكنا من أن نرى نهـــر الاردن من بعد . وعند جسر اللنبى بجوار اريحا لاحظنا لفترة سيلا من البشر يتحرك ذهـــابا وايابا بين الدولتـــين . وأبلغنـــا المسئولون الاسرائيليون انـــه يتم نوع من التفتيش الأمنى الروتينى عند عبور النهر ، وقالوا انه خـــلال السنوات الثلاث الأخيرة زار اكثر من ثلاث أرباع المليون من العرب اسرائيل بشكل شرعى ، وقال أحد الحراس وهو يغمز بعينه بأنه يمكنهم تقدير عدد الزوار غير الشرعيين الذين زاروها ، ولكن بعضـهم ، مشيرا الى الارهـــابيين الذين تـــم القبض عليهم ، لم يستطع العودة الى وطنهـــم فى الأردن .

وفى بيت ايل التى تقـــع على بعد أميـــال قليلة من القدس ولا تـــزال واقعة فى الأراضى المحتلة حضرنا حفل تخرج فى معسكر لتـــدريب الجنـــود

الاسرائيليين ، ولكن هـذا المرفق يستخدمه الاردنيون لنفس الغرض قبـل حرب الأيام الستة ، وقال القائد الذى تلقى تدريبه الأساسى فى الأسطول الأمريكى ، انه استخدم بعض التقنينات الشاقة للغايـة لتطوير القـدرات الجسمانية والعقليـة لقواته ، كما أن هذا القائد قـد أقام لفترة قصيـرة فى قاعدة عسـكرية بالقرب من منزلنا فى جورجيا ، وعند توزيع الجوائز طلب منى المشاركة فى احتفالات التخرج ، وكان الجنود يقفون بصلابة وانتباه خلال المناداة عـلى أسمائهم فردا فردا ، وأثنـاء المناداة على كل خريج كان يتقدم بخطى سريعة الى منصة الاحتفال ليسلمه القائد شهادة التخرج ، أما أنا فكنت أقدم له « سيف الروح » — وهـو التوراة .

وكانت آخـر زيارة عسـكرية لنـا مـع الميجـور الياهـو زئير رئيس المخابرات العسـكرية الذى وصف لنـا بالصور والخرائط والرسوم البيانية التنظيم البديـع للدبابات والطائرات العربية التى تـم تعبئتها ضـد اسرائيل ، وأعرب عن الحاجة لشـحنات أسلحة أكثر من الولايات المتحدة . ولكنه هو وغيره من القادة العسكريين كان لديهم روح من الثقة المتناهية ، وقالوا انه رغم أن خمسة فى المائـة من القـوات الاسرائيليـة تظـل فى الخدمة ، فان جهـاز المخابرات العسـكرية ممتاز ويتم تعبئـة الجيش فى فترة قصيرة (خلال خمسة شهور فى يوم عيد الغفران أصيبوا بصـدمة نتيجة الهجوم المباغت من جانب مصر وسوريا) .

وتحدثت بصـفة شخصية مـع بعض أعضاء الحكومة الاسرائيليـة ، ووجهوا لنـا دعوة لحضور مناقشة مسائية فى قاعة اجتماعات كبيـرة . وكانت جولدا مائير رئيسة الوزراء وغيرها من الزعماء العسكريين والسياسيين بصدد مناقشة بعض الموضوعات الموجهة من الحكومة ليسـمعها عدد كبيـر من مستمعى الاذاعـة . ولاحظت لافتـات بعدم التدخين حول القاعة الامر الذى التزم بـه الجميع باستثناء رئيسة الوزراء ، ولكن مرشدنا قال شارحا لقـد كان أمامنا أن نختار اما عـدم وضع لافتات بعدم التدخين الأمر الذى يسمح لكل فـرد أن يدخن ، او وضـع اللافتات والتغاضى عن شخص واحد يدخن ، وقررنا أن تدخين شخص واحد فقط لن يكون أمرا بالغ السوء .

واستمعنا باعجاب لأبا ايبان وحاييم بارليف واسحاق رابين الذين كانوا يتحدثون باللغة الانجليزية ، وكان الجو العـام يتسم بالمرح ويدل على التوفيق والتقدم وسجلت بعض التعليقات العامـة والخاصة التى تشـير الى الموقف السائدة فى ربيع عـام ١٩٧٣ ، مثل : « الولايات المتحدة هى صديقتنـا الهام الوحيـد » . « الروس يرغبون حاليا تحقيق السلام فى الشرق الاوسط لأنهم لا يستطيعون مواجهة أية هزيمة كبـرى اخرى لحلفـائهم العـرب » . « الأوربيون قلقون على الأمور الاقتصادية وتعتبر فرنسـا عدوا لنـا فى دول

السوق الاوربيـــة المشتركة . فهى ملتزمة تجاه أى خطأ » . « بالرغم من اننا نقوم بعمليات تجارية واسعة هناك ونشترى المــاس من أجل صناعة المجوهرات ، فان جنــوب افريقيا لا يمكن ان يســـتمر الحال فيها كما هو عليه الآن » .

وبخصوص مسألة الابقاء على جزء كبير من الضـــفة الغربيـــة يقــول التعليق : « ان مساحة امتنا مزدحمة للغايـــة والتقسيم أمر مرغوب فيه ، والعرب يتعارضون معنا وليس لهم ولاء للعلم الاسرائيلى . كما أن الاسرائيليين العرب أكثر الجماعات تزايدا فى الأرض . فهم يمثلــون الآن ٣٥ فى المائـــة من سكان الضفة الغربية وسيزداد عددهم الى أكثر من نصف عدد السكان » .

« لا ينبغى عــلى احــد ان يخشى العرب فقد هزموا هزائم منكرة وسوف يلتمسون الســـلام » .

« ان سلاح البترول العربى لا يعتبر تهديدا حقيقيا انهم فى حاجـــــة الى دولارات أكثر من حاجة العالم الى بترولهم » .

« اسرائيـــل تحصل على ٩٠ فى المـــائة من احتياجاتها البترولية من سيناء وايران ، وليس لدينـــا أيـــة مشاكل فى الحصول على وقود كاف » .
« ان نيكسون لــم يخل أبدا بتعهداته ، ولكن ربمـــا نصوت لصـــالح السيناتور سكوب جاكسون » . وعندما سئلوا لــماذا لا يعتمد الاسرائيليون بشكل أكبر على الأمم المتحدة فى عرض مشاكلهم أجابوا « سنتجه الى الأمم المتحدة اذا كانت هنـــاك تســـع وثلاثون دولة يهودية ودولة عربية واحدة » .

واختتمت اقامتى أنـــا وروزالين فى اسرائيـــل بزيارة رئيســـة الوزراء جولدا مائير لشكرها عـــلى ما قدمته دولتهـــا من كرم الضيافة ، ولــم تكن مشغولة ذلك الصباح بأعباء الدولة ولهذا مكثنا معها فترة طويلة . وعنــدما سألتنا عما اذا كانت هناك أيـــة مسائل تشغلنا ، أجبت ان هناك مسألة ذات طبيعة دينية ترددت فى ذكرها خاصة انى أعلم أنها ولدت فى أمريكا وأنها سواء هى أول الاعضاء البارزين فى وزارتها كانوا معروفين بأنهم يهــود غير متمسكين بدينهم . وشجعتنى رئيسة الوزراء بابتسامة علت وجهها على الاسترســـال ، ثــم أخبرتها عن قداس السبت فى ايليت هاشاهر وغيـــاب الاهتمام الدينى بين الاسرائيليين ، فعلقت على ذلك بقولها : انه فى عصر التوراة كان الاسرائيليون ينتصرون عندما كانوا مرتبطين بالرب وهزموا عندما لم يخلصوا له . وضحكت بصوت عال ووافقتنى ، ولكنها أضافت أن هذا الامر لا يعنيها لان هنـــــاك من المؤكد عددا لا بأس به من اليهــود المتشددين . وكانت تشير بذلك الى اليهـــود المتدينين فى البرلمان الاسرائيلى الذين يعتبرون فى بعض الاحيـــان بمثابة شـــوكة فى جانبها . واضافت قائلة : « اذا حضرت دورة للكنيســـت

فانك ستراهم وهم يعملون وستعرف أنهم لم يفقدوا ايمانهم » ومع نظام اسرائيل الانتخابى الذى يحتاج الى تحالف الاحزاب لتشكيل الاغلبية الحاكمة فان أحزاب الاقلية الدينية لها تأثير يفوق قوتهم العدديه . ولم أدرك كما لم تدرك السيدة مائير ذلك وقتئذ ، ولكن عضوا من أحد احزاب الاقلية الكبيرة قدر له أن يلعب دورا رئيسيا فى تاريخ بلدها ، وان كثيرا من قوته السياسية كانت قد نبعت من معتقداته الاساسية التى ترتكز على تفسير جامد للكتاب المقدس . وكان مناحم بيجين قد شغل عام ١٩٧٣ منصب رئيس حزب حيروت الذى كان يشغل ٢٢ فى المائة فقط من مقاعد الكنيست . وخلال أربع سنوات شغل منصب رئيس وزراء اسرائيل وبعد فتره سألت مائير عما اذا كان هناك آخرون فى صحبتنا ، فأخبرناها بأنه يوجد سكرتيرى الصحفى « جودى بويل » وأحد رجال شرطة ولاية جورجيا وهما ينتظران فى الخارج وانهما يرغبان بشدة فى مقابلتها وعندئذ دعتهما للدخول ، واثناء زيارتنا كانت السيدة مائير تدخن باستمرار ، واخيرا لاحظت أن جودى ينظر بنهم شديد الى سيجارتها ، فقدمت له سيجارة واخذهاجودى فى خجل مشيرا بقوله : « هذه أول مرة أحصل فيها على سيجارة من رئيس وزراء » . وأشارت الى عدم وجود التحذير الخاص بأن التدخين ضار للصحة على علبة السجاير ، وقالت « سوف تلاحظ ايها الشاب أن سجاير شيسترفيلد ليست خطرة على صحتك فى اسرائيل » .

وعلى الرغم من اننا سمعنا أنباء عن معارك جوية بين اسرائيل ومصر فوق سيناء (وكنا نخشى أن يحد ذلك من تحركاتنا) الا أننا وجدنا اسرائيل تنعم بالامن والاعتداد بالنفس والرفاهية والثقة والانسجام ، وتركنا الشرق الاوسط ونحن مقتنعون بأن قوات اسرائيل العسكرية لا يمكن قهرها ، وانها يجب ان تظل قوية للدفاع عن هذه الدولة الصغيرة ضد جيرانها العرب . ولم نقم بزيارة اية دولة عربية أو أى اتصال شخصى مع الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة .

وفى ذلك الوقت لم يكن يراود الامريكيون اية تساؤلات يصعب الاجابة عليها . فالاسرائيليون هم المسيطرون ، والعرب خاضعون لهم ، والوضع السياسى والعسكرى يبدو أنه سيظل ثابتا بشكل دائم .ولكن فى القاهره ودمشق وربما فى موسكو كانت الخطط السرية للحرب قد أصبحت فى طريقها للتنفيذ .

وبالنسبة لى كان لا يمكن الاقتراب أو دخول اسرائيل بدون التفكير اولا فى الكتاب المقدس وفى تاريخ الارض وشعبها . وكانت الاسماء والصور تعتبر جزءا لا يتجزأ من حياتى باعتبارى مسيحيا . ولكن كثيرا منها حملت

مغزى جديدا ومختلفا كلية عندما أصبحت رئيسا للولايات المتحدة واشتركت فى مفاوضات حياة أو موت لحل بعض من مشاكل القرن العشرين . ومن النادر فعلا أن نجد الماضى السحيق يتداخل مع الحاضر المعاصر ليس فحسب بالنسبة للمؤرخين ورجال الدين فى فصولهم وفى دراساتهم بل أيضا بالنسبة لرجل الدولة فى قاعات الحكومة وبالنسبة للقادة العسكريين فى ميادين القتال .

وفى اسرائيل تعتبر دراسة الكتاب المقدس لها معنى واحد وهو أن أى تفسير له يلعب دورا أساسيا ، فهو يوضح الحياة الدنيوية للأمة . وعلى الرغم من أن غالبية الاسرائيليين ليسوا متدينين بشكل خاص فان كثيرا من الذين التحقوا بالاحزاب السياسية كانوا يطالبون بتحقيق ائتلاف حكومى يصدق على بعض الممارسات الدينية مقابل الحصول على مساندتهم . وتجرى مناقشة المعتقدات الدينية فى الكنيست بانفعال شديد فى أغلب الاحوال والحكومات يمكن أن تبقى أو تسقط بسبب الولاء السياسى لعدد قليل من الممثلين المنتخبين الذين يحصرون اهتمامهم حول تفسير ضيق للكتاب المقدس . والاتجاه الحديث للجماعات الدينية هو وضع تمييز حاد بينهم وبين الاحزاب الرئيسية ، وأن يظهروا بشكل أكثر وطنية وأكثر تشددا ، كما أن الاقليات الاكثر محافظة تأخذ موقفا مضادا ، فترى أن اقامة النظام المدنى لدولة اسرائيل يعتبر خرقا لأوامر الله ، أن اسرائيل هى بؤرة للجدل الدينى العنيف ، ولكن يهود العديد من الامم الاخرى يراقبون جيدا ما يجرى فى اسرائيل ، وفى بعض الاحيان يتورطون مباشرة فى هذه المناقشات ، ومع ذلك فان أية خلافات بينهم حول هذه الموضوعات أو قضايا اخرى يتم التجاوز عنها بشكل كبير من أجل توحيد تأييدهم لاسرائيل ، فمن بين الاربعة عشر مليونا من اليهود فى العالم يعيش حوالى ستة ملايين فى الولايات المتحدة وربما يعيش من ٢ الى ٣ مليون فى الاتحاد السوفيتى و ٣ر٥ مليون فى اسرائيل . ويوجد حوالى نصف مليون يهودى فى كل من بريطانيا وفرنسا ، وأكثر من ذلك بقليل فى أمريكا اللاتينية . والباقى موزع بين عديد من الامم المختلفة . وهذا الوضع يقدم مساندة قوية لاسرائيل فى عديد من الاماكن لأنه بصرف النظر عن جنسية اليهود فانهم فى مختلف العالم يقدمون لاسرائيل وسائل الحياة والرخاء ، مع وجود استثناءات قليلة لهذا الوضع . واليهود يعلمون جيدا أن أربعة ملايين فلسطينى يساندهم مائة مليون مسلم منتشرون فى كل مكان وأصدقاء وحلفاء للدول العربية ، يطالبون بحقهم فى اقامة وطن لهم على نفس الارض . وهذا الوضع يعتبر أمرا مخيفا للذين كرسوا أنفسهم من أجل المحافظة على رخاء تلك الدول الصغيرة وتوصلوا الى أن الصراع الموروث له جذور عميقة ولا يمكن التسامح عنه فى الغالب ، فالعديد من اليهود والفلسطينيين يصفون أنفسهم بأفضل الصفات ، بينما يصمون بعضهم البعض اما بالامبريالية أو بالارهاب ولا يمكن استبعاد القوتين العظميين من هذا التحيز العدائى ، فالولايات المتحدة تعطى

مســـاندة قوية للاسرائيليين ، والاتحـــاد السوفيتى يسعى بكل الوســـائل الى زيادة تدعيم علاقاته مع شعوب العالم العربى .

وثمة أوجـــه تشـــابه وخلاف بين اليهود والعرب الفلسطينيين . فمنذ عهـــد الملك داوود ظل مفهـــوم الدولة اليهـــودية حيا — حتى بالرغم من أن الشعب اليهودى قد تشتت بين دول العالم . وظلت قلة قليلة منهم تعيش فى فلسطين تحت حكم العديد من الغزاة . واستمر المسيحيون والعرب المسلمون فى العيش معا على نفس هـــذه الارض ولكن دون اى أمـــل أو حتى مجـــرد تفكير فى اقامة دولة مستقلة ، ولكن اهتمامهم ينصب على الاسرة والقبيـــلة ٪ وبالنسبة للمسلمين كان اهتمامهم ينصب على عالم الاسلام الرحب . وبدأت تظهر أفكار قوية بخصوص القومية بين العرب خلال الخمسين عاما الماضية ، عندما شاهدوا الصهاينة يهاجرون الى فلســـطين ويشـــترون الاراضى لاقامة مساكن دائمة لهم . وفى نضالهم من أجل تقرير المصير الذى ســـالت فيه الدمـــاء أحيانا ، عاش اليهـــود والعرب كجيران غير متحابين تحت السيطرة البريطانية وحتى بعد الحرب العالمية الثانية واقامة دولة اسرائيل .

وعندما وصلت الى الشرق الاوسط كنت اشعر بانطبـــاع ملح يتلخص فى وجود خلاف فى مدى مشاركة الشعب فى تشكيل السياسة الوطنية ، ففى بعض الدول العربية التى تخضع لأعنف نظـــام ديكتـــاتورى فانه من الصعب ملاحظة تعبيرات الراى الحـــر بين الاشخاص العاديين حتى بين كبار التجار والصحفيين والطلبة فى الجامعات . ولـــكن فى اسرائيـــل فقط حيث تســـود الديمقراطية وعدم وضع أية قيـــود على حرية التعبير فان أى شخص يمكنه أن يســمع آراء متعـــددة حول الخلافات بين الفلسطينيين والعرب الآخـــرين والاسرائيليين وغالبا بين الاسرائيليين والزوار البارزين .

ففى شهر مارس ١٩٧٩ بعد أن زرت مصر وذهبت الى اسرائيـــل للتوصل الى اتفاقية ســـلام بين البلدين ، طلب منى أن اقف عند مدخـــل القـــدس لاتلقى الترحيب الرسمى من العمـــدة تيدى كوليك ورئيس حاخامات المدينـــة ، وعندما اقتربنا من المنصة أبلغنى ضابط الامن الاسرائيلى أنه من المحتمـــل أن يتم قذفى بالبيض والخضروات من بعض المتظاهرين الذين يعارضـــون اجراءات الســـلام ، وقال انه توجـــد مظـــلات ســـوف تفتح لحمايتى اذا اســـتدعى الامـــر . وعندما خرجنا من السيارة رفعت يدى لتحية الجمـــاهير الغفـــيرة الواقفة عبر الطريق . وكانوا بعيدين بدرجة لا تســـمح بوصـــول أى شىء الى مكانى ، وكان البعض منهم يبدو عليه الغضب الى حد ما . وكان هنـــاك عدد كبير من اللافتات اغلبهـــا مكتوب باللغة الانجليزية ولكن لم تصـــدر أية أصـــوات من الواقفين ، وكان ابرز هـــذه اللافتـــات تلك المكتـــوب عليهـــا

العبارات التالية : « اهلا بشقيق بيلى » . وضحك جميع الامريكيين وزال التوتر واكلنا خبزا وملحا كما جرت العـــادة فى مثل هـــذا الاحتفال دون اية احداث واتجهت بعد ذلك الى مقابلة رئيس الوزراء .

وفى زيارة اخرى عندما القيت خطـابا فى الكنيست ، كان بمثابة صدمة لى أن الاحظ درجـــة الحرية المسموحة لاعضـــاء البرلمان بطريقتهم غير المنظمة نســـبيا فى تبادل الآراء . وعلى الرغم من اننى انهيت ملاحظاتى بقليـــل من المقاطعة ، فقـــد كان من المستحيل سـواء بالنسبة لرئيس الوزراء أو زعـــيم المعارضة أن يتحـــدثا . وبدلا من ان يشعر رئيس الوزراء بيجين بالحـــرج بسبب المقاطعات المستمرة وبسبب ابعاده بواســـطة احـــد اعضاء المجلس ، فقد كان يبدو عليه التلذذ من هذه المعركة الكلامية ، واعرب عن فخره بسبب وجهـــات النظر الصاخبة دون تحفظ . وخـــلال جلسة خاصة لتوجيه اللوم الى رئيس الوزراء مال على وقال فخـــورا : « هذه هى الديمقراطية فى مجال التطبيق » . ومع وجـــود بعض الاستثناءات احيانا بسبب الرقابة العسكرية فان حـــرية التعبير تســـود جميع وسائل الاعلام ، وهناك رغبة ماموســـة فى الاحاديث الخاصة التى تجرى فى اسرائيل لاكتشاف كل مظهر من مظاهر الحياة السياسية الداخلية والدولية . وبين بعض العـــرب الاسرائيليين فقط توجـــد قيود على حرية التعبير بسبب الشـــك الطبيعى نحو جماعـــة دينية ليس لديهـــا وضع سياسى قوى ومستقل . وكذلك هنـــاك قيـــود صـــارمة مفروضة على النشاط السياسى للعرب الفلسطينيين فى الاراضى المحتلة .

وعلى الرغم من ظهور خلافات جوهرية بين زعمـــاء الاحزاب السياسية المعارضة اثناء المناقشات الاسرائيلية فان هذه الخلافات تذوب وتصبح غـــير ذات موضـــوع نسبيا عندما يتعلق الامـــر بامن اسرائيل .

وهكذا فان اليهود يتسمون بوحدة الصف والديانة المشتركة والتـــاريخ الواحد وذكريات المعاناة الرهيبة ـــ الامـــر الـــذى جمعهم فى قـــوة وتحالف لا مثيل له فى الشرق الاوسط وربما فى اى مكان فى العالم .

وعند تقدير مواقف الاسرائيليين تجاه منطقتهم ومستقبلها فليس هناك مجال لاى انسان مفكر أن يتجاهل تجربة اليهود فى الماضى . فاليهود عانوا لمـــدة قرون من آلام الشـــتات وواجهـــوا التمييز العنصرى فى كل دولـــة عاشـــوا فيهـــا .

ففى أوروبا بالرغم من مساهمات اليهود الموســـة للجميع ســـواء فى مجال الاجتماع أو العلوم أو التنمية الاقتصادية للمجتمعات فان العـــديد من اليهود قتلوا وطرد غيرهم من مكان الى آخـــر بفضـــل الحكام المسيحيين . وبالرغم من أن المسيحيين واليهود لم يحصلوا على نفس الحقوق كالمسلمين ،

فان الذين ظلوا فى منطقة الشرق الاوسط الاسلامية كأقلية قد عوملوا بطريقة أفضل من غير المسيحيين فى الدول المسيحية وذلك لان النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) أمر اتباعه بالاعتراف باليهودية والمسيحية باعتبارهما أصل معتقداتهم ، كما أمرهم بتكريم انبيائهم وحماية معتقداتهم . وفى النهاية جاء الى غرب اوروبا حكم اكثر سماحة بمجىء عصر النهضة فى القرن التاسع عشر ، وتعرضت الهوية الفريدة لليهود المشتتين للخطر عندما بداوا يفقدون تماسكهم الذى جاء نتيجة للقسر والاضطهاد ، وبدأوا يتقبلون الاندماج فى المجتمعات المسيحية والحياة الاجتماعية فى ذلك الوقت . ولكن حوالى ثلاثة أرباع اليهود كانوا يعيشون فى دول أوروبا الشرقية حيث استمرت معاناتهم ، وهناك بدأت تنمو جذور الصهيونية وتترعرع . وبالرغم من أن غالبية المهاجرين الاوروبيين ذهبوا الى الولايات المتحدة فقد تردد المزيد من الاصوات التى تطالب باقامة دولة يهودية فى وطنهم القديم وذلك من أجل الهروب من مضطهديهم ، وتلبية لتعاليم الكتاب المقدس . وفى عام ١٨٨٠ لم يكن هناك سوى ٣٠ الف يهودى فى فلسطين مبعثرين بين ٦٠٠٫٠٠٠ من العرب المسلمين والمسيحيين ، ولكن منذ ذلك الحين فان كل مرحلة من مراحل الاضطهاد فى أوروبا جاءت ومعها موجة من المستوطنين الصهاينة . ووصلت مجموعة كبيرة الى فلسطين فى ثمانينات القرن التاسع عشر قبل وبعد الحرب العالمية الاولى ، ومرة أخرى فى أواخر عشرينات القرن العشرين . وفى عام ١٩٣ زاد عددهم الى اكثر من ١٥٠ الف وتضاعف هذا الرقم وزيادة خلال العشر سنوات التالية . وأصبح العرب فى فلسطين اكثر انزعاجا وخوفا . فناضلوا سياسيا وعسكريا ضد هؤلاء المستوطنين الجدد الذين يعيشون بينهم ولكن بخلاف هذه القضية لم يتوصلوا الى اتفاق بيهم . وبعد الحرب العالمية الاولى تم اقتراح عدة خطط مختلفة تستهدف حل الخلافات بين اليهود والعرب ولكن كانت ترفض من جانب أو آخر وغالبا من الطرفين وسعى البريطانيون الذين ورثوا الحكم من الاتراك العثمانيين فى فلسطين الى الحد من الخصومات الدموية بين الطرفين بالحد من هجرة اليهود الى الارض المقدسة ، بالرغم من النداءات البائسة من الذين واجهوا تهديدا وتفرقة عنصرية فى أوروبا .

وبعد ذلك جاءت الابادة المرعبة التى لا يمكن وصفها ، والتى قبلها أو تجاهلها فى ذلك الوقت عديد من شعوب الارض فى الدول المتمدينة بما فى ذلك الولايات المتحدة . وعندما اثرت الحقائق بوضوح كبير على وعى المجتمع الدولى التى جرحت مشاعره بشدة ، أتخذ اجراء أوصل جهود الحركة الصهيونية المستميتة ، بلا كلل ، الى تشكيل دولة اسرائيل . وقد توج هذا حلم اليهود الذى لا نهاية له وهو الاقامة والعيش فى كنف حكومة يتم اختيارها بأنفسهم فى وطنهم الدينى . وكان الانتصار على الخلافات التى لم يكن

من الممكن تجاوزها ، وما بقى من ذكريات عن التاريخ المأساوى قد شكل وصبغ موقف العالم اليهودى ، علاوة على ان ضعف وعزلة اسرائيل وحرمانها من حلفاء اقوياء ووجودها وسط اعداء من العرب لاسبيل الى تغييرهم قد حول الوعد بوجود دولة الى دفاع مستميت بالرغم من التضحيات السياسية والاقتصادية التى قد تحتاجها مثل هذه الظروف .

وقد حظى قرار التقسيم النهائى الذى اصدرته الأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ على رضاء غالبية اليهود ، ولكن القوات العربية عارضت أى اغتصاب شرعى لأى من الاراضى التى عاش فيها الفلسطينيون منذ قرون عديدة . وبدأ العرب الفلسطينيون فى تكثيف هجماتهم المسلحة ضد اليهود ونشبت حروب ضارية بين الجيران ، وفى العام اللاحق — فى شهر مايو — انسحبت القوات البريطانية واعلنت اسرائيل انها دولة مستقلة . وهنا انضمت قوات عربية تمثل مصر ولبنان وسوريا وشرق الأردن والعراق الى الفلسطينيين فى مهاجمة الدولة الجديدة .

وكانت بعض القوات العربية ، شانها شان الاسرائيليين ، قد حاربت مع الحلفاء ضد قوات المحور ، وحصلوا على اسلحة من سادتهم الأوروبيين ، كما أن بعضهم قد تم تدريبه تدريبا جيدا . ومع ذلك فان المصريين والسوريين واللبنانيين والعراقيين كانوا يناضلون من اجل اقامة حكومات قادرة على البقاء ، وكما انهم كانوا لا يزالون منقسمين على انفسهم ، وكانت قواتهم الوطنية المجزأة غير منظمة تنظيما جيدا ، وكان هناك بعض الشك حول أهدافهم المحددة . وباستثناء الاردن فان حكومات جيران اسرائيل قد مزقتها الانقسام وسقط العديد منها سواء عن طريق الانقلابات او الثورات .

أما اليهود فقد كانوا على عكس هذا يحاربون من اجل بقائهم ومن اجل استمرار وجود دولتهم الجديدة ، كما ان قواتهم كانت متماسكة وافضل تدريبا وافضل قيادة وتتمتع بروح معنوية عالية . وتمكن الاسرائيليون بمساعدة السوفييت من الحصول على اسلحة حديثة من تشيكوسلوفاكيا ساعدتهم على الانتصار فى نهاية الأمر .

وانتهت الحرب عام ١٩٤٩ بعقد الهدنة بين اسرائيل وبين الدول التى تجاورها ولعبت العراق البعيدة على حدود اسرائيل دورا صغيرا فى المعركة ، ولم تزعج نفسها بالاشتراك فى مفاوضات الهدنة .

وكان من اهم العناصر البارزة فى الوثائق التى تم التوقيع عليها عام ١٩٤٩ هو قبول اسرائيل لمبدأ تقسيم فلسطين والاتفاق على اشراف

الملك الأردنى عبدالله على ما هــو معروف باسم الضـــفة الغربية . وكان الفلسطينيون فى ذاك الوقت غـــير قادرين على تشكيل دولة مستقلة ، كما ان الأردنيين كانوا يرغبون فى الحصول على اكبر مساحة ممكنة من الضفة الغربية لنهر الاردن ، ولهذا لم يكن هنـــاك أى اعتبار جاد لاقامة دولـــية مســـتقلة للفلسطينيين فى حـــين أن رغبتهـــم فى ايجاد وطن لهم قد توزعت بين الاردن واسرائيل ومصر .

ودفعت حالة الحرب بين الاسرائيليين والعرب الى فرار العـــديد من اليهود من الدول الى اسرائيل . وفى نفس الوقت فان اللاجئين الفلسطينيين من اسرائيل والضفة الغربيـــة قد تبعثروا بصورة أوسع فى أنحـــاء الدول الضعيفة . وشن الفلسطينيون من كل ناحيـــة حرب العصـــابات لانهـــاك الاسرائيليين سيطرت الدول الاوروبية على القناة ، واجبار المصريين عـــلى الاعتراف باسرائيل دبلوماسيا . وكانت الضربة العسكرية فى مواجهة دفاعات جمال عبد الناصر غـــير المؤثرة ناجحة ، ولكن قيام كل من الولايات المتحـــدة والاتحاد السوفيتى بجهود قوية فى الامم المتحـــدة ، بالاضافة الى الضـــغط السياسى الدولى — اجبر الغزاة على الانسحاب . ومع ذلك نجحت اسرائيـــل فى الحصول على ضمانات من الامم المتحـــدة بنزع سلاح أجزاء كبـــيرة مـــن سيناء مع تواجد قوات حفظ السلام الدولى وكذلك حقها فى الملاحة من خلال مضايق تيران . وعرف العرب من هـــذه الحرب أن اسرائيـــل لن تتردد فى استخدام قواتها العسكرية لضمان أمن حدودها وحماية نفسها . كما أن حرب السويس عمقت كذلك مفهومهم تجاه اسرائيل باعتبارها قوة غربية فى منطقتهم لاتزال تساندها القوى الاستعمارية فى الغرب .

وباستثناء بعض غارات الحدود المتقطعة فان السنوات العشر التاليـــة اتسمت بســـلام نسبى ، ولكن اصبح واضحا ان كلا الجانبين يعدان لحرب أخرى . وكانت اسرائيل ومصر تتسلحان بأقصى سرعة ممكنة وتقومان بمناورات عسكرية من حـــين الى آخـــر ، وخلقت الكراهية التى يكنهـــا الشعبان تجاه بعضهما اعتقادا بأن الحرب لا يمكن تجنبها .

واخيرا وفى عـــام ١٩٦٧ طرد الرئيس جمال عبد الناصر قوات الطوارىء الدوليـــة التابعة للامم المتحدة واعاد تسليح سيناء المصرية وفرض حصـــارا على الملاحة الاسرائيلية فى مضايق تيران .

وكانت هـــذه التصرفات بمثابة ضربة قوية للاقتصـــاد الاسرائيلى وتهديد عســـكرى لا يمكن تجاهلـــه . وبشـــكل عام اعترف الطرفـــان بوضوح بأن هـــذه التصرفات كانت مبررا للحرب .

وبالرغم من الجهود المضنية التى بذلتهـــا كل من الامم المتحدة والولايات المتحـــدة وغيرها من الدول العربية من أجل منـــع نشوب معارك جديـــدة

فان الحكومة الاسرائيلية قررت فى الايام الاولى من شهر يونيو شن هجوم ضد كل من سوريا ومصر ، ونشبت الحرب ، وبالرغم من تحذيرات اسرائيل لحسين فان القوات الاردنية هاجمت اسرائيل ، وخلال ستة أيام حققت القوات الجوية والبرية الاسرائيلية نصرا بشكل يفوق كل التصورات ، فقد اتجهت القوات الاسرائيلية غربا عن طريق قطاع غزة وصحراء سيناء الى قناة السويس وشرقا لاحتلال الضفة الغربية وشمالا للاستيلاء على مرتفعات الجولان وبهذا النصر المذهل عم شعور من الفخر والنشوة جميع أرجاء اسرائيل . ومع ذلك كان هناك رد فعل دولى عنيف وظهرت اتجاهات جديدة للمعارضة والتأييد ، فقطع السوفييت علاقاتهم الدبلوماسية مع اسرائيل وعرضوا تقديم مساعدات غير محدودة للعرب . كذلك فان العلاقات القوية بين اسرائيل وبعض الدول الاوروبية الصديقة قد اهتزت بشكل ملموس خاصة أن العديد من هذه الدول انضم الى ادانة التوسع الاسرائيلى فى الاراضى العربية . وفى الوقت نفسه فان مساندة الولايات المتحدة لاسرائيل زادت ، كما زادت المعونة العسكرية والمالية لها خلال الفترة اللاحقة .

وداخل اسرائيل نفسها كانت هناك معارضة قوية لاعادة الاراضى المحتلة ، ولكن كان الاتجاه السائد بين الزعماء الاسرائيليين يكمن فى الحفاظ على هذه الاراضى المحتلة باستثناء بعض الاجزاء التى ما زالت غير محددة من الضفة الغربية ، والمقايضة عليها فى مقابل تحقيق سلام آمن مع العرب .

وأدت الجهود التى بذلت فى اسرائيل للاعداد لاستبدال الارض مقابل السلام الى ظهور اتجاهات سياسية أصبحت لها اهمية متزايدة فى السنوات التالية . وكان أشهر مشروع هو الذى أعده ايجال آلون ، أحد أبطال الحرب وعضو الحكومة الاسرائيلية ، فقد اقترح آلون احتفاظ اسرائيل بشريط من الارض يكاد يكون غير آهل بالسكان من الضفة الغربية يقع خلف نهر الاردن واقامة تحصينات ومستوطنات لتكون بمثابة خط دفاعى ضد اى هجوم محتمل قادم من الشرق . واحتفاظ العرب بالمناطق الشمالية والجنوبية من التدس المكتظة بالفلسطينيين باعتبارها جزءا من الاردن ويتم اتصالها بالاردن جغرافيا عن طريق ممر من خلال منطقة محيطة بأريحا . وأدان مناحم بيجين هذا المشروع بشدة ، وقرر بيجين الذى أصبح زعيما للمعارضة وعضوا فى الكنيست وغيره الاحتفاظ بكل أراضى الضفة الغربيه باعتبارها جزءا من اسرائيل . كذلك فان الملك حسين رفض أى مشروع لتقسيم الضفة الغربية . والواقع أن جميع الدول العربية المجاورة لاسرائيل رفضت التفاوض على اساس شروط اسرائيل ، واستمر المصريون خلال الشهور اللاحقة فى ضرب القوات الاسرائيلية فى سيناء ، وقامت الطائرات الاسرائيلية بالرد على ذلك بشن غارات على القاهرة وغيرها من المدن .

وقد زود السوفييت المصريين بأسلحة مضادة للطائرات بل انهم نشروا بعضه من بعض طائراتهم المقاتلة لمواجهة الطائرات الاسرائيلية ولكنهم بذلك لم يؤثروا كثيرا فى ضربات اسرائيل الانتقامية فى عمق مصر .

وفى الوقت نفسه استمر رجال العصابات الفلسطينيين وخاصة فى الاردن الذين شجعتهم دول عربية أخرى ، فى شن هجماتهم عبر الحدود كما تم تنفيذ أعمال ارهابية ضد الاسرائيليين فى ، مختلف دول العالم ، وأوقفت اسرائيل غاراتها ليس بسبب تهديدات الارهاب ولكن لانها كانت فى غاية الانشغال بالتطور المستمر على المسرح السياسى لمنظمة التحرير الفلسطينية التى تأسست عام ١٩٦٤ اصبحت قوة عسكريه خطيرة وكيانا سياسيا قويا ، وقادرة على الحصول على مساندة قوية على المسرح الدولى من جانب العرب والاتحاد السوفيتى وأغلب دول العالم الثالث وبعض الاوروبيين .

وأصيب الاسرائيليون الذين كانوا منشغلين بتدعيم وجودهم فى الضفة الغربية وقطاع غزه ومواصلة بناء اقتصادهم بذهول تام فى اكتوبر ١٩٧٣ عندما شن الرئيس أنور السادات هجوما مشتركا من جانب قواته عبر قناة السويس ومن جانب السوريين على مرتفعات الجولان ، وحقق العرب الذين كانوا مسلحين تسليحا جيدا باسلحة سوفيتية انتصارا ، ولكن قوات الدفاع الاسرائيلية والامدادات العسكرية الاضافية من الولايات المتحدة حولت مسار الحرب . واستخدمت الدولتان العظميان — اثناء استمرار القوات الاسرائيلية فى التقدم — نفوذهما لفرض وقف القتال ، وبدأت المفاوضات من أجل سحب القوات المتحاربة من خط الصدام المباشر . وكانت الولايات المتحدة الوسيط الرئيسى فى هذه العملية حيث دعم هنرى كيسنجر ، وزير خارجيتها ، بالتنقل بين الدول كالمكوك احتها على الاتفاق .

وفى ديسمبر عام ١٩٧٣ تقابل وزراء خارجية الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى واسرائيل ومصر والاردن فى جنيف طبقا لقرار الامم المتحدة رقم « ٣٣٨ » (ملحق ٢) وكان هدفهم التوصل الى اتفاقيات لفك الاشتباك وانهاء حرب اكتوبر رسميا . ووضع أساس لمحادثات سلام أخرى فى المستقبل . ورفضت سوريا الحضور ، كما لم يتم دعوه زعماء منظمة التحرير الفلسطينية لحضور هذا الاجتماع . ومع ذلك تم توقيع اتفاقيات بين اسرائيل وكل من مصر وسوريا لفك الاشتباك وتثبيت الخط الفاصل بين قوات الدول مع استمرار احتلال القوات الاسرائيلية لسيناء ومرتفعات الجولان . ومع استمرار الولايات المتحده فى القيام بدور الوسيط . وهذه الاتفاقيات

جعلت من الولايات المتحدة الضامن الفعلى لاذعـــان اسرائيل كما زادت من تعهداتهـــا تجـاه اسرائيل .

وبعد توقيع الاتفاق الثانى بين اسرائيل ومصر فى سبتمبر عـــام ١٩٧٥ كانت هناك فترة من الهدوء النسبى فى المفاوضات الدولية . وعلى أية حال فقد كان موعد الانتخـابات الوطنية فى اسرائيل قد اقترب ، وكانت نتائج الانتخابات الوطنية فى اسرائيل قد اقتربت ، وكانت نتائج الانتخــابات الاسرائيلية التى تمت فى ديسمبر عام ١٩٧٣ تنبىء بما كان سيحدث عام ١٩٧٧ . ولكن قليـــلا من الناس كان يدرك أو يؤمن بهذه الدلائل . ففى عام ١٩٧٣ خسر حـــزب العمل فى الكنيست برئاسة رئيسة الوزراء جولدا مائير خمس أصـــوات بينما زاد عدد أعضـــاء الليكود (أساسا حزب حيروت) الذى يتزعمهم مناحم بيجين ثلاثة عشر عضوا ، وظل لحزب العمل الاغلبية . وكان قادرا على تشـــكيل ائتلاف حكومى يضم عددا من اعضاء الاحزاب الصغيرة . وقدمت السيدة مائير استقالتها عام ١٩٧٤ وخلفهــا اسحاق رابين فى منصب رئاسة الوزراء ، ومع ذلك ففى مايو عام ١٩٧٧ اثمرت الانتخـــابات عن ظهـــور زعـــيم جـــديد . وكسب الليكود أربعة أعضاء جـــدد من الكنيست ، فى حين أن ائتلاف حـــزب العمل فقد تسعة عشر عضوا . وشكل الليكـــود حكومـــة جـــديدة واصـــبح مناحم بيجين رئيسا للوزراء ، وكان زعيمـــا جريئا وقويا .

وانهى انتصار بيجين المفاجىء السيطرة المستمرة لحزب العمـــل على مقاليد الامـــور منذ استقلال اسرائيل . ومن الامور الهامة ان نشـــير الى أن حزب حيروت بزعامة بيجين كان قد تشكل جزئيـــا من منظمة ارهابية غـــير رسمية . وظهرت تناقضـــات حـــادة بين حزب حيروت وبين بيجين وغـــيره من زعمـــاء اسرائيل بخصوص حقـــوق اسرائيـــل فى كل أراضى فلســـطين التاريخية . وعلى أية حـــال فقد كون بيجين تحالفا يمثل الاغلبية ويتمســـك — كمـــا حدث فى عام ١٩٤٩ — بانتماء أراضى غزة وضفتى نهر الاردن شرعـــا الى دولة اسرائيل — وتعين عدم مبادلتها بسلام دائم مـــع العرب . وكان هناك تباين فى الرأى العـــام ولكن لم يكن هنـــاك شـــك فى أن اتجـــاه الصقور ، فى عام ١٩٧٧ ، كان يخيم على حكومة اسرائيل فبيجين لم يتغير ولكن اسرائيل تغيرت .

وعلى الرغم من أن العديد من العوامل اثرت فى نتيجة الانتخـــابات فان عامل السن والخلافـــات العرقية قد رجح الليكود بشـــكل كبير على تحالف حزب العمل . فاليهـــود الشرقيون (السفارديين) الذين قدمت اسرهم من آسيا وافريقيا أعطوا تحالف الليكود نسبة اثنين الى واحـــد فى عـــــام ١٩٧٧ . وكان يميل هؤلاء اليهود القادمون من دول اســـلامية الى تأييـــد سياسة أكثر تشددا فى معالجة مشاكل العرب الفلســـطينيين ، كـــذلك فان

السفارديين كانوا يستاءون من اليهـود الاثرياء والمتعالين الذين هاجروا من أوروبا وأمريكا والمعروفين باسم « الاشـكنازيين » والذين كانوا يكونـون الغالبية العظمى من قادة اسرائيل السابقين . وعلى الرغم من أن بيجين لم يكن ــ بالمولد ــ واحدا منهم الا أن فلسفته وسلوكه كانا يجذبان أصـوات السفارديين وكانت معدلات مواليد السفارديين أعلى من معدلات الاشكنازيين وأصبحوا الان هم واطفالهم يشكلون اغلبية اليهود فى اسرائيل وكانت مساندتهم بمثابة عامل هام فى زعامة تحالف الليكـود لاسرائيل .

ولكن شخصية مناحم بيجين كانت العامل الرئيسى فى النصر ، وباعتباره زعيما يتمتع بالشعبية ومتحدثا ساحرا فقـد كان قادرا على اقنـاع العديد من الاسرائيليين بشجاعته وثباته فى العمـل على تحقيق الاهـداف السياسية لاسرائيل ، تلك الاهداف التى لم ينحرف عنها على الاطلاق ، ونصب نفسـه كبطل للناخبين السفارديين المطحونين ، ووضـع اجـابات سـهلة للاسئلة الصعبة الخاصة بالسلام والحرب والدين والفلسـطينيين والنظـام المـالى والاقتصادى . وكانت رسائل بيجين يمكن فهمها بسهولة وكانت لديـه فكرة واضحة : متى يجب أن يرضخ وما الذى يجب الا يتخلى عنه فى المفاوضـات مع الجيران العرب ومع الولايات المتحدة . كما أن وعوده للاستهلاك المحـلى كانت جذابة (وهى أمور تعتبر غالبا من الامـور المنكبة للنظام الاقتصـادى الاسرائيـلى) .

ولد مناحم بيجين فى بولندا من ابوين بولنديين ، وبعد أن اجتاح الالمان بلاده مات والداه وشقيقه على ايدى النازى ، وهرب بيجين الى قطاع لتوانيا التابع للاتحاد السوفيتى ، حيث القى القبض عليه وأرسل الى سيبيريا لنشاطه السياسى غير المقبول باعتباره صهيونيا .وبعد قضاء حوالى عام فى السجن أمضى فترة منه فى حبس انفرادى تم الافراج عنه وتمكن من الذهاب الى فلسـطين عام ١٩٤٢ . وهناك أصبح قائدا لجماعة عسكرية سرية تعـرف باسم الارجون التى تتمسك بمعظم طلبات الصهيونية . وحارب بكل سـلاح ممكن ضد البريطانيين الذين وصفوه بأنه أخطر ارهابى فى المنطقة .

ان رجلا بهذه الشجاعة والايمان الثـابت بأهدافه ليعتز بأن يلقب « باليهودى المقـاتل » . وكانت صورة رئيس وزراء اسرائيل الجديد تؤكد أنه رجل مستعد لاستخدام العنف لتحقيق الاهداف التى يؤمن بها .

وفى يناير عام ١٩٧٧ توليت منصب رئيس الولايات المتحدة وحضر الرئيس السادات الى واشنطن فى زيارة رسمية فى شـهر ابريل . وفى أول ليـلة بعد العشـاء الرسمى صعدنا سويا الى الطابق الخاص بالمعيشة بالبيت الابيض .

وخلال محادثة خاصة طويلة اخبرنى السادات بوضــوح انه يرغب فى اتخــاذ خطوات هامة نحو السلام ، وناقشنا بعض العنــاصر الخاصة بامكانية اجراء مفاوضات مباشرة فى المستقبل بخصوص : الحدود الدائمة لاسرائيل ، ووضــع القــدس ، وحرية التجــارة والحدود المفتوحة بين البلدين حتى الاعـــتراف الدبلوماسى باسرائيل وتبادل السفراء .

وبعد انتخاب بيجين بشهر ، أكدت بيــاناته الصحفية معتقداته القديمــة بما فى ذلك اصراره على توسيع حدود اسرائيل الى ضفتى نهــر الاردن . ومع ذلك فعندما حضر الى واشنطن لمقابلتى وجدته يرغب فعلا فى انتهاج الاهداف الهامة التى سبق ان ناقشتها مع الســادات ، وكان من المفروض وقتئذ عقــد مؤتمــر جنيف آخر يحضره كافة الاطراف المتنازعة فى الشرق الاوسط بحضور الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى كشريكين فى العملية .

وفى نوفمبر ١٩٧٧ قام الســادات بمبــادرة ســلمية مثيرة بذهابــه الى القــدس . واستقبل بيجين السادات بالترحاب واستمع — بهدوء مصطنع — الى الرئيس المصرى وهو يقدم للكنيست اقصى ما يمكن أن يقــدمه الفلسطينيون والدول العربية المجــاورة لاسرائيل من طلبات . وتقــابل الزعيمان فيما بعــد فى مصر ولكن كان من الواضح أنهما غير قادرين على تحقيق اى تقــدم آخــر تجاه السلام .

وفى العــام التالى وجهت الدعوة للرجلين ومستشاريهما البارزين للحضور الى كامب ديفيد فى شهر سبتمبر لمدة أسبوعين من اجل اجراء مفاوضات مكثفة . وكان هدفى هو جعل الاسرائيليين والمصريين يتقابلون فى مكان واحد بعيــــدا عن الصحافة حتى يمكنهم تفهم أبعــاد العــديد من اهدافهم والفـــوائد التى تعــود على بلديهما اذا تمكنا من تسوية خلافاتهما . وكان يجب ان نواجه بعض القضايا الرئيسية مثل الانســحاب الاسرائيلى من الاراضى المحتلة ، والحقــوق الفلسطينية ، والامن الاسرائيلى ، وانهــاء الحظر التجــارى ، وفتح الحدود بين اسرائيل ومصر ، وحق السفن الاسرائيلية فى العبــور فى قنــاة الســويس والموضوعات العديدة الخاصة بالقدس . واثنــاء المفاوضات كنا نامل ان نتوصل الى تحقيق ســلام دائم بين الدولتين يقوم على اعتراف ديلوماسى كامل تنص عليه معاهدة سلام ثنائية .

كان بيجين والسادات غير متفقين من الناحية الشخصية ، ولهــذا قررنا بعــد عدة مقابلات غير ســارة انهما لا يجب أن يتفاوضا مع بعضهما البعض ، وبدلا من ذلك تعاملت مع كل منهما على حدة او مع ممثليهما .

وعلى الرغم أن ذلك الوضع كان اكثر صعوبة بالنسبة لى اذ كان يستلزم الامر أن أذهب من مفاوض الى آخر — فقد كانت هناك مميزات لهذه الطريقة وذلك لمنع المناقشات الخطابية والجدل الشخصى بين الزعيمين(١) .

لقد حضر بيجين الى كامب ديفيد بهدف اعداد بيان عن المبادىء العامة للتوصل الى اتفاق سلام ، وترك العمل الخاص لايجاد حل للموضوعات الصعبة لمن هم فى المرتبة الادنى . وكان من الواضح أنه مهتم بمناقشة موضوع سيناء أكثر من اهتمامه بمناقشة مسالة الضفة الغربية وغزة . وبعد بداية المفاوضات المطولة ، بذل بيجين أكبر جزء من طاقته فى بحث تفصيلات كل اقتراح والمعنى المقصود لكل جملة أو كلمة . أما الاعضاء البارزون فى الفريق الاسرائيلى مثل موشى ديان ، وزير الخارجية ، وعزرا وايزمان ، وزير الدفاع ، والجنرال أهرون باراك فقد كانوا ايرغبون بقدر الامكان فى التوصل الى اتفاق كامل ، وكانوا قادرين على اقناع بيجين بأن أى اقتراح خاص بهذا الموضوع يعتبر مفيدا لاسرائيل .

وكان السادات أكثر أعضاء الوفد المصرى استعدادا للمساعدة ، وكانت طلباته تتلخص فى انسحاب جميع الاسرائيليين من أراضى سيناء المصرية ، وان أى اتفاق ثنائى يجب أن يقوم على أساس اتفاق مقبول فيما يتعلق بالاراضى المحتلة والحقوق الفلسطينية والتزام اسرائيل بضرورة حل أى مشاكل تظهر فى المستقبل مع جيرانها حلا سلميا . وكان غالبا ما يترك التفصيلات الخاصة بالمفاوضات لغيره .

وفى مرات عديدة كان بيجين والسادات على استعداد لانهاء المناقشات والعودة الى بلاديهما ، ولكننا تمكنا أخيرا من بحث اتفاقيات كامب ديفيد بما فى ذلك الاطار العام لمعاهدة السلام بين البلدين . وقد اتفق الزعيمان ومستشاريهما على الفقرة الخاصة بأكثر الموضوعات حساسية وهو وضع المدينة المقدسة على النحو الآتى :

« ان القدس مدينة السلام تعتبر مدينة مقدسة للديانات الثلاثة : اليهودية والمسيحية والاسلام ، وأن جميع الناس يجب أن تكون لهم حرية دخولها وحرية ممارسة العبادة والزيارة والاقامة فى الاماكن المقدسة دون تفرقة أو تمييز ، وستكون الاماكن المقدسة لكل عقيدة تحت اشراف وادارة ممثلى كل عقيدة وسيقوم مجلس بلدى يمثل سكان المدينة بالاشراف على الخدمات الاساسية فى المدينة مثل المرافق العامة والنقل العام والسياحة ، وسوف يضمن لكل طائفة صيانة مؤسساتها الثقافية والتعليمية » .

---

(١) للاطلاع على وصف كامل لمفاوضات كامب ديفيد انظر جيمى كارتر مذكرات الرئيس (نيويورك بانتام ١٩٨٢ ص ٣١٩ — ٤٠٣) .

ومع ذلك وفى الدقيقة الاخيرة وبعد عدة ايام من الاتفـــاق بالاجماع قرر كل من الســـادات وبيجين أن هناك عناصر موضــع جدل فى الاتفاقيـــات ، وطلبـــا الغاء هـــذه الفقرة الخاصة بالقدس من النص النهائى . وتم التوقيع على اتفاقية كامب ديفيـــد فى سبتمبر عام ١٩٧٨ (ملحق ٤) .

وكان من الواضح لنا أن الجانبين قد قدما تعهدات من الصعب تنفيذها . فبعض التنازلات التى قدمها بيجـــين كانت مرفوضة من شركائه السياسيين المقربين لـــه فى اسرائيل مال قبوله كتابة « الحقوق المشروعة للفلسطينيين » . ولكن بيجين سار قدما وبشجاعة لكسب موافقة الكنيست على انسحاب جميع الاسرائيليين من سيناء . ومن ناحية أخرى سرعان ما اثبت عـــدم رغبتـــه فى تنفيذ أصعب تعهد بخصوص اعطاء الفلسطينيين الحكم الذاتى الكامل وانسحاب اسرائيل العسكرى وانهـــاء الحكم المدنى من الضـــفة الغربية وغزة . وواجه السادات كذلك ادانة من زملائه العرب الذين فرضوا عقوبات شـــديدة ضـــد مصر اثبتت عدم جدواها فى النهـــاية ، سواء كانت عقوبات دبلوماســـية أو اقتصادية أو تجارية ، بهدف عزل ومعاقبة السادات .

وبالرغم من هـــذه المشاكل فقـــد عقدت معاهدة السلام بين اسرائيـــل ومصر المرتكزة على اتفاقيـــات كامب ديفيد وتـــم التوقيع عليها فى البيت الابيض فى مارس ١٩٧٩ . ومنذ ذلك الحين حرص الجانبان على المحافظـــة عـــلى نصوصها .

ولم يرغب الاردنيون أو الفلسطينيون فى المشـــاركة فى محادثات السلام اللاحقة للمساهمة فى تنفيـــذ اتفاقيات كامب ديفيد بخصوص حقوق الفلسطينيين والضفة الغربيـــة وغزة . وساعد هـــذا الرفض واصرار الفلسطينيين واغلب العرب الآخرين على رفض الاعتراف بشرعية الدولة الاسرائيلية ، على تأكيد مخاوف الاسرائيليين الخاصة بأن وجودهم سوف يكون مهددا مرة أخرى عنـــدما يعد أعداؤهم القوة الكافية للدخول فى معركة عســـكرية . وقـــد أســـفر هذا الاعتقـــاد بدوره عن ظهور اتجاه متشدد للغاية بين قادة حكومة الليكود عبر عنه بوضوح رئيس الوزراء فى الضـــفة الغربية فى شهر مايو عـــام ١٩٨١ عندما قال : « أنا مناحم بن زئيف وحنا بيجين ، اقسم يمينا مخلصا الا نتخلى ، طوال خدمتى لبـــلادى كرئيس للوزراء ، عن اى جزء من يهـــودا والسامرة وقطاع غزة أو مرتفعات الجولان (١) » .

ولسوء الحظ فان هـــذا التصريح يتعـــارض مـــع الشروط الاساسية لاتفاقيات كامب ديفيـــد .

---

(١) يهودا والسامرة هى الاسماء التى يطلقها بيجين على الضفة الغربية .

ومن وجهة نظر بيجين فان اتفاقية السلام مع مصر كانت اجراء لـه اهميته بالنسبة لاسرائيل ، أما بخصوص الضفة الغربية والفلسطينيين فان الامر يحتاج الى مواجهتها بالحيلة والدهاء ، وتمكن بيجين بالمعاهدة الثنائية من ابعاد قوة مصر الهامة من المجال العسكرى للشرق الاوسط ، الامر الذى يعطى للاسرائيليين الفرصة لتجديد حريتهم فى الاستمرار فى تحقيق اهدافهم الخاصة نحو تحصين وتوطين الاراضى المحتلة وابعاد التهديدات بتوجيه ضربات عسكرية ضد البعض من جيرانها . وتحت قيادة بيجين قام الاسرائيليون عام ١٩٨١ بشن غارة جوية دمرت المفاعل النووى العراقى ، واعلنوا « ضم » مرتفعات الجولان وبذلوا جهودهم المكثفة لاقامة المستوطنات الاسرائيلية فى الضفة الغربية ، وبعد ذلك جاء الغزو الكامل للبنان عام ١٩٨٢ ، وكل هذه التصرفات ادينت بشدة من جانب العالم العربى كما أن الشعب الاسرائيلى قد انقسم على حكومته من جراء هذه السياسة العسكرية . وكان هناك على وجه الخصوص نوع من الأسى بسبب ارتفاع نسبة الضحايا بين القوات الاسرائيلية فى لبنان ، وكانت الحكومة الاسرائيلية تحصل على مساندة نسبيا من جانب واشنطن .

لقد اثبتت اسرائيل انها واحدة من اقوى دول العالم من الناحية العسكرية بصرف النظر عن الذى بدأ بشن الهجمات أولا أثناء الحروب الخمسة التى شاركت فيها من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٨٢ ، فقد تمكنت اسرائيل من نشر المزيد من القوات ، واستطاعت أن تتفوق بها على أعدائها ، ومع ذلك فان هذه الانتصارات كانت مكلفة للغاية سواء من الناحية المالية أو الناحية البشرية . وكان الجانبان بعد كل حرب يدخلان فى سباق جديد تسلح ، وكان على اسرائيل ان تقترض مبالغ كبيرة . وتم انفاق حسب الى ثاثى دخلها القومى فى شئون الدفاع وفى خدمة الدين الوطنى . ومات الآلاف المؤلفة فى الحروب ، وفى كل مرة تحتل اسرائيل أراضى جديدة أو تستولى عليها كانت اعداد كثيرة من العرب المسيحيين والمسلمين يتم طردهم من ديارهم او يخضعون للحكم العسكرى . وكانت عمليات التهجير المستمرة لعديد من الاشخاص تؤدى الى استمرار تفاقم المواجهة العسكرية الخطيرة بالفعل ، وزيادة حدة الخوف والكراهية والنفور بين الجانبين ، وصعوبة تحقيق أية مصالحة نهائية يتعين الوصول اليها قبل تحقيق السلام والعدل والامن فى المنطقة .

ولم تسفر أى من الحروب السابقة عن حل لأى من المسببات الرئيسية للصراع المستمر . وخلال زياراتى لاسرائيل منذ تركت البيت الأبيض ، ومن خلال مقابلاتى المكثفة مع أساتذة وزعماء سياسيين وكذلك من خلال محادثاتى مع عديد من المواطنين الاسرائيليين العاديين ، لاحظت نفورا مستمرا

ازاء مواجهة سؤال حرج مؤداه : وماذا نفعل بالنسبة للفلسطينيين والكثير منهم اختاروا التظاهر بأنهم غير موجودين ؟ ! .

ففى حوار مع بعض الأصدقاء بالقرب من قيصرية مثلا ، قالت ارملة بليغة فى تدمس الى حد ما : « لقد عشت فى هذا المجتمع لأكثر من ثلاثين عاما ولم أقم بزيارة الضفة الغربية على الاطلاق ، وبالنسبة لى فهذا المكان يعتبر عالما آخر . والواقع انه توجد قرية عربية على بعد أميال قليلة من هنا ولكن لم اجر أية اتصالات أو أحاديث مع أى من سكان هذه القرية ولست متأكدة اننى أرغب فى ذلك على الاطلاق ان الهوة بين الاسرائيليين اليهود وغير اليهود تزداد اتساعا باستمرار .

وثمة سؤال آخر أساسى يتعلق بالارض ولا سيما أراضى الضفة الغربية وغزة . ففى خلال أغلب فترة الانتداب البريطانى عندما كانت المنطقة تخضع لتوجيهات لندن كان أمام اليهود فرصة كبيرة لشراء الاراضى التى يرغبونها ، واختاروا بحكمة التمركز فى أقل الاراضى سكانا ، والاكثر خصوبة والتى تقع على الساحل ومناطق الوديان ومن خلال هذه الحدود نشأت اسرائيل . بيد أن قضية الأمن والأهداف الايديولوجية لسنوات عديدة لاحقة ، وكذلك عرض الحكومة للعديد من المساكن المناسبة والرخيصة فى المناطق الواقعة على أطراف القدس ، شجعت عددا كبيرا من الاسرائيليين على الاقامة فى الضفة الغربية ، وهذا أحد أسباب النزاع الرئيسية بين العرب والاسرائيليين ، ويعتبر بالنسبة لأغلب المسئولين الأمريكيين مخالفا للقانون الدولى وعقبة رئيسية أمام السلام .

وهاتان القضيتان الاساسيتان تبرزان مدى التعقيد والتصلب الواضحين فى القضايا الاخرى بيد أننى لا أزال مقتنعا أن السلام يمكن تحقيقه وأن أغلبية الاسرائيليين يرحبون الآن أو فى المستقبل بالموافقة على شروط للتوصل الى اتفاق يمكن أن يقبله أغلب جيرانهم العرب .

وبالرغم من أن غالبية الزعماء فى الاحزاب السياسية الرئيسية فى اسرائيل مقتنعون بأن استمرار التواجد الاسرائيلى يجب أن يبقى فى الضفة الغربية ، فان الكثير منهم يعتقدون أن اسرائيل ستستفيد اذا أمكن حل القضية الفلسطينية دون استمرار خضوع ١٫٤ مليون من غير اليهود للحاكم العسكرى . ومن بين العرب الذين يعيشون فى اسرائيل ذاتها ، فان أكثر من نصف الفلسطينيين فى العالم يعيشون تحت سيطرة اسرائيل ، وربما نصف مليون عربى من غير الفلسطينيين يعيشون تحت السيطرة الاسرائيلية فى جنوب لبنان .

ويسهم الاحتلال الاسرائيلى لجنوب لبنان فى ايجاد المزيد من الانقسامات السياسية فى اسرائيل . فقد أعلن العديد من الزعماء الاسرائيليين

فى مناقشات سياسية دارت مؤخرا ، ان غزو لبنان عام ١٩٨٢ واحتلال اراضيها ، يعتبر نكبة سياسية ، وان استمرار المواجهات العسكرية والتركيز على الانشغال بالاراضى المحتلة ، يعتبر امرا غير مجد امام السعى لتحقيق الاستقرار الاقليمى والسلام الدائم . وأرجعوا فقدهم للتأييد عبر البحار ، وزيادة هجرة اليهود من اسرائيل ، الى ابتعاد حكومتهم عن المثالية التى كان ينتهجها الزعماء السابقون ، والى النكبات الاقتصادية والى استخدام القوة ضد لبنان بدون وجه حق أو بسبب الثار . وقد ادت هذه الاصوات الى تحقيق درجة من الاعتدال داخل كل من الحزبين الرئيسيين فى انتخابات عام ١٩٨٤ ، بما فى ذلك التعهد بالانسحاب الاسرائيلى المسلح من لبنان فى أقرب فرصة ممكنة .وبصرف النظر عما تم اتخاذه من قرار بالنسبة للبنان فان الموضوع الرئيسى الذى لا يزال يناقش فى اسرائيل هو ما الذى يمكن عمله بشأن الضفة الغربية وغزة وسكان هذه المناطق . ولا يبدو اى من هذه الخيارات ب اقا لاسرائيل :

● الانسحاب كما جاء فى قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ وكما اشير اليه فى اتفاقيات كامب دبفيد ، بما فى ذلك حق الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم ، ولو على الاقل أن تكون لهم السيادة المطلقة فى الاراضى التى سوف ترتبط مع الاردن فى صورة من صور الاتحاد الكونفدرالى . وهذا التصرف كان محل معارضة شديدة من جانب مناحم بيجين واتباعه ، وكان من المشكوك فيه أن بحظى هذا القرار بتأييد سياسى فى اسرائيل بدون قيادة قوية فعالة .

● الضم القسرى للمنطقة وضمها رسميا الى اسرائيل ، الامر الذى يمكن أن يعطى عددا كبيرا من المواطنين غير اليهود الحق فى التصويت ومساواتهم أمام القانون باليهود . وأى تصرف رسمى يضم الاراضى المحتلة يعتبر خرقا مباشرا لاتفاقيات كامب ديفيد ، التى يعتبر المصريون أن معاهدة السلام ترتكز عليها . وفى نفس الوقت سيؤدى ذلك الى اقامة مجتمعين أو مجتمع ثنائى مع وجود مليونين من الفلسطينيين الذين يشكلون ٤٠ فى المائة من عدد السكان ومن المتوقع ان تزداد نسبتهم الى ٥٠ فى المائة بنهاية هذا القرن سواء منحوا أو لم يمنحوا الحقوق الاساسية للمواطن . وفى كلتا الحالتين فان اسرائيل من المحتمل أن تزداد عزلتها فى المستقبل ، وتدان من جانب المجتمع الدولى مع عدم وجود فرصة أخيرة لأنهاء العداء مع اى جزء له اهميته فى العالم العربى .

● استمرار الاحتلال العسكرى للاراضى الفلسطينية مع امكانية ضم هذه الاراضى رسميا بعد خفض عدد العرب تدريجيا عن طريق الهجرة . ومع الضم الشرعى او بدونه فان الفلسطينيين لن يتمتعوا بالحقوق الكاملة

للمواطن ، ويعتقد الكثيرون أن هذه هى السياسة الرئيسية التى اتبعتها حكومة الليكود . ومعارضة هذه الفكرة فى اسرائيل ترتبط بالمفهـــوم العنصرى الذى يقضى بوضع الفلسطينيين فى مرتبة المواطنين من الدرجة الثانية .

صورة من السيادة المشـــــتركة ربما مع الاردن أو تقسيم الاراضى الى مجتمعات صغيرة مع منح جميع من يعيشـون فى كل منطقة حقوقا متســـــاوية ، وهذا يمكن أن يؤدى اما الى منح الفلسطينيين استقلالهم أو اعطـــاء ســـلطة متســـاوية للعرب واليهود فى مواقع صــــــغيرة موزعة داخل الاراضى المحتلة . وعموما فان الادارة ستكون فى غاية من الصعوبة ولكنها ليست مستحيلة اذا قرر الاسرائيليون والاردنيون والفلسطينيون أن يتعاونوا فيما بينهم .

وأكثر الخيارات جاذبية ـــ ويمكن أن يكون مقبـــولا فيما بعد كأساس للسلام ـــ هو الخيـــار الاول ومنح الفلسطينيين السيادة الحقيقية وحق تقرير المصـــير على أن يتم نزع سلاح المنطقة ، وأن تكون هناك ضمانات كافية لعـــدم تعريض امن كل من اسرائيل والاردن للخطر . كما أن وجود نوع من المشاركة بين هذا « الوطن » الفلسطينى والاردن يمكن أن يكون أمرا مفضـــلا وربما ضروريا . وهذه المبادىء الرئيسية لاتفاقيات كامب ديفيد كما فسرتها كل من الولايات المتحدة والمصريين وعدد كبير من الاسرائيليين ، تعتبر أفضـــل أساس لاحداث مزيد من التقدم .

لقد تعهد تحالف حزب العمل خلال حملة انتخابات عام ١٩٨٤ بقلب بعض السياسات التى ينتهجها الليكود رأسا على عقب بهـــدف احيـــاء عملية السلام ، بيد أن فشله فى كسب نصر حاسم قد أدى الى تشكيل حكومة الوحدة الوطنيـــة فى شهر سبتمبر حيث لا يزال الليكود يلعب فى الغالب دورا مساويا .

وفى ظل مثل هذه الظروف كان من المحتمل أن تكون قوة بعض الزعمـــاء الأكثر تطرفا كبيرة للغاية ، وأن أى تصرف من جانب الحكومة فى المســـــائل الدولية سيصبح صعبا أو مستحيلا . ومع ذلك فهناك علامة تبشر بالخير تكمن فى الاتفاق بين الحزبين على عدم تغيير الوضع فى الضفة الغربية وغزة عـــلى الاقل خلال الفترة الحالية .

وكان الاتجاه العام للآراء المتداولة فى اسرائيل يدور حول تحقيق السلام والعدل والرفاهية ، ومن بين الجماعات المشتركة فى هذه المناقشات الداخلية هى حركة « السلام الآن » وهى جماعة شكلت أثناء مفاوضات كامب ديفيد . وخلال الزيارة التى قمت بهـــا مؤخرا لاسرائيل وجهت الدعـــوة الى زعمـــاء هذه الحركة لمقابلتى لشرح مضمون معتقداتهم . واعلنوا أنهم نظموا اضرابات ضخمة ضد الغزو الاسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ ، وقالوا ان بعض أعضـــاء الحركة النشيطين من ضباط وأفراد يعملون فى قوات الدفـــاع الاسرائيلية ،

واخبرونى أنهم يؤيدون عملية كامب ديفيد باعتبارها أفضل طريق الى السلام بشرط احترام سمتها كترتيب مؤقت ، وانهم يؤمنـــون بضرورة دعـــوة ممثلى الفلسطينيين الى مائدة المفاوضات على أساس معاملتهم معاملة متساوية مـــع اعضاء المجموعات الوطنية . وهم لا يعتزمون تشكيل حزب سياسى منفصل ولكنهم يساندون أى مرشحين يمثلون ــ الى حد ما ــ وجهات نظرهم .

وانى لعلى يقين من أن هناك خلافات هامة بين مؤيدى هذه الحركة ، ولكن زعماءها يؤمنون بسياسة اسرائيلية تعمل على الاحتفـــاظ بقـــدرات عسكرية قوية وعلاقات حميمة مع الولايات المتحدة ، والانسحاب الجــزئى من الاراضى المحتلة مع نزع سلاحها ، وحقوق متساوية لجميع سكان اسرائيل ، ورفض سيطرة اسرائيل على شعوب اخرى ــ ووقف جميع الانشـــطة الخاصة باقامة مستوطنات ، ووجود وطنـــى فلسطينى يتلاءم مع أمن اسرائيـــــل ، واجـــراء مفاوضات سلام مع جميع الاطراف المعنية بـــدون شروط مسبقة معوقة . وصرح أحدهم بقوله : انى أخشى أن نكون متجهين نحـــو اقامـــة حكومة مثل حكومة جنوب افريقيـــا يوجد فيهـــا مجتمع مزدوج من اليهـــود الحاكمين والعرب المحكومين مع منحهم حقوق قليلـــة كمواطنين . ان الضـــفة الغربية لا تستحق ذلك الجهد أو العناء » .

وعلى الرغم من أن العديد من هذه الآراء الفردية تحظى بالقبـــول على نطـــاق واسع ــ فان وجهـــات نظر حـــركة « الســـلام الآن » فى مجملهـــا تعتبر آراء « حمائميـــة » للغـــاية بالنســـبة لاغلـــب القـــادة السياسيين الاسرائيليين . وعندما سألت مؤخـــرا بعض القادة الاكثر ليبرالية فى تحالف حـــزب العمل ، بدوا الى حـــد ما رافضين لاى علاقة عامة مـــع حـــركة « الســـلام الآن » ولكنهم قالوا ان هذه الجماعة لها تأثير على وســـائل الاعـــلام وعلى الرأى العـــام .

وفى ربيع عـــام ١٩٨٣ بعـــد عامين من تركى منصبى العـــام رجعت انا وروزالين الى اسرائيل وقمنا فى القـــدس بالزيـــارة الثالثـــة لنصـــــب « يادفاشم (١) » واشتركنا بشكل بسيط فى تكريم اليهود الذين كانوا ضحايا الابـــادة . ومنذ دخولنا ومغادرتنا الاحتفال ، سمعنا العـــديد من عبـــارات السرور والامتنان ــ لان الزيارات المتبـــادلة بين الرئيس الســـادات ورئيس الوزراء بيجين ــ والمفاوضات التى دارت فى كامب ديفيد حققت السلام مع مصـــر .

وبعد دقائق قليلة كنت فى طريقى الى مكتب رئيس الوزراء بيجين فى مبنى البرلمان الاسرائيلى . وكان قد مر أربع ســـنوات بالضبط منذ وجهت دعوتى

(١) المراجع : نصب ضحايا النـــازية .

السابقة لتذليل العقبات الباقية من أجل تحقيق اتفاقية السلام . وكنت وضع ترحيب مهذب وان كان فاترا من الناحية الرسمية ولم يكن سرا اننا كنا مختلفين بشكل كبير سرا وعلنا بشأن تفسير اتفاقيات كامب ديفيد وسياسة الاستيطان فى الضفة الغربية وغزة وكذلك غزوه الاخير لبنان .

وحتى خلال الايام التى عملنا فيها سويا بنجاح كبير ، نقد اختلفنا بشأن كيفية ايجاد حل أفضل للنزاعات فى الشرق الاوسط .

وعلى الرغم من أن دولتينا تشتركان فى العديد من المعتقدات والاهداف السياسية النهائية ، فقد كنا أحيانا نختلف على مائدة المفاوضات عندما كنا نحاول بحث حساسيات العلاقات العربية الاسرائيلية استنادا على أسس رسمية . ولسوء الحظ فقد كان هذا يؤدى أيضا الى حدوث بعض الخلافات الخاصة بيننا .

والآن — فى مارس ١٩٨٣ — التقينا مرة اخرى وكعادتى قمت بعرض افكارى بصراحة تامة حول أكثر الموضوعات جدلا ، بعد أن تبادلنا بعض الدعابات ، وقد هنأته أولا على تصرفه الشجاع عندما راعى الشروط الصعبة فى اتفاقية السلام والخاصة بانسحاب القوات الاسرائيلية والتخلى عن المستوطنات فى سيناء المصرية .

واثناء جلوسه معى دون أن يتطلع الى ، شرحت له مرة اخرى لماذا اعتقدنا انه لم يحترم الالتزام الذى أعد اثناء مفاوضات السلام بشأن ايقاف بناء مستوطنات اسرائيلية فى الضفة الغربية . ووصفت مدى خيبة أملى لانه لم يرحب بأن يضمن للفلسطينيين اى درجة معقولة من الحكم الذاتى فى الاراضى المحتلة ، والححت عليه أن يعلن صراحة للمصريين والاردنيين أن اسرائيل سوف تراعى العناصر الرئيسية التى تتضمنها قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ . وتوقفت متوقعا منه أن يقدم شرحه المفصل والمعتاد لسياسة اسرائيل ، ولكنه أجاب بعدة كلمات مقتضبة روتينية بشكل مثير للدهشة ؛ وذلك اما لاننى عملت على اثارته بشكل أكثر من المعتاد — أو بسبب انه كان يرغب فى الاحتفاظ بحججه للرسميين الامريكيين ، أو لانه كان مشغولا بشىء آخر أو بمسائل سياسية أخرى . ولكن ربما كان السبب — على اكثر الاحتمالات — يرجع الى الاسباب الثلاثة السابقة مجتمعة .

كنا نجلس فى حجرة صغيرة قليلة الزخرفة فى الطابق الاول من مبنى الكنيست . وكان الحديث فاترا وعلى فترات متباعدة وغير مثمر . وعندما غادرت المكان لاحظت أن الحجرة التالية كانت فسيحة ومتلألئة وجذابة وخالية ، وكان الشىء المثير للسخرية هو أن الرقم الذى كان مكتوبا على الباب هو ٢٤٢ .

ان اسرائيل عام ١٩٨٣ تختلف عن اسرائيل التى عرفناها لاول مرة منذ عشرة أعوام — فقد تفتت روح الاجماع بين المواطنين اليهود والثقة المتزايدة التى خلفتها هستيريا حرب ١٩٧٣ . وبالرغم من انتصارهم العسكرى المثير فى لبنان ، فان العديد من الاسرائيليين كانوا قلقين للغاية لان هذا النصر تم تحويله الى رماد . لقد كان التفوق العسكرى ضروريا من أجل الدفاع عن الوطن — ولكن لم يكن ملائما لاسرائيل أن نفرض ارادتها على جيرانها . وكانت المناقشات الخاصة بالسياسة الداخلية اكثر من لاذعة ، ولم تكن واضحة المعالم الاساسية لشكل الحكومة التى يفضلها أفراد الشعب .

لقد شوهد الرجال بزيهم الرسمى فى كل مكان ، وكان التوتر بين النوعيات المختلفة من الناس واضحا . وتلاشى تدفق الزوار العرب القادمين من الاردن . وقل عدد الزوار المصريين بالرغم من اتفاقية السلام التى أدت الى فتح الحدود وحرية التجارة بين البلدين . وحتى بين أكثر الاشخاص تفاؤلا فقد كان يبدو ان هناك أملا ضئيلا فى التوصل الى اى اتفاق دائم يمكن أن يحقق السلام والاستقرار .

وعلى أحسن الاحوال فقد كان الذين لديهم رغبة شديدة فى اسرائيل فى انهاء الاحتلال العسكرى وضمان الحقوق الاساسية للمواطنين الفلسطينيين ، واحترام قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ واتفاقيات كامب ديفيد ، وبدء المفاوضات بدون شروط غير مقبولة ، يتعرضون لموقف صعب لعدم حصولهم على اشارات مشجعة من الزعماء فى المعسكر العربى — الفلسطينى . فقد أدى تدخل السوريين فى عام ١٩٨٤ ، والمعاهدة المكلفة الى حد ما ، مع مصر ، التى أسفرت عن « سلام بارد » يشوبه الحقد والضغينة ، الى ابطال مفعول ما تمخضت عنه المفاوضات مع لبنان عام ١٩٨٣ . واستمرت سوريا ترفض فكرة اجراء محادثات مع اسرائيل الااذا تم ذلك من خلال مؤتمر دولى تتبناه الامم المتحدة مباشرة بمشاركة السوفييت . وأعرب الملك حسين فى عام ١٩٨٣ عن عدم رغبته فى الاشتراك فى محادثات السلام بعد رفض اسرائيل لاقتراح ريجان (ملحق ٥) طالما استمرت المراوغة بشأن الحصول على موافقة كل من منظمة التحرير الفلسطينية والمملكة العربية السعودية .

وأعرب بعض الزعماء فى اسرائيل عن قلقهم بشأن السياسة الامريكية فى الشرق الاوسط التى اتسمت ، خلال السنوات الاخيرة ، بالعديد من التخبط الظاهرى ، غير المنطقى مع عجز ملحوظ فى ايجاد حل ناجح لاكثر الموضوعات السياسية حساسية والتى يجب مواجهتها قبل اتخاذ الخطوة التالية نحو السلام . والحقيقة أن الاسرائيليين مع بعض التحفظ كان لديهم شك متزايد تجاه سياسات كل الحكومات الاجنبية ، وقرروا الا تكون لديهم ثقة بالغة مرة أخرى . ومهما كان تقدم التفوق العسكرى الاسرائيلى موثوقا به ، فانه يذكر ، حتى دعاة السلام من الحمائم ، بالايام التى تلت حرب الايام الستة عام ١٩٦٧

عندما أدى الشعور بالقوة العسكرية التى لا تقهـر ، الى المفاجاة الحـرجة لهجوم أكتوبر عام ١٩٧٣ .

ويدرك زعماء امريكا هذه الحقائق — ولكن هناك قلق متزايد لاحتمال تحول الخلافات بين الدولتين فى المستقبل القريب الى خلافات أكثر حدة عمـا كانت عليه فى الماضى ، وهناك بالفعل شواهد مزعجة تتعلق بهذا التباين المتزايد خاصة حول حلول المشاكل الاقتصادية الاسرائيلية الحادة .

واذا تحدثنا عن تحالف الليكود مثلا فقد اعرب اسحاق شامير رئيس الوزراء السابق ووزير الخارجية الآن عن اقتناعه بأن جذور معظم الصراعات فى الشرق الاوسط لم تستطع أن تفعل شيئا باسرائيل ، وان ايجاد حل للصراع العربى — الاسرائيلى لا يبـدو أنه سـيؤدى الى تحقيق استقرار فى المنطقة الى فتح عهد جديد من التقدم . وقلل من أهمية المشكلة الفلسطينية ، واعتبر ان اليهود يمثلون الأغلبية الطبيعية الحاكمة لفلسطين الغربية (التى تضم اسرائيل والضفة الغربية وغزة)،مع حقهم والتزامهم بالعمل على جلب المزيد من المستوطنين الى المنطقه ، على ان يكون وطن العرب الفلسطينيين فى فلسطين الغربية التى تضم مملكة الاردن . وصرح بأنه طالما أن اسرائيل لن تتخلى عن أى جـزء من الضفة الغربية على الاطلاق فان حدود اسرائيل لم تعد تهتم بالبحث عن سلام اقليمى . وأغلب هذه الآراء تتعارض مع آراء قادة أمريكا .

ولكن بعض الاسرائيليين الآخرين من ذوى النفوذ الكبير قد ذهبوا الى ابعد من ذلك ، فهم يرون أن تمتد الحدود الاسرائيلية النهائية بحيث تشمل أجزاء هامة من لبنان ومن الضفة الشرقية لنهر الأردن ، وأن تبذل محاولات مستميتة لطرد أعداد كبيرة من غير اليهود من الأراضى المحتلة — بل ان ايريل شارون وزير الدفاع السابق والذى يلعب حاليا دورا هاما فى وزارة الوحدة الوطنية قد طالب بخلع الملك حسين لصالح اقامة نظام فلسطينى فى الأردن حتى ولو كان يراسه ياسر عرفات .

ففى اغسطس عام ١٩٨٤ قال شارون : « ان الضفة الشرقية للاردن هى ملكنا ولكنها ليست فى ايدينا شأنها شأن القدس الشرقية حتى قيام حرب الأيام الستة » . وحتى حـكومة الوحدة الوطنية التى يراسها رئيس وزراء معتدل ، فان هذه المعتقدات والتعهدات ستصبح عوامل قوية فى رسم السياسة الاسرائيلية لأن حدوث أى ارتداد ولو قليل من جانب قادة المعارضة قد يؤدى الى سقوط الحكومة .

وعلى الرغم من انهم طالبوا بأن تتم اية محادثات للسلام فى اطار كامب ديفيد فقط فان شامير وأغلب أعضاء الليكود لم يوافقوا على الاطلاق على تنازلات قدمها بيجين خلال مفاوضاته الشاقة التى أجراها مع الرئيس السادات .

وقد التزمت كل من مصر واسرائيل بشروط معاهدة السلام فيما يختص بسيناء — ولكن بعد فترة من الزمن تم التخلى عن المفهودم الأصلى للاتفاقيات والخاص بالأراضى المحتلة الأخرى أو تم تعديله فى أسسه وجوهره .

وفى نفس الوقت فان البرنامج العاجل الخاص بالاستيلاء على الأراضى الفلسطينية وزيادة المستوطنات الاسرائيلية فى الضفة الغربية ، قد فسر بشكل عام سواء داخل اسرائيل أو خارجها على أساس أنه دليل على أن هذه المناطق قد تم استيعابها بأقصى سرعة ممكنة طبقا لتعهد الليكود الدائم بأن « أرض اسرائيل الغربية لن تقسم مرة أخرى » . وكما قال ابا ايبان وزير الخارجية السابق بعد كل هذه المواقف : « من سوء الحظ أنه أصبح من الواضح أن سياسة الحكومة الاسرائيلية تعتبر بعيدة جدا عن مفهوم كامب ديفيد لدرجة انه عندما يستشهد المتحدثون باسم الليكود عن الاتفاقية فانهم يكونون شديدى الشبه بكازانوفا عندما يستشهد بالوصايا السبع » .

ومن المعروف جيدا ان هنـاك بعض الخـلافات الجوهرية بين زعمـاء بلدينا — ربما لا يمكن تجنبها فى الحقيقة — وأن معظم هذه الخلافات لم تظهر عام ١٩٧٧ عندما تولى بيجين وأنا منصبينا أن من أبسط الحقائق أن عـلاقة بلدى باسرائيل تتسم بأنها أكثر العلاقات بقاء وتعقيدا ومخيبة للآمال وتحديا وأقل تفهما . ومثل معظم الأمريكيين فقد كنت أفهم وأشارك الولايات المتحدة فى التزامها العميق والدائم ازاء وجود أمن وسلام هذه الديمقراطية الصغيرة والمحاصرة . ان تخصيص الحكومة الامريكية لأكثر من سبعة ملايين دولار يوميا للاسرائيليين كمعونات اقتصادية وعسكرية وأن مثل هذا المستوى من المعونة المالية نادرا ما يناقش بصورة جدية عند اعداد الميزانية السنوية فى واشنطن ، قد أدى الى اثارة مشاعر الخوف والادانه بين الزعماء العرب بل وبين بعض الدول الاوروبية . وليس من السهل شرح أسباب الابقاء على هذا الالتزام الثابت لغير الأمريكيين .

ولا يوجد مجال للشك فى ان واحدة من اقوى القوى السياسية فى أمريكا تتمثل فى الجهود المركزة والمنظمة تنظيما جيدا التى يبذلها مواطنون متحمسـون سياسـيا يعتبر تأييدهم الثابت للسياسات الحالية التى تمارسـها الحـكومة الاسرائيلية ، مهما كانت ، مؤكدا أكثر بكثير من تأييد أى جماعة داخل اسرائيل ذاتهـا .

وعلى اية حال فهذا جانب واحد من الصورة . فهناك تأييد واسع لاسرائيل بين ملايين المواطنين فى الولايات المتحدة من غير اليهود الذين لا علاقة لهم بأية جماعة من جماعات اللوبى ، فالأمريكيون يرفضون التصرفات الارهابية التى تنتشر على نطاق واسع ضد المدنيين الأبرياء ، فلا تزال ذكريات الابادة حية ، وهناك

تعاطف واحساس ببعض الذنب بسبب صمت واشنطن المشكوك فيه اثناء الابادة الهتلرية لليهود الأوروبيين . فكل الطوائف المسيحية تشعر بالتقارب مع اسرائيل بسبب روابطنا الدينية وتداعات اسرائيل ـــ الدولة الصغيرة المضطهدة ـــ التى تلقى تعاطفنا واستجابة لدى أغلب الامريكيين . وتسمع الاصوات المنتقدة من اسرائيل عادة من اخبار من أخبار الاداعات التى غالبا ما تقدمها بتحفظ شديد . ولكن ـــ باستثناء انور السادات ـــ فان أى زعيم عربى لم يستطع ان يكون مؤثرا فى تقديم وجهات نظر شعبه للرأى العام الامريكى ، والمواطنون الذين يعيشون فى قلب الولايات المتحـــده يشـــعرون بالرضا لان الالتزامات الدينيه والاخلاقيه والسياسيه والاستراتيجيه المشتركه للدولتين متوطدة بشكل كامل ووثيق .

وفى نفس الوقت يعلم المسئولون الحكوميون فى واشنطن أن تأثيرهم على سياسات اسرائيل فى اوقات الأزمات طفيف الى حد الاحراج فى بعض الأحيان . ويبدو فى أغلب الاحيان أن الزعماء الاسرائيليين يحصلون على شعبيه سياسيه فى الداخل عندما ينظرون بازدراء الى القوة العظمى ويلوون انفها . فأى انتقاد على لسياسة رئيس الوزراء بيجين من جانب البيت الأبيض او وزارة الخارجية الامريكية كان يؤدى عادة الى الاعلان عن اقامة مستوطنات جديدة فى الضـــفة الغربية وربما يؤدى الى نقل مكتب حكومى اسرائيلى آخر الى القدس الشرقيه .

وبالرغم من هذه الروابط الطبيعية التى تربط بين الديمقراطيين فان الحقيقه نؤكد أنه ، حتى تحت أفضل التفسيرات ، فان مصالح الولايات المتحدة واسرائيل ليست متطابقة كلية . ولم يقم القادة السياسيون فى كلتا الدولتين بتقسيم سبب هذا الخلاف علنا ، أو الاشاره اليه فى خطبهم بشكل محدد . فمنذ تأسيس دولة اسرائيل والرؤساء الامريكيون يسعون الى تحقيق أهداف عريضـــة ـــ نوعـــا ـــ فى الشرق الأوسط دون الاعتراف بأن هناك تعارضا واضحا بين هذه الاهداف أو دون الاختيار فيما بينها .

وفيما يلى بعض أهم هذه الأهداف :

- منع نشوب أى حرب بين العرب واسرائيل قد تؤدى الى مواجهـــة بين الدولتين العظميين .
- حماية وجود وأمن اسرائيل .
- تشجيع احتمالات السلام الدائم باعتبار أن الولايات المتحدة وســـيط موثوق به وخاصة بين اسرائيل وجيرانها ، على أن يقوم هذا السلام على أساس انســـحاب اسرائيـــل من الأراضى المحتـــلة وحل القضية الفلسطينية حلا عادلا بما فى ذلك منح الفلسطينيين حق تقرير مصيرهم .
- المساهمة فى التقدم السياسى والاقتصادى والاجتماعى وتعزيز الحقوق الانسانية لجميع شعوب المنطقة .

- الاحتفاظ بعلاقات طيبة ذات مصالح متبادلة مع المعتدلين العرب .
- ضمان التدفق المستمر للبترول الى الديمقراطيات الغربية .
- منع السباق الخطير فى التسلح وخاصة الأسلحة النووية .
- الحد من النفوذ السوفيتى فى الدول العربية ومنع سيطرة السوفيت على اى جزء فى المنطقة .

وقد تعرضت بعض هذه الاهداف الامريكية للخطر بسبب السياسة الاسرائيلية كما صاغتها حكومة الليكود ، والتى يبدو انها استمرت بسبب الشلل السياسى الذى اصاب الوحدة الوطنية الجديدة . فالمسائل الخاصة بالانسحاب من الاراضي المحتلة وحقوق الفلسطينيين كما وردت فى قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ والذى اتى كاتب د فقد اصبحت لديها حاليا ردود مختلفة تماما فى كل من واشنطن والقدس . واعاقة مثل هذه الخيارات من جانب اسرائيل سيؤثر مباشرة على مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط . ففى اوقات الخطر أو الأزمات الشديدة ساعدت المقترحات الامريكية تجاه السلام فى الماضى على تجنب التوتر والتقليل من احتمالات انفجار الأوضاع ، كما سمحت للولايات المتحدة بأن تتجنب التورط العسكرى المباشر . ولكن حتى هذه الفرص القليلة زادت تقلصا .

وخلال السنوات الاخيرة كان هناك العديد من الجهود المتوازية من اجل تحقيق السلام ، وتتركز جميعها على استعداد اسرائيل لمبادلة الاراضى مقابل السلام . وهذا التعهد قد تم تأكيده رسميا من جانب اسرائيل فى اتفاقيات كامب ديفيد . ومع ذلك فان التصريح الذى ادلى به الرئيس ريجان بشأن هذا الموضوع فى سبتمبر عام ١٩٨٢ قوبل بالرفض فورا من جانب بيجين الذى قام بعد ذلك بالاعلان عن مخططات جديدة تستهدف توسيع نطاق السيطرة الاسرائيلية على الاراضى . وقد تنازلت الولايات المتحدة فى ذلك الوقت عن الخوض فى هذه المواضيع ، انتهت الى الرأى العام الى امكانية استعداد الملك حسين لقبول ترشيح الرئيس الامريكى والذى سبق وان رفضه كأساس للتفاوض .

وفى عهد حكومة الوحدة الوطنية كان هنـاك خلاف فى الرأى من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل حله . فقد ادان رئيس الوزراء بيريز وانصاره رفض تصريح ريجان كأساس للمفاوضات ولكنهم اوضحوا انهم لا يوافقون على كل عناصره . ويعتبـر الليكود اكثر تشددا فى معارضته بالمقارنة بحزب العمـل فى تأييده لهذا التصريح . وهذا الخلاف اسفر عن نتائج خطيرة .

ويشعر العـدد من الاسرائيليين بالقلق تجاه اخـذ النخبة الغربية فى الاعتبار ان يكون هناك اى احتمال لاجراء مفاوضات سـلام ، وانه من المحتمل الغاء معاهدة السـلام المصرية الاسرائيلية ، والتزامهم امـام جيـل جديـد

بالصراع مع جيرانهم العرب الذين سيعارضون مرة اخرى وجود اسرائيـــل . وكل هـــذا يشـــكل مصالح استراتيجية هامة بالنسبة للولايات المتحـــدة التى لن تذهب خلافاتها الواضحة والمحددة مع اسرائيل ادراج الرياح .

ولـــم يكن واضحا تماما كيف ستتصرف الولايـــات المتحـــدة اذا واجهت الاختيار الصعب للغاية وهـــو اما الاستمرار أو عـــدم الاستمرار فى مساندة وتمويل السياسات الاسرائيليـــة التى تتعارض مـــع الأهـــداف الأمريكية فى المنطقة . وأصبح الوضـــع يشوبه الغموض أو الحيرة وتعرض رد فعل أمريكى واضح للانحراف بسبب الأزمة اللبنانيـــة ثـــم بسبب الانتخابات الوطنية فى كل من اسرائيل والولايات المتحدة ، ولكن لـــم يكن ممكنا تجاهل هـــذه الحقائق لفترة اطول من ذلك . وحتى يمكن تجنب أيـــة عزلة لاحقـــة لاسرائيل داخل المجتمع الدولى كان لابد ان يكون هنـــاك تفاهم واضح مـــع واشنطن حول الأهـــداف المتبادلة ومجالات أخرى للاتفاق حيث يمكن الاعتراف بمصالح كل من الدولتين واحترامها .

وشكى لى بعض القادة الاسرائيليين من أن الامريكيين مهتمين للغاية بمسألة التفاوض والبحث غـــير المجدى لتحقيق اتفـــاق بين الذين ورثوا خلافات لايمكن التوفيق بينهـــا . والشىء الذى يفضلونه هـــو تقديم مساعدات مالية غـــير مشروطة وتأييد سياسى بدون ضغط دبلوماسى دائـــم من جانب واشنطن الآمـــر الذى ادى فى المـــاضى الى خلافات سابقة بين اسرائيل والولايات المتحـــدة . وكانت اجابتى دائما تتلخص فى أن اتفاقيات السلام تعتبر أفضل لبلادنا وأن التأييد المستمر لاسرائيل يجب أن يتوقف الى الى حـــد ما على مدى الجهد المخلص الذى يبـــذله الاسرائيليون للعيش فى انسجام مـــع جيرانهم العرب ، والتفاوض من أجـــل الســـلام بما يتفق مع التعهدات القائمة ، واحترام الحقوق الانسانية لكل الذين يخضعون لحكمهم .

فلا يزال هنـــاك المتســـع من الوقت من اجل تحقيق التقدم بالرغم مـــن أن البعض يعتقد أن مصـــير الضفة الغربية وغـــزة قد سبق أن تقرر وأنـــه لا جدوى من مناقشة هـــذا الموضوع مرة أخرى ، ويبقى أن تبرهن احـــدى الحكومات الاسرائيلية كيف يمكن تحقيق تعايش سلمى عادل بين الفلسطينيين واليهود . ولذلك لا يتعلم أحـــد من واقـــع التجربة النتائج المحتملة لمثـــل هذا الجهـــد .

وبدون تطهير المنطقـــة من العرب المسيحيين والمسلمين فانه من المستحيل تصور أن يكون للاسرائيليين الذين يعيشون فى الضفة الغربية وغـــزة الاغلبية ، وقـــد أدت القيود التى فرضت على الميزانيـــة فى عام ١٩٨٣ ، الى تقليل جهود

الليكود الرامية الى تعمير المناطق باليهود حيث يوجد فيها مالا يقل عن ۳۰٫۰۰۰ يهودى يشكلون فقط ۲٪ من عدد السكان . بيد انه حتى اذا استمرت المعدلات المرتفعة لانشاء المساكن فان معدلات زيادة المواليد السريعة بين العرب الفلسطينيين واصرارهم على عدم مغادرتهم المنطقة سوف تؤدى الى تغيير طفيف فى معدلات السكان بين اليهود وغير اليهود خلال نهاية هذا القرن . وفى القدس فان معدل زيادة العرب حاليا يعتبر اعلى من معدل زيادة اليهود ، وبوجه عام فان السكان الفلسطينيين يعتزمون تحقيق زيادة سريعة فى نفس المجتمعات التى تعيش فيها مستوطنات متقدمة للغاية ، وانه من المحتمل ، مع بقاء المعارضة الفلسطينية المثابرة فى المناطق المحتلة ، ان تستمر المستوطنات اليهودية فى الزيادة بشكل بطىء على احسن الأحوال وربما باستثناء ضواحى القدس الجديدة .

وقد اعد ميرون بينفينستى وهو نائب عمدة سابق للقدس دراسة محددة للسكان والأراضى والتغيرات الاقليمية والمشروعة فى المناطق المحتلة ، ويعتقد أن مسألة تولى الليكود السلطة من غير المحتمل أن تأخذ صورة عكسية وأن مسألة التقسيم ستكون مسألة فوضوية ، واختتم قائلا : « والآن ، ولمواجهة احتمال السيطرة على اكثر من مليون عربى ، ان يكون لهم حقوق ديمقراطية كاملة ، فانه يجب على الجانبين أن يقدما اجابات واقعية لسؤال آخر مختلف يتلخص فى : هل يجب ان تكون اسرائيل دولة يهودية أو دولة ديمقراطية ؟ » وهذا النوع من الأسئلة ليس من السهل الاجابة عليه .

وكان يأمل العديد من الناس فى ان تأتى انتخابات عام ١٩٨٤ ببعض الاجابات الواضحة وبتغير كبير فى سياسة اسرائيل ولكن النتائج غير المحددة أدت الى أسابيع من التفاوض ، وضعفت الحكومة الجديدة التى تشكلت من الحزبين الكبيرين ، اللذين طلبا أن يكون لكل منهما نصيب متساو فى السلطة فى نهاية المطاف واقر القادة من الحزبين عملية انسحاب القوات الاسرائيلية من جنوب لبنان — عندما تكون الحدود الشمالية الاسرائيلية فى مأمن من الهجمات القادمة من الشمال — ومع كل ذلك فان مستقبل الضفة الغربية وغزة تم وضعه فى المرتبة الدنيا من حيث الأسبقيات فى جدول أعمال الحكومة المهجنة .

وحتى مع القادة الجدد فان الاسرائيليين ما زالوا يسرون أن وضعهم المالى يتدهور وأن دولتهم أجبرت على التخلى عن هدفها فى تحقيق الاكتفاء الذاتى عندما أصبحت معتمدة أكثر على معونات الولايات المتحدة من أجل البقاء الاقتصادى . ولم يكن هذا القلق بشأن الاعتماد على الولايات المتحدة يساور الجميع ، وعلى أية حال فان الاسرائيليين كما كتب ناشر الصحيفة الاسرائيلية الرئيسية « ها آرتس » فى صيف عام ١٩٨٤ يقول : « يميلون الى

اعتبار معونة أمريكا الاقتصادية والتى ازدادت بشــكل كبــير خــلال العشر سنوات الاخــيرة ، بمثابة جزء من ثروتهم الطبيعية والاعتماد على المعونات الخارجية ليس أمرا مثيرا للشــك . والواقع ان ساسة الليكود صرحوا مرارا بأن المعونات الامريكية ليست كبيرة بدرجة كافية فى مقابل الفوائد الضــخمة التى تعود على المصالح الامريكية الناجمة عــن وجود اسرائيل ووظيفتها التى تؤديها لها . وطالمــا أنــه لا توجد ضرورة ملحة لتحقيق تغــير أســاسى فى السياسة الاقتصادية فان التغــير الاساسى ليس من المحتمل أن يحدث » .

ومع قدوم عام ١٩٨٤ اصبح من الواضح بشكل كبير أن الحاجة الماسة للمعونة الامريكية أمر قائم بالفعل ، وكان الخوف الذى يساور بعض الاقتصاديين الاسرائيليين الصرحاء يكمن فى وجوب أن تكون معونات الولايات المتحدة سخية للغايــة ، وكانوا يخشون من احتمال قيام الزعماء الاسرائيليين مــرة أخــرى بتأجيل القرارات الصــعبة اللازمة للسيطرة على التصاعد السنوى لمعدل التضخم الذى وصل الى اكثر من ٥٠٠ فى المــائة ، الأمر الذى يعتــبر استنزافا خطــيرا للاحتياطات المــالية الوطنيــة ، كما يمثل أعلى دين أجنبى للفرد فى العــالم . ولأول مرة فى تاريخها تصــبح اسرائيل أكثر قلقا ازاء الازمة الاقتصادية مــن التهديد العســكرى .

ولكن الضغوط الاقتصادية ليست منفصــلة عن البحث عــن السلام . فالتكاليف الباهظة التى تواجهها اسرائيل نتيجة لاستمرارها فى احتلال الأراضى العربية وتلبية احتياجات العديــد من اللاجئين المشردين والتوسع المذهــل فى مجال القــدرة العســكرية وبناء مستوطنات فى الضفة الغربية وغــزة ، قــد أصبحت أكثر وضوحا وأصبح لهــا تأثير فعــلى على بعض سياسات الحكومة . وقــد انتهى بناء المستوطنات فعليــا مــع نهاية عام ١٩٨٣ ، وكان أحد الأسباب الرئيسية التى ادت الى الانسحاب من جنوب لبنــان هــو التكاليف اليوميــة لهذا الاحتلال . لقــد خضعت حتى بعض المقترحات الخاصة بتخفيض الميزانية العسكرية التى كان لها قدسية خاصة لاعــادة النظر فيهــا ، ولكن لم يتم اتخاذ أى اجراء يمكن أن يضعف الدفاع الاسرائيلى . ولقــد برهن العرب القادرون على انهم قادرون على ان يخسروا الحرب ، وعلى أن يجمعوا فى كل مرة شتاتهم لشن حرب جديدة . هناك حدود صارمة مفروضة على قدرة اسرائيل على توقيع العقاب على العدو المنهزم . وبالنسبة للاسرائيليين فان الظهور بالضعف الشديد أو هزيمة نكراء يمكن ان تعنى فقدان لحياتهم وضياع لدولتهم ، ولهذا فانهم غــير مستعدين للخسارة .

واذا لم تقع حرب اسرائيلية ــ عربية شاملة فان مفتاح مستقبل اسرائيل ان يوجــد خارجهــا ولكن فى داخلهــا ، ولن تتمكن الولايات المتحــدة أو أى

تجمع من القــوى العربية من اجبــار اسرائيل على تغيير اختياراتها فيما يتعلق بالضفة الغربية وغزة والحقوق الفلسطينية أو فيما يتعلق بالاراضى المحتلة من سوريا ولبنان .

والحكم على ما هو افضل بالنسبة لاسرائيل سوف يتم فى القدس من خلال عمليات ديمقراطية يشــترك فيهــا كل الاسرائيليين الذين يمكنهم التعبير عن وجهات نظرهم أو انتخاب زعمائهم . وتجرى مناقشة الموضوعات الحاســمة بحماس شديد هناك داخل اسرائيل أكثر من أى مكان آخــر فى العالم الخارجى ولــم يتم اتخــاذ قرار نهائى بعد . وسوف ترسم هذه المناقشــة مستقبل اسرائيل . ويمكن أيضــا أن تحــدد احتمالات الســلام فى المشرق الاوســط وربمــا فى العالم بأسره .

ســــوريا

ان تجــولات سيدنا ابراهيم جعلته يخترق اراضى ســـوريا القديمة ، ومن المؤكد انه توقف لفترة فى دمشـــق . وهذه المدينـــة التى تعتبر العاصمة العصرية لســـوريا ، هى أقدم مدينة فى العالم ولاتزال مستمرة فى وجودها . وتقع هذه المدينـــة فى تجويف واسع طبيعى لواحة ـــ وقد أقيمت دمشق منـــذ اكثر من ٣٠٠٠ عام قبل مرور ســـيدنا ابراهيم والسيدة سارة ولوط عليهـــا وهم فى طريقهم الى أرض كنعـــان .

وهذه المنطقة التى تعتبر جزءا من الهـــلال الخصيب ـــ كانت احـــدى المراكـــز الاربعة الاولى للحضـــارة الانسانية (والمراكز الاخـــرى المشابهة هى المعروفة الآن بالهند والصين ومصر) . وكان هنـــاك صراع مســـتمر بين الســـكان الاصليين الاثرياء نسبيا فى هذه المنطقة وبين الغزاة البرابرة القادمين من مناطق أقـــل خصـــوبة سواء من الشمال أو من الغرب . وفى هذه المنطقة واجـــه قدماء المصريين أول من واجهوا شـــعب حوض نهر الفرات العظيم أثناء غزواتهم الطموحة للتوسـع شـمالا . وفى هذه المنطقة كانت الحـــدود الوطنية تتغير باستمرار . ومع ذلك فان ســـوريا القديمة يتم تحـــديدها عادة بحيث تشمل ســـوريا الحديثة ولبنان واسرائيل والاردن . والآن عنـــدما يشـــير بعض الزعمـــاء العرب الطموحين الى سوريا الكبرى فانهم لا يزالون يتصـــورون نفس الاراضى .

وازدهرت الديانات الثلاث الموحدة بالله وهى « اليهودية ، والمسيحية ، والاســـلام » فى هذه المنطقة السورية التى تشمل الهلال الخصيب . وكانت كل جماعة من المؤمنين بالدين مقتنعين بأن ديانتهم هى الافضل . وأن مـــــكان تواجدها الجغرافى أمر من الله . وعلى الرغم من أن السبب فى اختيار الخالق لهذه الارض ، على وجـــه الخصوص ، لم يتم معرفته بعد ، فان المؤرخـــين العلمانيين يتخيلون أن اختـــلاط الانسان النشط غير العادى كنتيجـــة لالتقـــاء طـــرق التجارة بين البحر الابيض وجنوب أوروبا وحوض النيل وشبه الجزيرة العربية وسهل ايران فى حوض الفرات ، قد ســـاعد على نشر المعتقـــدات الدينيـــة المختلفـــة .

ولذلك لم يكن أمـــرا مثيرا للدهشـــة ان تكون هذه المنطقة محـــل صراع مستمر خلال العصور الاكثر حداثة والمسجلة تاريخيا ، شمل العـــديد من الفاتحين كالبابليين والعموريين والمصريين والحيثيين والآشوريين والاسرائيليين والفرس ، والاغريق والرومان ، ثم جاء العرب المسلمون من الجنوب الشرقى

ثم الصليبيون من اوروبا الغربيـة ثـم الاتراك والمغـول والمصريـون مرة اخـرى . وفى النهـاية ومع بداية القرن السادس عشر أصبحت سـوريا جزءا من الامبراطورية العثمانية لمـدة أكثر من اربعمائة عام .

وخلال الحرب العالمية الاولى ، وبعدها ، تم طـرد الاتراك ، وناضـل الفرنسـيون مع الزعيم فيصل الأول للسـيطرة على سوريا ، ولمـا انتصر الفرنسـيون اقتطعوا الجزء الغربى على طول السـاحل من البحـر الابيض المتوسط واقاموا دولة لبنـان المستقلة ــ وكان اغلب سكانها من المسيحيين ، وكانت المنطقة الشرقية من لبنان لقرون عديدة مركزا للمسلمين ، الذين أعلنوا انفصالهم عن بقية سـوريا . وعلى الرغم من أن الفرنسـيين فى عام ١٩٢٥ قد وعـدوا السوريين بالاستقلال وتشكيل حكومة برلمانية قبل الحرب العالمية الثانية فان فرنسـا لم تـف بوعودها ولم يحـدث الا فى عام ١٩٤٦ وبمساعدة البريطانيين ان اجبرت سـوريا بقية القوات الفرنسـية على الرحيـل من اراضيهـا .

وقد ادى فشل العرب فى الانتصـار خلال حروبهم ضـد دولة اسرائيـل الجـديدة الى توجيـه نقد لاذع للحكومة المدنيـة فى سـوريا والى وقـوع انقلاب عسكرى فى عام ١٩٤٩ ــ ولكن بعـد خمسـة أعوام من حكم زعمـاء عسكريين مختلفين تم اجـراء انتخـابات حـرة أعطت المـرأة حق الانتخاب ــ وضم البرلمـان عددا كبيرا من الجماعات السياسية وحدث تحول يسـارى راديكالى فى سـوريا عام ١٩٥٨ وانضـمت سـوريا الى مصر ليكونا معـا الجمهورية العربية المتحـدة . وبعد ثلاثة أعوام أصبح من الواضح أن مصر فى عهد عبد الناصر كانت تسـيطر على الدولة الجـديدة ، الامـر الذى لـم يعجب القـادة السوريون مما ادى الى الانفصـال ، وعندما سـادت البـلاد بعد ذلك فترة من عـدم الاستقرار تشكلت حكومة راديكالية فى عام ١٩٦٦ برئاسة صلاح جـديد وتولى اللواء حافظ الاسـد منصب وزير الدفاع وبعد أربعة اعـوام أصبح الاسـد زعيما لسـوريا .

ومن اجـل فهم سـوريا اليوم فانه ينبغى معرفة الخطـوط العريضـة لمواقفها الرسمية فيما يتعلق بالظروف فى الشرق الاوسط ، لان وجهة النظر فى دمشـق تختلف مبدئيا عن وجهـات النظر التى تتبناها عـادة اسرائيـل واوروبا والولايات المتحدة ، وعقب محادثاتى الطويلة مع الرئيس الاسـد فى عام ١٩٧٧ ــ وعـام ١٩٨٣ ومقابلاتى مع قادة سياسيين واكاديميين آخرين ، ودراسـة تصريحاتهم الرسمية التى نشرت فى العالم العربى فقد أصبح نموذج شكاواهم ومعتقداتهم أكثر وضـوحا وكانت افكارهم بخصوص اغلب النقاط الخاصـة باسرائيل تتفق تماما مع افكار العـديد من العرب الآخرين .

ان السوريين يشتكون من أن الاسرائيليين يعتبرون بلدهم حق لاى يهودى فى العالم يحتاج او لا يحتاج الى الاقامة فى الاراضى العربية التى يسيطرون عليها بالقــوة ــ وهى الضفة الغربية وغزة ومرتفعات الجولان وأجزاء من اسرائيل نفسها ــ ولكنهم يرفضــون السماح للعــرب المشردين ، والعرب الذين يعانون من طردهم من بلادهم ، بالعــودة الى الديار والاراضى التى لا يزالون يحتفظون بصكوك ملكيتها . ويجــادل السوريون بأنه بينما تدعى اسرائيل بأن من حقها اقامة دولة فى فلسطين عام ١٩٤٨ لانها بذلك تعيــد انشــاء دولة تم تدميرها فى العصور القديمة ، فانهـــا ترفض الاعتراف بالدولة الفلسطينية فى نفس المنطقة ــ هذه المنطقة التى سكنها الفلسطينيون وأسلافهم بصفة مستمرة لعدة آلاف من السنين . وعلاوة على ذلك فانه لاتوجــد دولة على الارض تعترف بمطالب اسرائيل الحالية للاراضى التى سبق مصادرتها منذ عام ١٩٤٨ . ويقول السوريون ان الاسرائيليين يزعمون أن يهود العالم يعتبرون شــعبا واحــد بصرف النظر عن الاختلافات الواضحة فى هويتهم ولغاتهم وعاداتهم وانتماءاتهم الوطنية ، ولكنهم ينكرون أن يكون الفلسطينيون شعبا متماسكا علاوة على أن لهم هوية وطنية واحدة ولغة واحدة وثقافــة واحدة وتاريخا واحــدا . ويعتبر السوريون أن التفرقة تشكل نوعا من العنصرية ، التى من خلالها تعتبر اسرائيل الفلسطينيون كشعب فى مرتبة دنيــا ليس له الحق فى تقرير مصيره ويسخرون من الادعاء الاسرائيلى بأن اسرائيل تمثل ديمقراطية حقيقية وتجعل المســاواة السياسية والاجتماعية مقصورة على اليهود فقط .

وبخصوص البحث عن السلام فان السوريين يجادلون بأن اسرائيل وهى تسعى الى ضمان أمنها تحــاول أن تخلق المعاذير للتوسـع ، ولاحتلال أراضى جــديدة وبنــاء مواقع عسكرية دائمة ، تطورت الى مستوطنات مدنية ، وبعد ذلك تخلق ظروفا للدفاع عن المستوطنات الجديدة عنطريق تحقيق توســـع جــديد وتدعيم قواتها العسكرية وطرد السكان العرب . ويؤمن الســوريون بأن ازهاق روح انسان عربى يعتبر نسبيا أمرا لا أهميــة له بالنسبة للاسرائيليين ومؤيديهم من الامريكيين ، الذين يربطون عمليات الارهاب بالفلسطينيين لتبرير هذا الموقف العنصرى . وتفســير مثل هذه السياســة المشــتركة يتلخص فى الطموح الامريكى الاسرائيلى المشــــترك للسيطرة على الشرق الاوسط على حساب شعوبه الوطنية التى تريد فقط الحصــول على حريتها وأن يكون لهــا الحق فى الحياة بسلام فى أوطانها .

وبسبب رفض مناقشة السلام مع الفلسطينيين ، تضع الولايات المتحــدة واسرائيل حجر عثرة أمام المفاوضات ، باستثناء حالة تكونان فيها قادرتين على اختيار مجموعة عربية واحــدة واغرائها عن طريق التهديدات أو المداهنـــة للعمل مع اسرائيل والولايات المتحدة فقط . وعندما وافق السادات على التفاوض وحــده مع الولايات المتحدة واسرائيل وحصل على ثمن ذلكباسترجاع ســيناء

المحتلة ، ادعى الاسد ان السادات أعطى الاسرائيليين شيكا على بياض للقيام باعتداءات أخرى ضد العراق وسوريا ولبنان والفلسطينيين . وابرز الاسد أن سوريا أعربت عن رغبتها فى العمل من أجل السلام من خلال الوسائل التالية :

● احترام قرارات الامم المتحدة الخاصة بالصراع العربى الاسرائيلى وليست اسرائيل ولا الولايات المتحدة على استعداد لتنفيذ ذلك .

● تأييد القرار الدولى الشامل الخاص بأن الفلسطينيين شعب ، شأنه شأن غيره من شعوب الارض ، له الحق فى تقرير مصيره ، ولا اسرائيل ولا الولايات المتحدة تقبل ذلك .

● احترام القانون الدولى الذى يمنع احتلال وضم الاراضى التابعة لدولة أخرى مستقلة ، ولا توافق اسرائيل على ذلك كما أن الولايات المتحدة تؤول هذا العمل غير الشرعى .

● رسم حدودها واحترام حدود الدول الاخرى الدولية المعترف بها وهذا لن تفعله اسرائيل .

● انسحاب القوات السورية من لبنان اذا طلبت الحكومة اللبنانية ذلك وحتى أخيرا على الاقل لم تقدم اسرائيل التزاما مماثلا .

ويتضمن الاقتراح السورى بتحقيق السلام النقاط التالية :

● عقد مؤتمر دولى تحت رعاية الامم المتحدة تتم فيه ترجمة الدعوة الى جميع الاطراف المعنية بما فى ذلك الاتحاد السوفيتى .

● تمثيل الشعب الفلسطينى عن طريق منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعى لهم .

● ان تكون قواعد القانون الدولى وقرارات الامم المتحدة الاساس لأى حل .

● ضمان مجلس الامن للسلام بين جميع دول المنطقة بما فى ذلك دولة يتم انشاؤها عن طريق حق تقرير المصير للفلسطينيين .

وبالرغم من أن أغلب وجهات النظر السورية تتفق مع وجهات نظر دول عربية أخرى ، فان بعض تلك الدول ترغب فى قبول أو تجاهل الظروف القائمة والتى استمرت لفترة طويلة من أجل التفاوض لتحقيق تقدم مطرد كما فعل السادات ، ولكن حافظ الاسد قال أنه يقف بشدة ضد مثل هذه « المناورة المسببة للخلاف » . وكانت أول مقابلة لى مع الرئيس الاسد فى مايو عام ١٩٧٧ عندما سافرنا الى جنيف بسويسرا للتوصل الى نوع من الارضية المشتركة لتحقيق

سلام فى الشرق الاوسط . ودعـوته لزيارتى فى واشنطن ، ولكنه اخبرنى بانه لم يسبق له أن زار الولايات المتحدة وربما سيكون غير قادر لزيارتها فى أى وقت فى المستقبل القريب . ولم يكن يعـرف عن شخصه أو حيـاة أسرته سـوى القليل ، ولكن هنرى كيسنجر وغيره من الذين يعرفون الاسـد وصفوه لى بأنه بحكم كونه شخصا ذكيـا فهو مستعد لمناقشة حتى أكثر الموضوعات حسـاسية بصراحة تامة .

ان حافظ الاسد يصغرنى بأربع سـنوات فقد ولد عام ١٩٢٨ وتخرج فى الأكاديمية العسكرية السورية وترقى بسرعة فى الرتب ليصبح لواءا وقائدا عاما للقـوات الجـوية . وبعد ذلك تولى منصـب وزير الدفاع عام ١٩٦٦ . وتمكن — بنجاح — من القـاء مسئولية الهزيمة السورية المهينة من الاسرائيليين عام ١٩٦٧ على غيره ، واستطاع أن يفرض سيطرته القـوية على الجيش السـورى . ورفض عام ١٩٧٠ اطـاعة أوامر الرئيس صـلاح جديد باستخدام القوات الجوية السورية فى مساندة المقاتلين الفلسطينيين الذين كانوا يقاتلون الملك الاردنى حسين . وعندما أدين بسبب ذلك من جانب زعماء الحزب والحكومة، تحداهم واستخدم الوحدات العسكرية الرئيسية فى الاسـتيلاء على السلطة فى انقلاب غير دموى ناجح .

ويشتهر الاسد بين غيره من الزعمـاء العرب ، بأنه قاس وعنيف تجاه السوريين الذين يقاومون سلطته . وكان معروفا عنه جيـدا هدفه الوحيـد الذى يتلخص فى حماية منطقته من التدخـل الخارجى ، وبتدعيم دور سوريا باعتبارها القـوة المهيمنة فى الشرق الاوسـط . ويعتبر الاسـد لبنـان جزءا لا يتجزء من دولته ، وكان يعتقد أنه أمر طبيعى أن يتم ارسـال قوات سـورية الى لبنـان فى عام ١٩٧٦ لوقف الحرب الاهلية اللبنانية . وكان يسـتاء من اية معارضة بخصوص زعامته العربية — سـواء من مصر أو الاردن أو من منظمة التحرير الفلسطينية أو من أى مصدر آخـر — وكان مستعدا لمواجهـة أى مصـادمات سياسية أو عسكرية عنيفة عن التخلى عن هذا المبـدأ . ويدين الرئيس الاسـد علنا ، وباستمرار ، السياسة الاسرائيلية الخاصـة بالاراضى المحتلة وحقوق الفلسطينيين ، ولكن خـلافه لم يكن مقصـورا على اسرائيل ، فقد توترت علاقاته مع زعماء مصر والاردن والعـراق مؤخـرا ، كما قـام بتغيير دور قواته الموجـودة فى لبنان التى تتألف من ٣٠٫٠٠٠ مقاتل من مساندة القوات المسيحية كلية ، الى القيـام بدور حيـادى اكثر شـعبية لمواجهـة الانتقـادات التى يوجهها اليه اتباعه من المسلمين .

وعلمت من تقـارير الأمن المفصـلة أن سـوريا اصبحت معـزولة نسبيا من جانب الدول الاخرى ، وأن الاسـد شخصيا يقف عادة بمعزل عن زملائه القادة العرب ، وأنه الآن مهتم بالوضـع السياسى الداخلى فى بلاده ،

ولهذا لم افاجأ عندما وجدته باردا ومنفعلا ومتوترا اثناء محادثاتى معه .

لقد تقابلنا فى أحد الفنادق السويسرية الكبرى ، الذى عادة ما يستخدمه الدبلوماسيون المحترفون كأرض محايدة لمعالجة العديد من القضايا التى تشغل البيروقراطية الدولية الضخمة وغير المعروفة نسبيا وغير المرئية . وقد اصطحبنى عبر بهو الفندق خليط يضم مديرى الفندق وبعض المسئولين السويسريين والسوريين ورجال الأمن الامريكيين ومجموعة من المسئولين البارزين ، واجتزنا طريق كثير المرات والقاعات ، ثم صعدنا بالمصعد الى أعلى وأخيرا وصلت الى الجناح الخاص بالرئيس السورى .

كان الاسد متعاليا نوعا ما خلال الدقائق الاولى القليلة من مقابلتنا ، وبدا أكثر طولا وهو منتصب فى وقفته العسكرية المبالغ فيهما . وقد استطاع أن يحتفظ بابتسامة هزيلة على وجهه ليبدو وكأنه مرتاحا مبتهجا ، وان كانت تساوره بعض الشكوك حول ما كان يسمعه . غير أننى وجدت أمامى انسانا لطيفا وهادئا للغاية يمزح أثناء عرض ملاحظاته ويقدر تماما ما أبذله من جهود للاعداد لعقد مفاوضات سلام . وبدأنا نستمتع بالحديث معا ، وحاول بعضنا أن يراوغ البعض الآخر ، وأن يتفوق كل منا على الآخر بانتزاع ضحكة مؤيدة من مساعدينا ومستشارينا الذين كانوا يشاركوننا هذا الحديث . وقد استمعنا أثناء مناقشة ممتعة استغرقت من ساعتين الى ثلاث ساعات — الى وصف عملى فاتر لموقف سوريا المتشدد ، وكان من الواضح أن الأسد يشك فى نجاح مجهوداتى من أجل جمع الاطراف المتنازعة على مائدة المفاوضات ، ولكنه كان يرغب فى أن نقوم بدراسة البدائل العريضة امامنا حول كيفية اعادة عقد المؤتمر المسمى بمؤتمر جنيف على أساس قرار الأمم المتحدة رقم ٣٣٨ الذى يعتبر الصيغة الوحيدة والأساسية التى يجب دراستها بهدف اجراء محادثات سلام شاملة . وكان الأسد قد سبق له أن رفض المشاركة فى الاجتماع الوحيد القصير غير الحاسم الذى رتبته اتفاقيات فك الاشتباك بعد انتهاء حرب ١٩٧٣ ، ولكنه قال انه مستعدا دائما لحضور أى اجتماع يهدف الى اجراء محادثات جادة يمكن ان يتم اعدادها فى هذا الاطار ، ومع ذلك فقد عارض بشدة اجراء أى محادثات ثنائية بين اسرائيل وبين واحدة من جيرانها العرب بمعزل عن بقية الدول العربية . كما عارض قيام الولايات المتحدة بتبنى محادثات السلام بدون المشاركة المتكافئة للاتحاد السوفيتى .

ومن المعروف أن سوريا لها علاقات وطيدة ، منذ زمن بعيد ، مع الاتحاد السوفيتى الذى يؤيد الوضع العربى فى خلافاته مع اسرائيل تأييدا قويا ، ويؤيد سوريا ، بوجه الخصوص ، عندما تكون مختلفة مع العرب .

لقد اعربت الكتلة السوفيتية فى اوائل عام ١٩٥٤ عن رغبتها فى تزويد سوريا بالاسلحة بعد أن رفضت فرنسا الاستمرار فى بيع أسلحتها لها ، وخلال العقدين التاليين استفاد السوريون من المعونات الاقتصادية والعسكرية السوفيتية الضخمة .

وعلاوة على ذلك فعندما تعرضت سوريا للتهديدات من جانب القوات المسلحة التركية والاسرائيلية ، صدرت تحذيرات مؤكدة بل وتحركات لاعداد كبيرة من القوات العسكرية ، ليبرهن السوفييت انهم سوف يتدخلون مباشرة لحماية صديقهم العربى . وكان أول عمل قام به الأسد عندما أصبح رئيسا للجمهورية السورية فى عام ١٩٧٠ هو قيامه بزيارة لموسكو ليؤكد من جديد العلاقات الحميمة بين البلدين .

بيد أن السوريين لم يترددوا على الاطلاق فى اغضاب الكرملين عندما يكون الأمر متعلقا بتحقيق أغراضهم . فبالرغم من معارضة السوفييت انضمام سوريا الى مصر لاقامة الجمهورية العربية المتحدة فى عام ١٩٥٨ ، الا أن سوريا لم تذعن لهم ، كما ان الاسد — شخصيا — قد سبق له أن رفض طلبات السوفييت الخاصة بحضور سوريا مؤتمر جنيف الخاص بمحادثات الشرق الأوسط للسلام فى عام ١٩٧٣ . وبعد ذلك بثلاثة أعوام حرك ٣٠٫٠٠٠ من قواته الى لبنان وظل محتفظا بها هناك بالرغم من أن الرئيس ليونيد بريجنيف قد عارض بشدة وعلنا التدخل السورى ضد منظمة التحرير الفلسطينية والقوات اليسارية التى يساندها السوفييت أيضا . وبالرغم من أن الاسد يعتمد اعتمادا كبيرا على المعونات السوفيتية ويشارك الكرملين فى كثير من الاهداف ، الا انه لم يكن عميلا تابعا له ، وكنت آمل انه ربما يبرهن على استقلاليته بالعمل معى للتغلب على العقبات التى نواجهها على طريق السلام . وعلاوة على ذلك فان رغبتى العامة التى كانت تتلخص فى اعادة عقد محادثات السلام ، لم تكن متمشية مع ما حاول السوفييت أن يقنعوا به الاسد لتنفيذه فى حالة عدم استبعاد السوفييت من الساحة .

وركز الاسد فى حديثه معى ، على ان اساس المشاكل الكثيرة يرجع الى التقسيمات الفرعية التعسفية للمنطقة بواسطة القوتين الاستعماريتين بريطانيا العظمى وفرنسا دون النظر الى الحدود الطبيعية ، ووحدة العرق ، أو الوحدة القبلية ، ومنذ ذلك الحين والاجراءات التى تتخذها اسرائيل تزيد الوضع سوءا . واشار الاسد الى ان اسرائيل قد انضمت الى الامم المتحدة فى عام ١٩٤٩ بشرط واضح وهو بالرغم من أن فلسطين قد تم تقسيمها بين اليهود والعرب فانه سيسمح للفلسطينيين بالعودة الى وطنهم أو تعويضهم بشكل كامل عن ممتلكاتهم التى فقدوها . وقال الاسد لانه قبل عام ١٩٦٧ كانت اسرائيل تضغط على السكان العرب ليتركوا أراضيهم منتهكة بذلك اتفاقيات الامم المتحدة التى اقسمت اسرائيل على احترامها ، وتبررت

حرب ١٩٦٧ بهدف الحصول على اراضى عربية جديدة ، ثم اعلن زعمـــاء اسرائيل أن هذه الحرب بمثابة خطوة نحو « اسرائيل الكبرى » وكان كـل تصرف بعد ذلك يبرهن على أطماعهم التوسعية .

وكان الاسد مقتنعا بأن الاسرائيليين لا يريدون السلام ، وأنهم يعملون على افشال المفاوضات مع استمرارهم فى الحصول على المزيد من الاراضى، واضاف قائلا : انه لا يوجد اى زعيم عربى يمكنه أن يوافق على التخلى عن اى أرض بصرف النظر عن مدى رغبته الشديدة فى السلام ، وهذا أمر يؤمن به الاسد ويعتبره كمبدأ .

وحاولت ان اقنع الاسد بأن الاسرائيليين مستعدون للسلام اذا كـان هناك أى زعيم عربى مستعد للتفاوض معهم مباشرة وبنية مخلصة ، وأكدت على مدى التزام الاسرائيليين بأمن دولتهم الصغيرة نسبيا وحاجتهم الى قبولهم ككيان دائم فى المنطقة .

واستخف الاسد بعد ذلك بمفهوم « الحدود الآمنة » فى مواجهـــة الصواريخ الحديثة والطائرات وغيرها من الاسلحة وقال : « انه لمن الغريب أن تصر اسرائيل على أن تكون لها حدودا آمنة على أراضى الشعوب الاخرى فيمكن لاسرائيل أن تأخذ جزءا من الاراضى السورية ، وتأخذ سوريا جـزءا من الاراضى التركية ، وتأخذ كندا جزءا من أراضى الولايات المتحدة ، وهكذا يصبح العالم بأسره بمثابة غابة ، ويدعى الاسرائيليون انهم اخذوا جزءا من الجولان لحماية مستوطناتهم ، ولكنهم بعد ذلك اقاموا مستوطنات جديدة فى الجولان وبعض منها يقع على بعد ثلاثمائة متر من أراضينا . لماذا اذن يتعين أن تبعد الحدود الآمنة عن دمشق بخمسين كيلو مترا بينما تبعد عن تل أبيب بثلاثمائة كيلو متر ؟ ان الحديث عن الحدود الآمنة لا يستند على أى شيء حقيقى » .

واقترح الاسد ان حل الخلافات حول الحدود يكمن « فى احترام توصيات الامم المتحدة ، وفى وجود مناطق منزوعة السلاح ، وفى وجود قوات طوارىء دولية فى هذه المناطق وانهاء حالة الحـــرب . ويجب أن تكون القـــوات تحت رعاية الامم المتحدة بشرط عدم تواجد قوات من دول مثل جنوب افريقيـــا أو روديسيا او اسرائيل . وضمان مجلس الامن لن يكون ضروريا ولكن يمكن ان يكون وسيلة من وسائل الترف المفيدة » .

وادعى الاسد ان المسيحيين واليهود فى سوريا يعاملون مثل أى مواطن آخر بشكل عادل ، « ولكننا نريدهم أن يكونوا مواطنين لبلدهم . فاليهـــود السوريون يجب ان يكونوا مواطنين ســـوريين واليهود البريطانيين يجب أن يكونوا مواطنين بريطانيين ومخلصين لبلدهم » .

وناقشنا بعد ذلك مسالة اللاجئيين الفلسطينيين من الضفة الغربية وغزة ، وأصر الاسد على أن قرارات الامم المتحدة اقرت حق اللاجئين فى العودة أو التعويض ، وركز على أنه لا يمكن ان يكون هناك أى بديل لهذا الالتزام الدولى ، ولكن لم يكن هو أو عبد الحليم خدام ، وزير خارجيته ، الذى كان جالسا الى جانبه ، قادر على الاجابة على أسئلتى الخاصة بعدد اللاجئين او حجم المبالغ النقدية التى يجب دفعها لهم ، وسألت عما اذا كان عرفات يمكنه أن يتكلم عن الفلسطينيين فأجاب الاسد : « انه يحتاج الى بعض المساعدة منا جميعا ويجب أن نساعده جميعا . وهناك بعض الخلافات والمشاكل بين الفلسطينيين ولكنها جميعا أمور يمكن تسويتها » .

وكانت هذه العبارة اشارة من الاسد بأنه ربما يرغب فى التدخل فى السياسة الفلسطينية بل وحتى سحب الزعامة من عرفات — الامر الذى سعى اليه بعد ست سنوات فى عام ١٩٨٣ .

وكان الاسد غامضا فيما اذا كان يجب ان تكون هناك دولة فلسطينية مستقلة فى الضفة الغربية وغزة ، أو وجود نوع من الاتحاد الكونفدرالى مع الاردن — وكان يبدو عليه انه يرغب فى احترام رغبات الملك حسين فى هذا الصدد — الامر الذى سيكون ، كما علمت ، الاختيار الاخير . وقد توقعت منه أن يطالب بأن يكون للفلسطينيين دولتهم الخاصة . وكان موقف الأسد مطابقا مع ايمانه بأن وحدة هدف الأمة العربية (كما تحددت فى دمشق) تعتبر أكثر أهمية من الوطنية الفلسطينية .

ومع اقترابنا من نهاية الحديث سألت الزعيم السورى أن يحدد لى الخطوات الاولى التى يجب أن نتخذها من أجل تحقيق سلام حقيقى ودائم . فأجاب ، « ان أهم شىء هو منع نشوب جولة جديدة من الحرب . واذا استطعنا انهاء حالة الحرب — فان ذلك سيقودنا تلقائيا الى حالة السلام . كما أن اتخاذ اجراءات متعلقة بالأمن مثل انشاء مناطق منزوعة السلاح سوف تساعد على كسب الوقت ، واننا نحتاج كذلك الى تحقيق تنمية بلادنا اقتصاديا وتعميرها لاعطاء شعبنا الثقة بأن الوضع الجديد هو الصالح والدائم ، وهذه الاجراءات يمكن ان تخلق وضعا سيكولوجيا هادئا وتساعد على خلق عهد جديد فى المنطقة » .

وسألته عن المقاطعة العربية لاسرائيل ، فأجاب قائلا : انه مع المواقف الاسرائيلية الحالية لايمكن أن يحدث تبادل تجارى بينها وبين جيرانها العرب . وأضاف بعد أن فكر قائلا : « اننا نتكلم طوال الوقت عن الدين ، واذا اخذت القدس منا فاننا سنكون جسدا بلا روح ، وانه من غير المناسب أن نظل بالعودة الى حدود ١٩٦٧ ونقصى القدس فقط جانبا » .

وسالت : « هل يمكن ان يكون الأمر اكثر يسرا اذا وضعنا استثناءات اخرى ؟ » .

وضحك الاسد مع مستشارينا الجالسين حول مائدة المفاوضات وقال : « اذا اصر الاسرائيليون على الاحتفاظ بالقدس ـــ فان هذا يشير الى انهم لايريدون السلام ذلك لاننا مرتبطون بالقدس ارتباطهم بها » .

واجبت بأننى مرتبط ايضا بالقدس وتمنيت أن يتمكن جميع المؤمنين من الدخول الى الاماكن المقدسة ـــ وأن يكون لهم الحق فى مزاولة طقوسهم دون اية قيود . وقبل أن ننتهى من اجتماعنا ، وعد الأسد بأن يدلى ببعض التصريحات الايجابية بشأن جهود السلام مضيفا انه منذ عام أو عامين كان الحديث مـع الاسرائيليين يعتبر بمثابة انتحار سياسى .

ولاحظت أن الاسد يتحدث ببساطة عن نفسه وعن دولته ، بثقة ودون مراعاة ان افكاره قد تتعارض مع أفكار أى شخص آخر ، ويبدو أن كثيرا من الزعماء العـرب الآخرين ينتهجون فى الغالب نهجا حزبيا ولكن بعض افكار الاسد تبدو أصيلة ، وصادرة عن تأملاته الخاصة . ولم يذعن لأحد من القادة السوريين الذين كانوا معه ، ولم يبد أى اهتمام بردود فعلهم تجاه تعليقاته . وبالرغم من ان الأسد لم يعط اى انطباع بأنه يرغب فى التخلى عن أى من أهدافه طويلة الأمد ، فقد خرجت من أول اجتماع مقتنعا بأنه يمكن أن يكون قويا ومرنا بدرجة كافية لتعديل تكتيكاته السياسية حسب الأوقات والظروف المتغيرة ، ورغم ما يحمله من مرارة تجاه الاسرائيليين فقط احتفظ بروحه الساخرة تجاه وجهات نظرهم المتعارضة ، وبدا عليه أنه يستمد صبره الطويل من احساسه الواضح بالتاريخ . وأعلن أنه لن يتكلم نيابة عن غيره من العرب ، ولكن كما يبدو عليه فانه واثق من أن نفوذه سوف يبدو فى محاولة البحث عن اى حل دائم للخلافات .

وبعد شـهور قليلة وفى الاسد عهده وأدلى بحديث جاء فيه انه بعد اجراء مفاوضات ناجحة ، فانه مستعد لتوقيع اتفاقية سلام مع اسرائيل ولكن دون تبادل للسفراء وقال : « لا يوجد خيار ثالث ، فاما السلام أو الحرب » . وعندما سمعت هذه الملاحظات شعرت بأمل اكبر بشأن احتمالات السلام ، ولكن فى ضوء الأحداث التالية : شعرت بأن تفاؤلى المبكر فى تعاملى مع الأسد ومع مسالة الشرق الأوسط برمتها لم يكن فى محله بيد انه من المحتمل ـــ بصرف النظر عن ثقتى الزائدة ـــ اننى لم اكن راغبا فى استكشاف الفرص القائمة بالفعل .

وفى عـــام ١٩٧٧ كانت العقبـــة الرئيسية فى طريق محادثات السلام المخطط لها هى كيفية اشتراك الفلسطينيين ، أو بوجه أخص منظمة التحـــرير الفلســـطينية فى هـــذه المحادثـــات . فالاسرائيليون لـــن يعترفـــوا دبلوماسيا بالفلسطينيين ويفضلون التقليل من دورهم فى المحادثات . فى حـــين يتمســـك

اغلب القادة العرب والسوفييت بأنه يتعين معاملة منظمة التحرير الفلسطينية على قدم المساواة مع تلك الحكومات الوطنية . وقد وضعنا — أنا والاسد — فى اعتبارنا عدة اختيارات عن كيفية انضمام الفلسطينيين — كأعضاء ضمن الوفود العربية — ، باعتبار أن جميع العرب يشكلون مجموعة تفاوض واحدة ، أو بتشجيع الفلسطينيين على اختيار زعماء عرب آخرين للتحدث باسمهم . وقدم الاسد فى نفس هذا الصيف اقتراحا بناء يتفق مع المطالب الاسرائيلية وهو ان العرب الآخرين يمكنهم أن يتحدثوا باسم منظمة التحرير الفلسطينية ولكن كل هذه الجهود توقفت عندما أعلن السادات عن عزمه على التعامل مباشرة مع الاسرائيليين بالذهاب الى القدس . وبالرغم من أن السادات وأنا كنا لا نزال نعتزم استغلال تحركه التاريخى كخطوة رئيسية نحو تسوية جنيف الشاملة والتى أيدها الاسد فان التعاون السورى قد انتهى بالفعل .

لقد غضب الاسد عندما أبلغه السادات بأنه يخطط لزيارة القدس ولن يغفر للرئيس المصرى « خيانته » للقضية العربية . واعتبر الاسد وغيره من الزعماء العرب ، أن اسرائيل غررت بالسادات لقيامه بتصرف من جانب واحد يستطيع بواسطته أن يستعيد أراضيه على حساب الفلسطينيين والعرب الآخرين . وبذل السوريون كل ما فى وسعهم لمنع اجراء هذه المحادثات المباشرة بين اسرائيل واحدى جيرانها ، ثم توجهوا بجهودهم نحو العرب الآخرين لعزل مصر ومقاطعتها . وحتى موت السادات فانه لم يغفر له ذلك . فقد امتلأت شوارع دمشق بالهتافات عندما أذيع نبأ اغتيال السادات .

وبعد زيارة السادات لاسرائيل كانت ادانة الاسد له شديدة لدرجة أن الكثيرين اعتبروه المعوق الذى سوف يعارض أية مبادرة للسلام ، ولذلك فانه سيكون بمثابة شخصية لا أهمية لها نسبيا فى حل الصراعات فى الشرق الاوسط عن طريق المفاوضات . وفى الواقع فان رد فعله ازاء معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية كان هادئا نسبيا : فقد تمثل فى محاولة تهدف الى تجنب مواجهة مع القوات الاسرائيلية ، والحصول على أسلحة سوفيتية اضافية للمحافظة على نوع من التوازن العسكرى الاستراتيجى بين اسرائيل وسوريا . وكان الاسد يحاول استغلال وقته متحينا الفرصة لاستعادة دور سوريا الريادى بين دول الشرق الاوسط .

وقد جاءته الفرصة قبل أن يتوقع بكثير ، وكانت فى لبنان . كان الاسرائيليون لعدة سنوات قد أصبحوا أكثر تحالفا مع المسيحيين الموارنة الذين يشاركونهم الرغبة فى السيطرة على المقاتلين الفلسطينيين . وفى الوقت نفسه وبطريقة تتسم بالولاء التام ، وان كانت بصورة عكسية تماما ، فان

قــوات الاســـد التى دخلت لبنـــان عـــام ١٩٧٦ لحماية مصالح المـــارونيين (ومن الغريب بموافقـــة الامريكيين والاسرائيليين ومعارضـــة السوفييت) أصبحت الآن الحامية والمؤيدة لمعارضيهم الذين يتكونون مـــن غالبية قويـــة من المسلمين والدروز وبعض الفصائل المسيحية . وكان انحيازها الجديـــد بتأييد تام من السوفييت والشعب السورى وزعماء عرب آخرين .

لقد افاد هـــذا الانحياز اغراض الاسد لمنـــع الضربـــات الاسرائيليـــة الثأرية داخل لبنـــان . حتى أنه تعاون مـــع الاسرائيليين عن طريق استخدام نفوذه القوى على منظمة التحرير الفلســـطينية فى الجنوب اللبنانى للحـــد من عمليات الفدائيين الفلســـطينيين ضد المستوطنات الاسرائيلية القريبة من الحـــدود . وفى الواقع ، ساعدت سوريا على ترتيب وقف اطلاق النار بين منظمة التحرير الفلسطينية وبين اسرائيل لمـــدة عـــام وأكثر . وبعد ذلك فى عـــام ١٩٨٢ ، قامت القوات الاسرائيلية بضربة بارعـــة فى عمق لبنـــان تجاه بيروت ، وواجهت مباشرة تقريبا القوات الجوية والبرية الســورية ، وباستثناء وادى البقاع حيث كانت القوات السورية ترابط فى مواقـــع دفاعية قوية ، قامت الدبابات والطائـــرات الاسرائيليـــة بتحقيق انتصـــار مثير . وبدا من المحتمل أن الاسد بعد الفشـــل الذريع الذى منيت به قواتـــه المسلحة اضطر الى البقاء بصـــفة مستمرة بعيـــدا فى الظل عندما يتم اتخاذ قرارات خاصة بالشرق الاوسط فى المستقبل .

وبعد شهرين عسكرت القوات المســلحة الاسرائيلية فى لبنان ، وكانت القوات الامريكية والاوروبية تراقب انسحاب قوات منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت . وكان يبدو بعـــد ذلك أن الرئيس المنتخب ، الموالى لاسرائيل ، بشير الجميل ، سوف يقود لبنان لتصبح صـــديقا لاسرائيـــل . ولمـــا كانت القوات الاسرائيلية قد أتمت أهـــداف مهمتها الرئيسية ، فقـــد انسحبت الى الجنوب للاقلال من خسائرها ولتسمح لقوات الجميل المـــارونية من احكـــام قبضتها على البـــلاد . وجاءت بعد ذلك أحداث شهر سبتمبر المثـــيرة التى تم وصفها من قبل ، وواجه الاســـد القوات الامريكية والاوروبية مرة اخرى فى بيروت ، ثم واجه بعـــد ذلك الفصائل الدينية والسياسية .وانفجرت الحرب الاهلية من جـــديد . وبالرغم من وجود القوات الاجنبية فان الدروز والمسيحيين دخلوا فى مـــعركة فوق الجبال المطلة على المدينة ، وسقطت القذـــائف على القـــوات الامريكية وأصـــدقائهم اللبنانيين من القرى المحيطة التى كان بعضها تحت سيطرة السوريين .

وكان قد نفد صبر الاسد الذى كان يقف وحيـــدا بسبب سوء حكم اعدائه الامريكيين والاسرائيليين عليه وخلال هذه الاشهر التى هدأ فيها الاســـد نسبيا تمكن من الحصول على شحنات ضخمة من الاسلحة السوفييتية الحديثة لتعويض

المعـــدات التى كان قد فقدها خلال الغـــزو الاسرائيلى . وعندما بدات القوات الامريكية وكذا قوات حلفائهم اللبنانيين تعانى من الخســـائر ، ووقوف هـــذه القـــوات موقف الدفاع ، اصـــبح الوضع العســـكرى والســـياسى للبنانيين المتحدين مع الاسد أكثر قوة .

وكنا فى ذلك الوقت فى شهر مارس عام ١٩٨٣ عندماقمت بزيارة لبنـــــان وســـــوريا فى نهاية رحلة طويلة للشرق الاوسط استغرقت شـــهرا . وكانت الصحافة فى مصروالاردن والمملكة العـــــربية السعودية تختلف عن تلك التى ادانتنى بشـــدة قبل وصولى الى ســـوريا . ومن بين ما ذكرته هذه الصحف انها وصفتنى باننى خائن للقضية العربية باعتبـــار أننى الذى ابتدعت اتفاقية كامب ديفيد الشهيرة ، وقمت بمراجعة هذه الانباء التى وصلتنى من ســـفاراتنا ببعض الاهتمام ،فقد تحالفت سوريا ضد الولايات المتحدة فى لبنان ، كما عكست المقالات الصحفية والاحاديث الاذاعية الخاضـــــعة لرقابة الدولة احاسيس ومشاعر الاسد ، وكان يبدو أن الشعب قد تمت تعبئته عمـــدا ضـــدنا . وكنت أريد أن أجرى بعض المحادثات البنـــاءة مع الرئيس السورى ، وفى الوقت نفسه كنت آمل — أنا وروزالين — أن نقـــوم بجولة فى المدينة القـــديمة وزيارة بعض الاماكن المقدسة .

ولم يكن هناك ما يستوجب القلق فقد رحب بنـــا شعب وزعماء ســــوريا ترحيبا حارا . فعلى اثر وصولنا الى مطـــار دمشق طلب منى التوجه مبـــاشرة الى مكتب الرئيس ، ومكثت — أنا والاســـد — عدة ساعات نستعرض خلالها احـــداث السنوات الست الاخيرة منذ أن تقابلنا فى سويسرا . وكان على أن اعيد قراءة النص الحرفى لمـــا دار بيننا من حديث فى سويسرا واعــــربت له عن رغبتى فى استمرار حديثنا حول بعض نفس الموضوعات . ولم يحدث ذلك على الاطلاق . ففى احـــد أركان حجرة اجتماعات فسيحة تم وضع الكراسى والأرائك متلاصقة بجوار الحائط بطريقة شرقية ، وبدأنا فى حديث ســـــاخن حول أكثر الموضوعات أهمية فى ذات الوقت . وكان مترجم الاســـد معنــــا لمساعدتنا ولكنه وجـــد صعوبة فى متابعة الرئيس السورى ، وأدركت لاول مرة أن الاســـد يفهم الى حد ما اللغة الانجليزية . وكان عادة ما يجب مبـــاشرة باللغـــة العربية دون انتظار ترجمة ملاحظاتى ، وكان من حين لآخر يستخدم بعض الكلمات الانجليزية .

وكان يبدو على الرئيس السورى السرور تجـــاه التطورات الاخـــيرة فى لبنـــان ، وأعرب عن ثقته الكاملة بدور بلاده الكبير فى مستقبل الشرق الاوسط وقد ابتسم عندما وجـــد أن مختلف دول العالم اصبحت تنظر الى الصراع الآن على أنه صراع بين سوريا الصغيرة وأمريكا القوية ، احدى الدولتين العظمتين ، لدرجة أنه كلما ازداد نشاط عملياتنا العسكرية ، ظهرت سوريا أكثر قوة وشجاعة باعتبارها قادرة على التحدى .

ولقد أدركت — بالرغم من أنه من لم يشر الى ذلك — ان قوات الولايات المتحدة كانت تقف فى مكان يمكن أن يسيطر عليه الاسد ويؤثر فيه من خلال وكلائه فى لبنان . وكان الاسد يرى ضرورة فرض أقصى ضغط على اسرائيل والولايات المتحدة بهدف تغيير الوضع القائم فى لبنان ، ويمكن لسوريا أن تتحلى بالصبر وتنتظر مبادرات من جانب كل من القدس وواشنطن .

وقال انه يدرك دائما أن الاحتلال الاسرائيلى للبنان مقدرا له الفشل الذريع . وسخر الاسد من الادعاءات الاسرائيلية التى تزعم فيها اسرائيل أن السبب وراء غزوها للبنان هو الرد على هجمات منظمة التحرير الفلسطينية ، وأشار الى أنه قبل هذا الغزو لاكثر من عام لم تحدث أية خسائر فى الارواح الاسرائيلية من هجمات عبر الحدود اللبنانية .

اننى اتفق على ان الحرب . وما ترتب عليها من احتلال كانت مكلفة للغاية بالنسبة للقوات العسكرية الغازية ، سواء فى أرواح الاسرائيليين أو بالنسبة للدعاية الواسعة فى مختلف ارجاء العالم للنضال من أجل الحصول على التعاطف والمساندة .

كان الاسد يريد أن يتحدث عن المستقبل ، فأشار الى أنه حتى اذا احتفظ الاسرائيليون بقوة رمزية مسلحة فى جنوب لبنان بعد انتهاء مهمتهم الاساسية فان وجودهم سيصبح امرا غير مرغوب فيه الى حد كبير حتى بالنسبة للقلة اللبنانية التى رحبت بدخولهم فى بادىء الامر الى البلاد على أمل طرد منظمة التحرير الفلسطينية .

وقال انه وغيره من السوريين قد راقبوا انباء اسرائيل بدقة وأنه لاحظ الخلافات السياسية العنيفة التى نشبت فى اسرائيل . ويعتقد ان بيجين رئيس الوزراء وحكومته قد شعروا بالاحراج نتيجة للفشل الاسرائيلى فى تحقيق أهدافهم الكبرى فى لبنان .

ولكنه حتى فى محادثاته الخاصة لم يعترف الاسد بأن مثل هذه التطورات السياسية قد تغير من السياسة الاسرائيلية بصورة أو بأخرى ، ولم يترك أى فرصة ليشير فيها الى درجة التأييد العسكرى والاقتصادى الذى تقدمه الولايات المتحدة الامريكية لاسرائيل ، هذا التأييد سمح لاسرائيل بشن هجومها ضد جيرانها . وادعى ان كل العرب يحملون واشنطن مسئولية عدم اقرار السلام فى هذه المنطقة . فعددت له الجهود العديدة التى بذلتها أنا ومن سبقونى فى البيت الابيض من اجل احلال السلام فى الشرق الاوسط . وذكرت ان اسرائيل مستعدة وترغب فى التفاوض معه أو مع أى زعيم عربى بهدف حل الخلافات فيما بينهما .

وقد ادي الحديث عن هذه النقطة الى اثارة اكثر الموضوعات حساسية بالنسبة للاسد فقد وجه اللوم الشديد الى السادات وندد باتفاقية السلام المصرية ـ الاسرائيلية التى تسببت فى هجوم اسرائيل على لبنان ، مشيرا الى أن الاسرائيليين ما كانوا ليخاطروا بالانتقام من الحرب اذاكانت مصر قد ظلت حرة فى الانضمام بقواتها الى الدول العربية الاخرى . وتبادلنا حديثا ساخنا ، وذكرت الاسد بأن مصر استعادت ارضها وأن شعبها يعيش فى سلام وقمت باختيار بعض الفقرات الرئيسية التى وردت فى اتفاقيات كامب ديفيد وقرأتها عليه لأثبت له أن اطار الاتفاق يتيح المزيد من الانسحاب الاسرائيلى من الاراضى المحتلة ، وحق الفلسطينيين فى تقرير المصير ، وايجاد حل سلمى للخلافات القائمة بين اسرائيل وجيرانها العرب الآخرين .

ولم يقبل الاسد اى من هذه النقاط ، واتهم الولايات المتحدة مرة اخرى بتمويل ومساعدة مخططات اسرائيل لغزو لبنان . وكان مقتنعا بان الاسرائيليين لا يريدون السلام الا طبقا لشروطهم الخاصة ، وانه ليست لديهم أية نيسة للانسحاب من الضفة الغربية وغزة او من مرتفعات الجولان ، وان هذه الحقيقة سوف تعرقل أى تحرك لاحق نحو السلام فى المنطقة . واعرب الاسد ، بصورة مثيرة للدهشة ، عن ثقته وتذرعه بالصبر ... ... استعادة سوريا لسيطرتها المطلقة على مرتفعات الجولان ، ولم يبد أى اهتمام على الاطلاق فى ان يحقق هذا الهدف فى المستقبل القريب .

وكان الاسد متأكدا من أن هدف اسرائيل المعلن بخصوص تدمير قوات منظمة التحرير الفلسطينية لن يتحقق ، وأن الفلسطينيين حتى بعد خروجهم المكلف من لبنان ، وبصرف النظر عمن يكون زعيما لهم ، سوف يعملون على الاحتفاظ بنفوذهم القوى بين الزعماء العرب وبين اغلب شعوب العالم .

وقررت أن أدفع بالاسد للخوض فى بعض الموضوعات الحساسة ، متساءلت كيف ان الزعماء العرب الآخرين الذين قمت بزيارتهم مؤخرا كانوا قلقين للغاية بسبب مساندة سوريا لايران ، التى لا يعتبر شعبها عربيا ، فى حربها ضد العراق . كان الاسد متحمسا بشأن التزامه بمساندة ايران ، ولكنه كان يقوم بدور المدافع الى حد ما عن هذا القرار ، واوضح ان مساندته للقوات الايرانية ترجع اساسا الى بغضه للرئيس صدام حسين والزعماء العراقيين الآخرين . ولكنه اكد ان آية الله خمينى يدرك ، دون ادنى شك ، أن سوريا سوف تنضم للدفاع عن المملكة العربية السعودية أو اى دولة عربية اخرى يمكن ان تهددها وتهاجمها القوات الايرانية .

وسألته بعد ذلك عن الالتقاء الفريد بين بعض المصالح السورية والاسرائيلية فكل منهما تساند ايران ضد العراق فى حرب الخليج الفارسى ، وكل منهما تكره ياسر عرفات ، وكل منهما لديهما مصلحة فى اكراه عرفات

وتوته على ترك لبنان ، وكل منهما على استعداد لان تقبل ، اذا اقتضى الامر ، أن تعيش فى ظل تقسيم لبنان كحقيقة واقعة رغم انف لبنان ، حتى اذا كان ذلك يعنى قبول تواجد الطرف الآخر فى البلد المقسم ، بتواجد الاسرائيليين فى الجنوب والسوريين فى الشرق والشمال ، كما ان كلا منهما لا تريد اقامة دولة فلسطينية مستقلة فى الضفة الغربية ، وان كلا منهما تحترم قوة الاخرى ، وتحترم بشدة اتفاق فك الاشتباك على طول الحدود الاسرائيلية السورية . ولم يوافق الاسد على كل ما عرضته عليه ، بل حتى انه نفى أن الاسرائيليين يناصرون الايرانيين ، ولكن كان من الواضح انه مهتم بالموضوع . واستمتعنا بهذه المناقشة .

واشرت الى أن الطيارين الاسرائيليين وطائراتهم الامريكية الصنع (اف ــ ١٥) قد قضوا على قوات الدفاع الجوى خلال هجماتهم الجوية فى بداية الحرب اللبنانية . وعندما سألت الاسد عن ذلك ، زعم أن الطائرات السوفيتية التى استخدمها فى يونيو عام ١٩٨٢ كانت جيدة شأنها فى ذلك شأن غيرها من الطائرات ، ولكنه لم يكن قادرا على الحصول على أجهزة الكترونية حديثة لهذه الطائرات . كما اكد أيضا انه لن يرتكب هذا الخطأ مرة أخرى .

ولم ينكر الاسد اعتماده الكبير على السوفييت فيما يتعلق بالاسلحة وبالخبراء العسكريين ، وعندما سألته عن الحكمة وراء هذه العلاقة ابتسم وقال : « هل ستعطينى اى اسلحة ادافع بها عن بلدى ولو حتى مسدسا ؟ » وأنكر بشدة أن للسوفييت أى تأثير فى قراراته ، وضحك بصوت مرتفع بسبب تعليق وزير الدفاع الامريكى كاسبروانبرجر والذى أدلى به مؤخرا بخصوص سوريا وكيف أنها أصبحت دمية فى يد الاتحاد السوفيتى .

وسألته لماذا لم تعترف سوريا مطلقا بلبنان كدولة مستقلة ، وانها تعتبرها جزءا من سوريا الكبرى وبالرغم من علاقاتهما الوطيدة فى عديد من المجالات السياسية والاقتصادية ، فانه لا يوجد سفير لاى منهما فى عاصمتيهما ، وحتى وقت قريب لم تتبادل الدولتان الزيارات بين رؤسائهما . (فبعد الانسحاب الامريكى من بيروت فى أوائل عام ١٩٨٤ فقط استقبل الاسد ، فى لحظة نصر ، رئيس لبنان فى دمشق) .

ونفى الاسد مرارا ان لديه اى أطماع تجاه جارته الغربية ، وأصر على أنه وشعبه يعترفون باستقلال لبنان دون تحفظ ، وخامرنى شعور بالشك فى أن سوريا تفضل أن يكون لها اليد الطولى فى شئون لبنان اكثر من ضمها ، وهذا يشبه علاقة السوفييت بدول اوروبا الشرقية الاكثر اذعانا لموسكو .

واخبرته عن قيامى بفحص كل الخرائط القديمة والحديثة فى دمشق والتى تشــير الى عدم وجود حدود وطنية بين الدولتين ، واعربت عن شكوكى فى استعداده لسحب القوات السورية من لبنان كما سبق ووعــد بذلك . وكرر انه يفضل وجود لبنان حرا مستقلا ، وانه لم يغــير من التزامــه بالانسحاب « عندما تطلب منه ذلك جامعة الدول العربية والحكومة اللبنانية » . وعنــدما كنت فى بيروت بعد أيام قليلة سألت الرئيس امين الجميل عن هذا الموضوع فقال لى : « اننى فهمت الموقف على هذاالنحو »

وفى مايو ١٩٨٣ ، أى بعد مرور شهرين على زيارتنا ، ساهمت الولايات المتحــدة فى التفاوض للتوصل الى اتفاق على الانسحاب بين اسرائيل ولبنان ، ولاحظت ان الاســد اضــاف شرطا آخــر مفــاده : « ان اسرائيل يجب الا تحقق اى فائدة سياسية من غزوها بفرضها شروط تمس سيادة لبنــان » . (والواقع ان هذا كان معنــاه ان تنسحب اسرائيل من لبنان قبل انســحاب سوريا منها ، وكان واضحا انه باستثناء وجود شروط مرضية للتسوية فــان السوريين سيعملون كل ما يرونه ضروريا لضــمان عدم تحقيق أى اتفــاق ســلام او اعتراف دبلوماسى بين اسرائيل والحكومة اللبنانية القائمة . فالاســد لن يتخلى مطلقا عن العلاقة الخاصة القائمة بين بلده وبين لبنــان والتى قامت دون اى اعتراض منذ انشــاء الدولتين الحديثتين ، وأنه سيعارض على وجــه الخصوص أن يكون لاسرائيل اى ميزة فى لبنــان .

وذكرت الاســد بأن الملك حسين وياسر عرفات يحاولان فى ظل اية ظروف ، أن ينضما الى محادثات الســلام مع اسرائيل ومصر والولايات المتحــدة كمــا جاء فى تصريح ريجان فى سبتمبر ١٩٨٢ ، وحاولت دون جدوى اقتنــاع الاسد بعــدم التدخل فى القرار ، ولكنه لم يتزحزح عن موقفه الذى يتلخص فى أن السبيل الوحيــد للتعامل مع اسرائيل يجب أن يتم مع وجــود صــوت عربى موحــد ، ومع مشاركة فلسطينية كاملة وفى اطــار اجتماع تتبناه الامم المتحدة يشترك فيه السوفييت شأنهم شــأن الامريكيين .

وفى نهاية اجتماعنا الاول الطويل لاحظنا وجــود لوحــة كبيرة لمعــركة حطين فى عام ١١٨٧ على حائط حجرة مكتب الاســد ، وفى هذه المعركة التاريخية قام القائد المسلم (صلاح الدين بهزيمة الغزاة المسيحيين ، وسقطت مملكــة الصليبيين فى القدس فى أعقاب هذه المعركة ، وحقق العرب نصر مبينا عــلى الغرب .وعندما وقف الاســد امام هذا المشهد المشرق شارحا تاريخ الصليبيين والمعارك القديمة السابقة لاستعادة الاراضى المقدسة ، كان يبدو عليه نوع من الاعتزاز ، وهو يعيد علينا تفاصيل النجاحات العربية فى الماضى والحاضر . وكان يــبدو عليــه أنــه يتقمص شــخصية صــلاح الدين الحــديث الــذى

يشعر بأن عليه التزاما مزدوجا ، يتلخص فى تخليص المنطقة من كل تواجد أجنبى وابقاء دمشق للوحدة العربية ولم يكن يدرى كيف ستحقق آماله الخاصة بتحقيق نصر عربى فى لبنان بسرعة .
وحتى قبل قيام القوات الامريكية بالانسحاب من بيروت فى أوائل عام ١٩٨٤ فان أغلب توقعات الأسد قد تحققت ، وتحسن الوضع فى سوريا بشكل مثير · فقد تم الاعتراف بالرئيس السورى بصفة عامة كشخصية رئيسية فى رسم مستقبل لبنان ، وفى التأثير على مجرى الجهود المبذولة لتحقيق الاستقرار والسلام فى منطقة الشرق الأوسط بأسرها ، وكان الأسد واثقا من ان السوريين أصبحوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم بفاعلية أكبر بعد أن تسلحوا بالاسلحة السوفيتية الحديثة والمتطورة · ولكن الذكريات المؤلمة التى أصابت قواته أثناء تعاملها مع الاسرائيليين لم تغب عن تفكيره ·

ومع الانهيار الامريكى فى لبنان فان القوة النسبية للدولتين العظميين قد تعرضت لتحول كبير فى المنطقة ، فقد اصبح السوفيت ، من خلال تعاونهم الوثيق مع سوريا ، قوة لها نفوذها فى هذا الجزء من الشرق الاوسط لم يسبق لهم تحقيقها ·

وفى الوقت نفسه وصلت العلاقات الامريكية السورية ادنى مستوياتها وقد عبر الاسد عن هذه الحقيقة فى اغسطس عام ١٩٨٤ بقوله :(ان الولايات المتحدة ليس لها رأى مستقل أو سياسة امريكية فى هذه المنطقة · ان الولايات تنفذ السياسة التى تقررها اسرائيل · ان عدونا الاساسى هو الولايات المتحدة وليس اسرائيل) ·

وعلاوة على ذلك فان هذه التطورات فى الشرق الاوسط كانت لها دلالاتها الواضحة ، فقد استطاع الفلسطينيون ـ الذين تساندهم سوريا ـ اجبار عرفات على مغادرة شمال لبنان فى ديسمبر عام ١٩٨٣ ، وأصبح الاسد فى وضع يمكنه من التحدث ، على الاقل ، باسم الفلسطينيين فى منطقته ، وباستثناء التواجد الاسرائيلى فى جنوب لبنان ، فان جميع القوات الاجنبية قد خرجت من البلاد ، وأصبح السوريون قادرين على تنسيق تحالف جديد يضم الاجنحة السياسية اللبنانية التى اتبعت خطوات متعثرة نحو تسوية مواجهاتها الدموية الطويلة · واستعرض الاسد فى مارس عام ١٩٨٤ قوته فى المنطقة باجباره اللبنانيين على الغاء اتفاقية الانسحاب التى وقعوا عليها مع اسرائيل فى العام السابق ·

وبعد أن أصبحت سوريا القوة العربية السائدة فى المنطقة ، طالما بدت أنها ترغب فى قبول توازن عسكرى وسياسى ضمنى مع اسرائيل ، أو أن تبقى على منأى منها ، ولكن الان فان الاسد يمكن أن يعتبر هذا مجرد تسوية مؤقتة

فيما يختص بلبنان وكان يعلم مدى شعبية الاحتلال الاسرائيلى للبنان داخل اسرائيل ، وكانت لديه القدرة على التعجيل بالانسحاب الاسرائيلى بتشجيع العناصر المعتدلة نسبيا مثل زعماء الشيعة الدينيون باتخاذ موقف أكثر تشددا ازاء القوات المحتلة التى كانت لا تزال فى الجنوب اللبنانى .

وكان يبدو أن السوريين سوف يسحبون قواتهم على أثر الانسحاب الاسرائيلى غير المشروط من لبنان ، ومن ثم ، يصبح الاسد غير مطالب بحماية المصالح السورية بالقوة المسلحة اذا كانت هناك حكومة تتمشى معه بصورة معقولة فى بيروت . الا انه سيظل يلعب دورا بارزا فى لبنان ، كما سيصبح فى نفس الوقت مهيمنا على الجهود التى تبذل فى المستقبل لصياغة شروط سلام بين اسرائيل وجيرانها الآخرين . كان الهدف الاساسى هو منع اجراء اى مفاوضات بين اسرائيل والاردن ومصر والولايات المتحدة تحت مظلة اتفاقيات كامب ديفيد او بيان ريجان لعام ١٩٨٢ . ولم يكن هناك ادنى شك فى ان الاسد كان قد سبق له ان استخدم كل من الوعود والتهديدات فى الاردن وداخل منظمة التحرير الفلسطينية لحملهما على رفض اية محادثات من هذا القبيل .

ومع ذلك فحتى مع موقفه القوى فان الاسد لم يكن يستطيع ان يذهب ابعد من ذلك ، ومع تمسكه بموقفه العنيد ضد اى سلام ، ومع علاقاته القوية مع المنشقين العديدين عن منظمة التحرير التحدير الفلسطينية فان الاسد من الممكن تجاهله مرة اخرى ، ومن الممكن ايضا أن يفقد وجوده المهيمن الذى اكتسبه خلال الحرب فى لبنان . كما ان محاولاته الواضحة للسيطرة على الحركة الفلسطينية بالتحكم فى عرفات او تدميره لم تكن ناجحة ، فضلا عن انها اثارت ادانة واسعة للنطاق بين العرب الآخرين . كما ان اغلب الفلسطينيين يعارضون اية منظمة يسيطر عليها السوريون ، بل ان سكان الضفة الغربية وغزة يدينون ، على وجه الخصوص الاسد لاشتراكه مع الفلسطينيين المنشقين فى عملية طرد ومؤيديه من شمال لبنان فى آخر عام ١٩٨٣ .

ومن المحتمل أن يسيطر الاسد على لبنان ، ولكنه حتى هناك يواجه مشاكل لها ثقلها ، فالصراع على السلطة السياسية سيظل مستمرا بين المسيحيين المارونيين وبين معارضيهم من الطوائف الدينية الاخرى . وزعماء جميع الطوائف الذين قاتلوا لفترة طويلة من اجل الحصول على سلطات اضافية فى لبنان سوف يقل اعتمادهم على الاسد نصيرهم السياسى وسيكون عليه أن ينتهج طريقا صعبا للاحتفاظ بنفوذه دون اثارة موجة أخرى من العنف ، وعلاوة على ذلك كان ينبغى أن يكون الاسد حذرا من الشيعة اللبنانيين الذين إصبحوا منصهرين تماما مع حماس شيعة الخمينى فى ايران ، وهذا الحماس يمكن أن يتحول ضد نظام الاسد الذى له اتجاهات علمانية بشكل واضح .

وبالاضافة الى ذلك فان الاسد يواجه مشاكل كامنة مع جيرانه وغيرهم من الذين سوف يلعبون دورا هاما فى الشرق الاوسط : فان خلافاته مع صدام حسين مع وجود عراق قوى تبدو أنها لا تقبل المصالحة .

● ان مساندته لايران قد تسببت فى وجود قلق عميق بين الدول العربية الاخرى فى شبه الجزيرة العربية ، وتعتبر بمثابة عامل حاسم فى تثبيط المساعى الخاصة بتحقيق وحدة بين العالم العربى .

● أن مساندته المباشرة للثورة الدموية ضد منظمة التحرير الفلسطينية جعلت دوافعه مشبوهة بين أغلب الفلسطينيين .

● أن علاقاته مع زعماء الاردن ومصر متوترة الى حد كبير . وقد أزالت نشاطاته المعادية التى يمارسها ضد منظمة التحرير الفلسطينية على الاقل احدى العقبات التى كانت تحول الملك حسين وعرفات دون اتخاذ أى اجراء أكثر استقلالية من جانبهما ، وشجعت دخول مصر من جديد فى حظيرة العرب .

● يعتبر الاسد ، فى أمريكا ، بمثابة عدو للسلام والمحرض الاول وراء الهجمات ضد قوات البحرية الامريكية فى بيروت .

● قد يظل اعتماده المتزايد على الاتحاد السوفيتى يلاحقه لسنوات قادمة حيث يطالبه السوفييت اما بالتسديد أو بالاذعان لافكارهم .

وبالرغم من أنه أظهر نفوذا سلبيا فقط حتى الآن بسبب نزعاته وميوله ، روزفلت الذى كان رئيسا للولايات المتحدة) فان قاعدته السياسية الطبيعية ليست قوية ، فطائفة العلويين التى ينتمى اليها تمثل فقط حوالى عشرة فى المائة من الشعب السورى ، وعليه أن يتخذ تدابير مشددة عندما يتحدى القوى السياسية المعارضة لسلطته كما ظهر فى مارس عام ١٩٨٤ . وكان هذا التمرد الوليد قد ساد البلاد عندما اشيع أن الاسد يعانى من مرض خطير ، وهذا دليل واضح على وضعه المزعزع . وانطباعى هو ان الاسد يعتبر انسانا طموحا للغاية ، ولكنه يستطيع أن يتحلى بالصبر والمرونة وهو يسعى لتحقيق اهدافه النهائية . ويعتبر تصرفاته ونفوذه على منظمة التحرير الفلسطينية ولبنان وحتى الاردن خلال السنوات العديدة السابقة دليلا على أنه قد عقد العزم على تقييد تصرفاتهم المستقلة بالنسبة لعملية السلام .

وبالرغم من انه أظهر نفوذا سلبيا فقط حتى الآن بسبب نزعاته وميوله ، فانه يستطيع حتى أن يكون العامل الحافز الاول فى التوصل الى اتفاقية سلام شاملة فى الشرق الأوسط ، فهو لا يريد أن يكون معزولا ومستبعدا عن أية عملية من عمليات السلام يكون من شانها تحقيق أى تقدم ، لكنه سيتمسك —

تحت أيـــة ظروف ـــ بحماية المصالح الســـورية وبضرورة الاعتراف بدوره فى عملية التفاوض .

ومثل هذا السلام يمكن ان يتفق مع الاطار العام للتفسير المعروف لقرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ . وحتى مع ذلك فانه من غير المحتمل أن يتخلى الاســـد عن حلمه النهائى فى تحقيق أمـــة عربية متحدة تمتد من الشواطىء الغربيـــــة والشرقية للبحر الابيض المتوسط وتتجه شرقا حتى الخليج الفارسى وربما يحلم ايضا بأن يكون حافظ الأسد زعيما لهذه الامة .

باهرا ، ورئيسا لتحرير احدى الصحف اليمينية . كذلك كان أمين الجميل على استعداد للتعامل مع أى من جيرانه المجاورين له فى ذلك الوقت ، ومع ذلك فمن المعتقد انه يفضل السوريين على الاسرائيليين .

يقع قصر الرئاسة الفاخر على قمة احد التلال التى تطل على بيروت ، والتقينا بالرئيس اللبنانى فى احـدى القاعات الفسيحة . وتعاطفت معـه . لانه كان من المعروف عنه تماما انه حاول أن يحكم دولـة منقسمة انقسامات عميقة بين الجماعات الدينية والعرقية ، ولكل منها قوات ميليشيا خاصة بها . ولم يكن ولاؤها لأية حكومة مركزية ، ومن المشـكوك فيـه أن الجميل يسيطر سيطرة تامة على أى جزء من أجزاء بلاده باستثناء حفنة من الجاليات المقيمة حول بـيروت .

وعندما وصلنا الى مكتبه ، سألنى الرئيس الجميل على الفور عن الاجتماعات الأخيرة التى عقدتها مع غيره من القادة فى اسرائيل والدول العربية . واطلعته على أكبر قدر استطعت أن أطلعه عليه من المعلومات بدون افشاء الاسرار . وعندما ناقشنا المحادثات التى أجريتها مع الرئيس السورى حافظ الأسد ، سألته عن البيان الذى أدلى به الأسد ويفيد بأنه سيسحب القوات السورية اذا طلب منه ذلك بعد خروج القوات السورية اذا طلب منه ذلك بعد خروج القوات الاسرائيلية من لبنان . وبعد التفكير للحظة ، قال الجميل بهدوء ، « اننى فهمت الموقف على هذا النحو » . وسألته عما سيفعله اذا غادرت كافة القوات الاجنبية بلاده فجأة . فأعرب ، بنوع من التهور ، عن ثقته التامة فى انه يستطيع التعامل بنجاح مع الدروز السنيين والمسلمين الشيعة ، وغيرهم من الطوائف المسيحية الاخرى ، ويعيد النظام ويخفف من حدة المشاكل الجسيمة التى يتعين على اللبنانيين مواجهتها مع بعضهم البعض .

لقد اتضح لى أنه هو وقواته لم يكونوا اقوياء بدرجة تكفى للسيطرة على المناطق المتنازعة أو أن يجمع شمل الطوائف اللبنانية فى اى صورة من صور الوحدة . ووجهت اليه بعض الاسئلة فيما يتعلق بهذا الموضوع ، وفى النهاية صرح لى بأنه يحتاج الى ستة اشهر اخرى ليكون مستعدا لهذا التحرك ، الامـر الذى ربما يعنى ، وفقا لافتراضى ، ضرورة بقاء القوات الاجنبية لمدة أطول . وطالما أن السوريين والاسرائيليين لم يصدروا أية اشارة بصدد مغادرتهم على أية حال ، فاننى لم اشعر بميل نحو متابعة الموضوع أكثر من ذلك . انه يعانى من قدر كبير من المشاكل بما فيه الكفاية ومن ثم فليس فى حاجة الى اثارة المزيد من الشكوك حول المستقبل السياسى لبلاده الذى ما زال موضع شك الى حد كبير .

ان لبنان طالما عاش فى ظل انقسامات سياسية . فالمنطقة تضم جاليات مسيحية منذ بداية القرن الحالى وظلت مسيحية اساسا حتى بعد أن أصبحت

كل مكان ، والمبانى التى مازالت قائمة ، مليئة بالفجوات بسبب قصف القنابل ، ولا يخلو كل مبنى من المبانى من مئات الثقوب التى أحدثتها القذائف والشظايا . ومما يثير التعجب أن ترى اطفالا صغارا يلعبون حول اقدام الجنود تعبيرا عن رفضهم المعارك الاخيرة كما لا يـزال هناك اناس يعيشون فى بعض المنـازل الخـربة .

سرنا بسرعة جنونية وظلت السيارة تطلق بوقها فى الطريق الملتوى داخل المدينة . ثم اتجهت نحو الشرق بين التـلال صوب قصر رئيس الجمهورية . وبدت الصورة وكأن هناك شعارا أو رمزا مختلفا أو زيا أو علمـا مختلفا كل بضع مئـات من الياردات . وتعرفنا على الـزى العسكرى الرسمى الفرنسى والايطالى . وقال السائق ان هناك جنودا بريطانيين أيضا وعلى الاقل نوعين من رجال الميليشيا اللبنانيين . وقد عبرت القوا تالمختلفة عن التاريخ السياسى الحديث للبنان : فهناك وجود لقوى خارجية وغياب للتماسك الداخلى للبلاد . وبعد رحلة استغرقت عشرين دقيقة ، كان الرئيس الشاب الوسيم ومستشاروه فى استقبالنا .

لقد اصبح أمين الجميل رئيسا لجمهورية لبنان منذ خمسة اشهر فقط ؛ فى أعقاب اغتيال شقيقه بشير ومذبحـة الفلسـطينيين والمسلمين اللبنانيين فى معسكرات اللاجئين بصبرا وشاتيلا . وكان الياس سركيس رئيسا للبـلاد فى وقت الغزو الاسرائيلى فى يونيو عام ١٩٨٢ . وعندما استقال فى شـهر اغسطس قام البرلمان اللبنانى بانتخاب بشـير الجميل . وساد قدر كبـير من القلق ازاء اختياره لان الشاب المسيحى المارونى ، قائد قوات الميليشيا ، كان معروفا عنه حرصه على اللجوء الى العنف ضد أعضاء الجماعات الطائفيـة الاخرى سعيا وراء تحقيق غاياته السياسية وحباً فى الانتقام عندما يلحق أسرته أو عشيرته الضرر . والمعروف عنه أيضا أنه وثيق الصلة بالاسرائيليين وانـه كان يمقت المتشددين الفلسطينيين ويحتقرهم . ولكن بشير الجميل قد قتـل وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره نتيجة لتعرضه لانفجار قنبلة فى مقر الكتائب ، قبل توليه مهام منصبه الجديد . وبعد أسبوع ، أى فى ٢١ سبتمبر تم انتخاب شقيقه أمين الجميل رئيسا للجمهورية وهو فى الاربعين من عمره .

أن الرجلين يختلفان عن بعضهما البعض اختلافا تاما من حيث المـزاج والميول . فالمعروف عن أمين أنه مسالم ويميل الى التـوفيق بـين الاطراف المتعارضة ، ولكنه ليس فطنا من الناحية السياسية مثل شقيقه . لقـد قاتل بشجاعة بين القوات الكتائبية ولكنه يمقت العنف . واتخذ موقفا وديا نحـو الفلسطينيين فى لبنان ، بل أنه حتى خلال الحصار الاسرائيلى لبيروت ، التقى بقادة منظمة التحرير الفلسطينية فى محاولة لحماية مصالحهم ولتسوية الخلافات التى أثارت الفتنة بين صفوف شعبه . كان محاميا ، ورجـل أعمـال ناجح

باهرا ، ورئيسا لتحرير أحدى الصحف اليمينية . كذلك كان أمين الجميل على استعداد للتعامل مع اى من جيرانه المجاورين له فى ذلك الوقت ، ومع ذلك فمن المعتقد أنه يفضل السوريين على الاسرائيليين .

يقع قصر الرئاسة الفاخر على قمة احد التلال التى تطل على بيروت ، والتقينا بالرئيس اللبنانى فى أحـدى القاعات الفسيحة . وتعاطفت معـه ، لانه كان من المعروف عنه تماما انه حاول أن يحكم دولـة منقسمة انقسامات عميقة بين الجماعات الدينية والعرقية ، ولكل منها قوات ميليشيا خاصة بها . ولم يكن ولاؤها لأية حكومة مركزية ، ومن المشـكوك فيـه أن الجميل يسيطر سيطرة تامة على أى جزء من أجزاء بلاده باستثناء حفنة من الجاليات المقيمة حول بـيروت .

وعندما وصلنا الى مكتبه ، سألنى الرئيس الجميل على الفور عن الاجتماعات الأخيرة التى عقدتها مع غيره من القادة فى اسرائيل والدول العربية . واطلعته على أكبر قدر استطعت أن أطلعه عليه من المعلومات بدون افشاء الاسرار . وعندما ناقشنا المحادثات التى أجريتها مع الرئيس السورى حافظ الأسد ، سألته عن البيان الذى أدلى به الأسد ويفيد بأنه سيسحب القوات السورية اذا طلب منه ذلك بعد خروج القوات السورية اذا طلب منه ذلك بعد خروج القوات الاسرائيلية من لبنان . وبعد التفكير للحظة ، قال الجميل بهدوء ، « اننى فهمت الموقف على هذا النحو » . وسألته عما سيفعله اذا غادرت كافة القوات الاجنبية بلاده فجأة . فأعرب ، بنوع من التهور ، عن ثقته التامة فى أنه يستطيع التعامل بنجاح مع الدروز السنيين والمسلمين الشيعة ، وغيرهم من الطوائف المسيحية الاخرى ، ويعيد النظام ويخفف من حدة المشاكل الجسيمة التى يتعين على اللبنانيين مواجهتها مع بعضهم البعض .

لقد اتضح لى أنه هو وقواته لم يكونوا أقوياء بدرجة تكفى للسيطرة على المناطق المتنازعة أو أن يجمع شمل الطوائف اللبنانية فى اى صورة من صور الوحدة . ووجهت اليه بعض الاسئلة فيما يتعلق بهذا الموضوع ، وفى النهاية صرح لى بأنه يحتاج الى ستة اشهر اخرى ليكون مستعدا لهذا التحرك ، الامـر الذى ربما يعنى ، وفقا لافتراضى ، ضرورة بقاء القوات الاجنبية لمدة أطول . وطالما أن السوريين والاسرائيليين لم يصدروا أية اشارة بصدد مغادرتهم على أية حال ، فاننى لم أشعر بميل نحو متابعة الموضوع أكثر من ذلك . انه يعانى من قدر كبير من المشاكل بما فيه الكفاية ومن ثم فليس فى حاجة الى اثارة المزيد من الشكوك حول المستقبل السياسى لبلاده الذى ما زال موضع شك الى حد كبير .

ان لبنان طالما عاش فى ظل انقسامات سياسية . فالمنطقة تضم جاليات مسيحية منذ بداية القرن الحالى وظلت مسيحية اساسا حتى بعد أن أصبحت

سوريا دولة اسلامية . ولقد قطع المارونيون صلتهم بالبابا فى القرن السابع بسبب مسائل عقائدية ولكنهم عادوا الى الحظيرة الرومانية بعد ذلك بخمسة قرون . وفي ذلك الوقت ، استقرت طوائف الدروز والمسلمين وغيرهم من الجماعات المسيحية فى منطقة لبنان.وقد سمحت تضاريس البلاد لمختلف الطوائف الدينية بأن تعيش فى عزلة وتحافظ على هويتها وحكمها الذاتى عبر القرون ، حتى حينما كانت هذه المنطقة جزءا من الامبراطورية العثمانية زهاء ٤٠٠ عام ، اى منذ عام ١٥١٦ حتى الحرب العالمية الأولى .

ونظرا لوجود المبشرين المسيحيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر فان المارونيين اقاموا روابط اجتماعية ودينية قوية مع فرنسا الكاثوليكية . وعندما تعرض وجودهم ذاته للخطر فى حرب أهلية مع الدروز المقاتلين الجبليين الشرسين عام ١٨٦١ ، أرغم الفرنسيون السلاطين الاتراك على حماية أصدقائهم المسيحيين باقامة منطقة مسيحية صغيرة محاطة بأرض اجنبية عرفت فى بادىء الامر باسم جبل لبنان . وتم وضع النظام الحاكم بحيث يسمح لحاكم مسيحى مارونى بأن يحكم البلاد ومعه مجلس مكون من ١٢ عضـوا : أربعة مسيحيين مارونيين ، وثلاثة من الدروز واثنين من اليونانيين الارثوذكس ، وعضو واحد يونانى كاثوليكى وعضو واحد من المسلمين السنيين وعضو واحد من المسلمين الشيعة . وتم توزيع السلطة السياسية وفقا لصيغة عددية تقوم على أساس التعداد المقدر لمختلف الطوائف الدينية وهذا النظام الذى حظى بالتدعيم والمحافظة عليه بطريقة ثابتة ومثيرة للاعجاب عبر الاجيال روعى ان يكون مرنا بما فيه الكفاية لمواكبة التغييرات المعروفة فى عدد السكان .

وبعد الحرب العالمية الاولى ، سيطر الفرنسيون على كل من لبنان وسوريا . وقام الفرنسيون بادماج مختلف الطوائف الدينية والعرقية بطريقة تعسفية ، فى لبنان الكبرى وذلك بأن اضفوا الى جبل لبنان المارونى المدينتين الاسلاميتين بيروت وطرابلس ، ومنطقة الشيعة الاسلامية بجنوب لبنان ، ووادى البقاع الخصيب تجاه الشرق الذى احتله المسلمون والمسيحيون الارثوذكس اليونانيون (الذين اعتبروا أنفسهم سوريين اكثر من كونهم لبنانيين) . وبدلا من أن يكون المارونيون اغلبية اصبحوا الآن اكبر جماعة أقلية ، ولكن الفرنسيين حرصوا على تأكيد أن مجمل السكان المسيحيين قد فاق عدد المسلمين والدروز . ونظرا لأن لبنان تضم اقليات دينية وسياسية ، فقد تعين ابرام نوع من الاتفاق الاجتماعى بين هذه الجماعات من أجل تماسك المجتمع القومى الهش بعضه مع البعض الآخر . والآن تضم الهيئة الحاكمة الجديدة المكونة من خمسة عشر عضوا ، ستة مارونيين وثلاثة من الأرثوذوكس اليونانيين وواحد من الكاثوليك اليونانيين واثنين من الشيعة واثنين من السنيين وواحدة من الدروز .

وفيما بعد ، وفى ظل الانتداب الفرنسى ، وبناء على دستور لبنان لعام ١٩٣٦ جاء البرلمان بقائمة نسبية للاعضاء بنسبة ستة من المسيحيين وخمسة من المسلمين ، وذلك على أساس التعداد السكانى فى ذلك الوقت . وعلى الرغم من أنه لم يتم اجراء أى احصاء رسمى للسكان منذ عام ١٩٣٢ ، الا أن النسبة العددية ظلت بصورة تعسفية على نفس وضعها . ويتم اختيار رئيس الجمهورية بثلثى أصوات اعضاء مجلس الامة هذا ، وأصبحت عادة غير مكتوبة أن يكون رئيس الدولة مسيحيا مارونيا وأن يكون رئيس الوزراء من المسلمين السنيين وأن يكون رئيس البرلمان من المسلمين الشيعة . ويتم شغل المناصب الحكومية الاخرى طبقا للنطاق التقليدى للطوائف الاخرى ، فعلى سبيل المثال يتولى واحد من الدروز منصب وزير الدفاع ، ويتولى واحد من الارثوذوكس اليونانيين منصب وزير الخارجية وهكذا دواليك .

وقد اصبح الاحتفاظ بهذه المخصصات فى السلطة السياسية هدفا من اهم اهداف القوى المسيحية فى وجه تزايد عدد السكان المسلمين فى دولة عرفت رسميا بأنها عربية الهوية . ولا يرى المسيحيون اللبنانيون أى تطابق مع هذا التعريف لهوية لبنان . وباستثناء لبنان ، يشكل العرب المسيحيون أقلية صغيرة نسبيا فى الشرق الأوسط ، ولكن المسيحيين الذين يبلغ تعدادهم ستة ملايين نسمة فى الدول العربية يفاخرون بأن تراثهم الدينى يسبق التراث الدينى للمسلمين . ويشيروا الى ان المسيحية كانت تعتبر الديانة العربية الرسمية خلال القرن الخامس ، وبعد مرور ٦٠٠ سنة ، بعد وفاة النبى محمد (ص) ، مازالت اغلبية سكان سوريا الكبرى من المسيحيين .

وقد خلق التقسيم المتساو نسبيا فى لبنان بين الديانتين التوحيديتين ، مشكلة فيما يتعلق باقتسام السلطة ، بينما تناضل الطوائف الاخرى من أجل حماية نفوذها السياسى والجغرافى . ان الولاء للاسرة وللجماعة الدينية يفوق اى التزام نحو الوحدة القومية . ولقد اصبحت الترتيبات السياسية القديمة « موضة قديمة » ، نظرا لتزايد عدد السكان المسلمين وتحولهم الى أغلبية ، وحالت المخاوف من احتمال التعرض للاكتساح الساحق من جانب طائفة عرقية اخرى ، دون اندماج السكان المتعددين العناصر فى لبنان . ولطالما غذت الاطراف المغرضة ، ذكريات الضيم والصراعات الماضية ، لفترات طويلة ، ولطالما عجلت بنشوب اعمال العنف المستمرة للانتقام والثأر .

واملا فى حماية نفسها وفى أن تسيطر على مسرح الاحداث القومية المضطربة شكلت الطوائف السياسية والدينية ميليشيات مستقلة ، وكثيرا ما كانت الطوائف على استعداد لأن تدعو الدول الاجنبية لان تتوسط لصالحها . فأيد الاتراك المسلمون الدروز وتدخل الفرنسيون لحماية المسيحيين المارونيين ، أما الروس فقد أيدوا الارثوذوكس الروس ، وانحاز السوريون فى مناسبات

مختلفة الى أطراف مختلفة . وتعاون الاسرائيليون والمارونيون بصورة وثيقة كحلفاء عسكريين . وتدخل الامريكيون والمصريون أيضا لفترات قصيرة عندما كانت الفوضى الخطيرة تشكل تهديدا لوجود الدولة اللبنانية . لقد كان معظم الزعماء الاجانب يتحركون بخفة نوعا ما فى المجال السياسى ، اذ كانوا يحولون انحيازهم تمشيا مع الظروف المتغيرة فى لبنان ودائما ما كانوا يتطلعون الى الحصول على كسب ما مقابل تورطهم ، وغالبا ما يكون ذلك على حساب اللبنانيين .

لقد كاد يكون من المستحيل بالنسبة لى أن أتذكر مختلف التحيزات والطوائف فى لبنان حينما كنت رئيسا للجمهورية ، ولذلك فقد أصدرت فى النهاية تعليماتى لوكالة المخابرات المركزية الامريكية ، بأن تضمن فى تقريرها اليومى الذى تقدمه لى مرة واحدة على الاقل فى الاسبوع ، وصفا موجزا للطوائف السياسية والدينية ، وقادتها الحاليين ، وحجم كل قوة من قوات الميليشيا وفعاليتها ، وأية علاقات أجنبية تربطها بها ، والتغييرات الاخيرة فى أوضاعها . وعند ذلك فقد استطعت أن أفهم التقارير الصحفية الواردة من البلد الذى تسوده الاضطرابات .

ولطالما زعم رؤساء لبنان أن السياسة الخارجية لبلدهم محايدة ، وحاولوا أن يسيروا على خط متحرك بين الشرق والمغرب وبل اسرائيل وسوريا ، ولم ينجحوا بصفة دائمة ولكن اللبنانيين على الأقل لم يشكلوا تهديدا لأى من جيرانهم . وعلى العموم ، ورغم حسن نوايا جهودهم فقد عانت دول أخرى قليلة فى العصور الحديثة مثل ما عانت لبنان نتيجة لمثل هذا التنوع فى القوى الأجنبية .

ان معظم اللبنانيين ، رغم تفضيلهم للاستقلال ، يرغبون تاريخيا فى اقامة روابط وثيقة مع سوريا ، بأعدادها الكبيرة من المسلمين وبعض المسيحيين ، بل ويطالبون باقامة وحدة بين الدولتين . وفى ظل الانتداب الفرنسى الذى استمر الى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، كانت أجهزة النقل والاتصالات والطاقة الكهربائية والعملة وبعض الوظائف الادارية ، تقدم خدماتها للبنان وسوريا بصفتهما وحدة واحدة . وفى عام ١٩٤٣ تم تشكيل تحالف وطنى لتسوية بعض النزاعات المستمرة حول التوجيه الدولى للبنان ، وبمقتضاه وافق المسيحيون المارونيون على قطع روابطهم مع فرنسا ، وآعتبار اللغة العربية ، اللغة الرسمية ، ووعد القادة المسلمون بقبول الانفصال التام عن سوريا . وفى عام ١٩٤٦ ، عندما غادر آخر فوج من القوات الفرنسية ، المنطقة واصبحت سوريا ولبنان مستقلتين ، ظلت جوانب كبيرة من العلاقات الشخصية والدينية بين البلدين بدون تغيير .

وفى أواخر الخمسينيات ، اصبح الرئيس المصرى جمال عبد الناصر بطلا بالنسبة لمعظم دول العالم العربى عندما استعاد السيطرة على قناة السويس بعد طرد القوات البريطانية من بلاده . وكان هذا هو بداية دعوته الى تحقيق وحدة عربية شاملة . ودعمت شعبيته الى حد كبير من نفوذ المسلمين فى لبنان، وحفزت على التشدد فى المطالبة بزيادة التمثيل فى الحكومة الى الحد الذى عرضت معه الميزان السياسى الذى أمكن تحقيقه بعناية لتهديد حرب أهلية . وبناء على طلب كميل شمعون رئيس الجمهورية اللبنانية المسيحى ، أرسل الرئيس دوايت ايزنهاور ، قوات أمريكية الى لبنان عام ١٩٥٨ للحفاظ على النظام .

وظلت الحدود المشتركة بين لبنان واسرائيل اللتين ولدتا كجمهوريتين جديدتين فى اواخر الاربعينيات هادئة نسبيا لمدة عشرين عاما . وفى اثناء حرب ١٩٦٧ بين اسرائيل وجيرانها الآخرين ـ سوريا والأردن ومصر ـ حرصت لبنان على أن تظل على الحياد ، ولكن كمواطنين فى دولة عربية ، نددت الغالبية العظمى من الشعب اللبنانى بالاسرائيليين . ووجه هؤلاء اللبنانيون ايضا اللوم الى اسرائيل بسبب تدفق ما يزيد على مائة الف لاجيء فلسطينى ، على لبنان بعد انشاء اسرائيل .

وفى عام ١٩٧٠ ، خلقت حرب اهلية نشبت فى الاردن ، موجة اخرى من اللاجئين الذين تحركوا صوب لبنان ، معظمهم من الفلسطينيين الذين عاشوا فى غرب نهر الاردن قبل حربى ١٩٤٨ ، ١٩٦٧ . وزاد الوافدون الجدد من حجم صفوف الفلسطينيين ليقترب عددهم من نصف المليون ، واضطر كثيرون منهم الى الاقامة فى معسكرات دائمة للاجئين .وعجل هذا الجمهور الغفير من الفلسطينيين المشردين من اثارة مناقشات سياسية حادة حول الطريقة التى يتعين بها معاملة الوافدين الجدد . وطبقا لما هو متوقع ، فانهم وجدوا اكبر قدر من التأييد والتعاطف بين المسلمين ، ولكن نظرا لأنهم أصبحوا متشددين بصورة متزايدة، فان اللبنانيين بجميع طوائفهم اصبحوا مستاءين منهم او خائفين .

وعلى عكس سوريا ومصر والاردن ، فان لبنان لم يكن لديها حكومة مركزية قوية او قوة عسكرية منسقة لمقاومة المتشددين الفلسطينيين أو السيطرة عليهم . وبانشاء ما يعتبر فى الواقع بمثابة دولة داخل دولة ، فان منظمة التحرير الفلسطينية قامت بادارة شئون جميع اللاجئين ، وتوفير الرفاهية والرعاية الصحية والتعليمية والقضائية وغيرها من الخدمات ، والتعامل مع الكثير من الدول الاجنبية على قدم المساواة وتوجيه قوات ميليشيا مهيبة . واصبحت منظمة التحرير الفلسطينية واليساريون اللبنانيون على درجة من القوة تكفى لتحدى سيادة حكومة الدولة والسيطرة على اجزاء كبيرة من البلاد . وبالإضافة الى ذلك ، فان وجود الفلسطينيين والغارات المتكررة التى يشنونها على اسرائيل

قد عجلت بقيام الاسرائيليين بتوجيه ضربات انتقامية مباشرة وقوية ضد معاقل منظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان ، بل وحتى ضد المنطقة الوسطى المكتظة بالسكان فى بيروت نفسها . وتم توجيه معظم مشاعر العداء التى تولدت عن هذه الأحداث الى الفلسطينيين لبدئهم بشن هجماتهم .

هذا وقد تدهور الموقف بسرعة بينما حاولت القوات المسيحية المارونية والجماعات اليمينية ، السيطرة على الفلسطينيين وحلفائهم اليساريين . ونشبت حرب أهلية شاملة فى مستهل عام ١٩٧٥ أسفرت عن مقتل ما يزيد عن ٦٠ ألف لبنانى وتشريد ما يزيد عن مليون من ديارهم . وعندما نجح الفلسطينيون واليساريون اللبنانيون فى السيطرة على ثلاثة أرباع البلاد ، بعث الرئيس السورى حافظ الاسد فى عام ١٩٧٦ بأعداد كبيرة من القوات السورية الى البلاد التى مزقتها الحرب ، لمساندة القوات المارونية ولانهاء الحرب الاهلية . وعلى ما يبدو كان المقصود من هذه الخطوة هو حماية المصالح العسكرية والاقتصادية السورية ، ولكنها حظيت بموافقة كل من الحكومة اللبنانية واسرائيل والولايات المتحدة ، وفيما بعد الجامعة العربية ، بينما اعترض عليها الاتحاد السوفييتى اعتراضا شديدا .

وعلى الرغم من ان الدولتين مستقلتان وهناك احتمال ان تظلا كذلك ، فان القادة السوريين ما زالوا يعتبرون سوريا ولبنان دولتين لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض وعلى حد قول الرئيس الاسد ، انهما دولة واحدة وشعب واحد . ولا يوجد فى معظم الخرائط السورية أى خط للحدود الوطنية يفصل بين الدولتين ، ولم تفرض سوى قليل من القيود على الانتقال والتجارة بين حدود البلدين ، كما لم تطبق التقاليد الدبلوماسية العادية بين الدولتين .

وعلى الرغم من هذا ، فان الاسد يزعم علانية وفى المجالس الخاصة على السواء أنه سوف يحترم ، على الدوام ، استقلال لبنان ويحافظ عليه . وهو يرفض اى اشارة الى ان تكون قواته « قوات غازية » أو حتى « قوات أجنبية » ويطلق عليها السوريون اسم « القوات الخارجية » ، مذكرا كافة المستمعين أنها تلقت دعوة من قبل القادة اللبنانيين بالدخول الى الاراضى اللبنانية ، وبأن الجامعة العربية وافقت على وجودها . ويصر الاسد على أنه لا هو ولا قواته اعتبروا وجودهم فى لبنان بمثابة اى شىء غير انه وجود مؤقت .

وطالما ظلت القوات الاسرائيلية فى لبنان ، فانه من غير المحتمل اختبار أدعاء الاسد ، ولكن السوريين فى الواقع لم يحاولوا اقامة وجود مدنى دائم فى المناطق التى يسيطرون عليها . لقد عاش أحد الطلبة اللبنانيين الذى شهد ندوة التشاور الخاصة بالشرق الاوسط فى جامعة أمورى الامريكية فى أواخر عام ١٩٨٣ ، فى منطقة وادى البقاع ، وسألته بأمانة عن القوات السورية المرابطة هناك . وعلى الرغم من أنه اعترض بشدة على وجود السوريين أو أى قوات

أجنبية أخرى فى بلاده معبرا عن أمله فى انسحابهم فى القريب العاجل ، فانه كان واقعيا بصدد حقيقة أن السوريين لم يحاولوا قط اقامة مستوطنات من اى نوع ، كما انهم لم يتدخلوا ، على حد قوله ، فى الحياة العادية للفلاحين والقرويين فى المنطقة المحتلة ، الا عندما ينشغلون بالعمل العسكرى .ووفقا لتقديراته ، فان القوات يمكن أن تنسحب تماما خلال يومين من صدور تعليمات بذلك . ويبقى ان ننتظر لنرى ما اذا كانت هذه التعليمات ستأتى على الاطلاق من دمشق .

لقد كانت الهجمات الفلسطينية عبر الحدود الشرقية والشمالية لاسرائيل شائعة قبل حرب ١٩٦٧ ، وكانت الهجمات المسبقة والهجمات المضادة تأتى بصورة منتظمة من كل من الأردن وسوريا ولبنان ، وعندما فرضت الأردن وسوريا قيودا مشددة على المقاتلين الفلسطينيين فيما بعد ، لم يتبق سوى قواعد الفدائيين الموجودة فى لبنان . وبحلول عام ١٩٧٦ ، وعندما تحركت القوات السورية داخل شمال وشرق لبنان ، وجدت اسرائيل بعض الحلفاء بين القوات المسيحية المارونية فى الجنوب ، وبدأت فى امداد القوات المارونية فى جميع أنحاء لبنان بالاسلحة والتدريب . ان الذى جمع فيما بينهم فى بادىء الامر هو العداء المشترك حيال منظمة التحرير الفلسطينية ، ثم جمعتهما فيما بعد الرغبة فى رؤية السوريين وقد تم طردهم من لبنان وفى أن يكون المارونيون فى مركز سياسى أقوى من ذى قبل . كما أراد الاسرائيليون انحيازا سياسياأوثق مع حكومة لبنانية صديقة .

وحتى قبل انتخاب مناحم بيجين وتشكيله لحكومة حزب الليكود فى مايو ١٩٧٧ ، كان بعض المسيحيين المارونيين يحرضون بالفعل الاسرائيليين على دخول لبنان للقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية ولزحزحة السوريين من لبنان . ومهما يكن من أمر ، فانه قد تم الصمود ضد هذا الاغراء حتى مارس ١٩٧٨ عندما شنت اسرائيل غزوا على لبنان وسارت قواتها صوب نهر الليطانى واستخدمت القنابل العنقودية الموجهة ضد الافراد فى بيروت وغيرها من المراكز الحضرية مما أسفر عن مصرع المئات من المدنيين ، وذلك كرد انتقامى على هجوم شنته منظمة التحرير الفلسطينية على أتوبيس عام يحمل مواطنين اسرائيليين .

وبصفتى رئيسا للجمهورية ، فاننى اعتبرت هذا الغزو الكبير بمثابة رد فعل مبالغ فيه على الهجوم الذى شنته منظمة التحرير الفلسطينية ، وتهديد خطير للسلام فى المنطقة ، وربما كجزء من مخطط لاقامة وجود اسرائيلى دائم فى جنوب لبنان . وبالاضافة الى ذلك ، فان مثل هذاالاستخدام للاسلحة الامريكية بما فى ذلك القنابل العنقودية ، يمثل انتهاكا للاتفاقية الشرعية بين الولايات المتحدة واسرائيل والتى تنص على انه لا يمكن استخدام مثل

هذه الاسلحة التى تبيعها الولايات المتحدة لاسرائيل الا فى الاغراض الدفاعية فى مواجهة اى هجوم على اسرائيل .

وعلى الرغم من التصريحات التى عبرت فيها عن قلقى ، وعلى الرغم من الاحتجاج العالمى ، فقد بدأ بيجين مصمما على الاحتفاظ بقواته فى لبنان لفترة اخرى — كما بدأ مصمما على نقل الاسلحة الامريكية ، بما فى ذلك المدفعية والعربات المدرعة ، الى الميليشيات اللبنانية برئاسة الرائد سعد حداد منتهكا بذلك القانون الامريكى مباشرة ، ان الاسرائيليين قاموا بتدريب هذه القوات ومساندتها لاغلاق المنطقة الجنوبية من البلاد فى وجه الارهابيين الفلسطينيين . واثناء قيامها بهذه المهمة ، منعت هذه القوات ايضا القوات النظامية اللبنانية وقوات حفظ السلام التابعة للامم المتحدة ، من دخول المنطقة .

وبعد التشاور مع سايروس فانس وزير الخارجية الامريكى ومع كبار المؤيدين لاسرائيل فى الكونجرس ، قررت أنه لا يمكننا السماح باستمرار الاحتلال الاسرائيلى لجنوب لبنان . وفى حالة عدم امتثال بيجين لرغباتنا — فاننا كنا على استعداد لاخطار الكونجرس ، وفقا لما ينص عليه القانون ، بأن الاسلحة الامريكية تستخدم بطريقة غير شرعية فى لبنان ، الامر الذى من شأنه ان يوقف ، بصورة تلقائية ، كل المعونات العسكرية الى اسرائيل . وأصدرت ايضا تعليماتى الى وزارة الخارجية الامريكية لاعداد قرار يصدره مجلس الامن يستنكر فيه الاجراء الذى اتخذته اسرائيل .

وصدرت تعليمات للقنصل العام الامريكى فى القدس بتسليم رسالة الى مناحيم بيجين ، تضمن تفسيرا لهذه الخطط وتحثه على سحب قواته . وعاد التقرير من القدس يفيد بأن بيجين قرأ الرسالة ، ووقف فى هدوء لبضع لحظات — ثم قال « لقد انتهى الامر » .

وحينما نفذت القوات الاسرائيلية انسحابها على مراحل ، وفدت قوات تابعة للامم المتحدة لتحل محلها ، وتم تعزيز القوات الصديقة لاسرائيل فى جنوب لبنان لاقامة حاجز اكثر فعالية وان لم يكن حاجزا كاملا أمام اية هجمات اخرى تشنها منظمة التحرير الفلسطينية على المواطنين الاسرائيليين .

وفيما بعد ، فى عام ١٩٨١ ، وسع بيجين بدرجة كبيرة ، من نطاق التورط السياسى لاسرائيل باعلان ان اسرائيل ستكون مسئولة بالفعل ، عن حماية كافة القوات المسيحية فى جميع انحاء لبنان . وثمة تناقض واضح وهو انه فى نفس ذلك الوقت تقريبا ، ساعد السوريون الحكومة الاسرائيلية على التوصل الى اتفاق فعال لوقف اطلاق النار مع منظمة التحرير الفلسطينية —

وهذا يعتبر بمثابة اعتراف سياسى ضمنى بتلك المنظمة التى تستخف بهـــا اسرائيل الى أبعد الحـــدود .

وجاء آخـــر غزو للبنان فى عام ١٩٨٢ ، عندما دخلت مجموعة كبيرة من القوات العسكرية الاسرائيلية البلاد وتحركت بدون أن تعترضها أية عراقيل طوال الطريق المؤدى الى بيروت . وفسر الاسرائيليون ذلك بأنهم يعاقبـــون منظمة التحرير الفلسطينية لان سفيرهم فى لنـــدن تعرض لطلقات رصـــاص . وثمة جمـــاعة مختلفة اخرى زعمت فيما بعد مسئوليتها عن الجريمة . وأوائل ذلك العام ، تم اطـــلاع المسئولين بوزارة الخارجية الامريكية سرا على خطـــة عامة كان ايريل شـــارون وزير الدفاع الاسرائيلى يفكر فيها فى حـــالة دخـــول الاسرائيليين الى لبنـــان . وبعـــد استكمال انســـحابهم من ســـيناء ، اعتبر الاسرائيليون انهم قد أوفوا بالتزاماتهم تجـــاه المصريين طبقا لمعاهدة السلام . ولديهم الآن مطلق الحرية فى أن يضعوا الخطط النهائية للعملية التى أطلق عليها اسم يحظى بالقبول وهو « السلام من أجل الجليل » .

وحتى بصفتى مواطنا عاديا فقد انزعجت انزعاجا بالغـــا عنـــدما شنت اسرائيل غزوا على لبنان فى شـــهر يونيو ، وعلى الفـــور أعربت عن قلقى لبعض القـــادة الاسرائيليين الذين اشتركوا فى مفاوضـــات كامب ديفيد ، من أن الهجوم يعتبر بمثابة انتهـــاك للاتفاقيات . وجاءنى الرد المزعج من القدس مفاده : « لقد حصلنا على موافقة مسبقة من واشنطن » .

واتصلت بالبيت الابيض لانقل ما سمعت للقاضى وليام كلارك مستشـــار الامن القومى للرئيس ريجان . فأكـــد لى أن البيت الأبيض لـــم يتورط فى اية موافقة وأنه كانت هناك تأكيدات على مســـتوى عـــال قدمها رئيس الوزراء الاسرائيلى بيجين للرئيس ريجـــان مفادها أن التسلل الى لبنـــان سيكون محددا فى نطـــاق مدفعية مداها ٢٥ ميـــلا . فقلت له فى ردى انه كان هنـــاك مسئولون كبـــار آخـــرون فى واشـــنطن خارج البيت الابيض وانني لعلى ثقـــة تامة فى مصـــدر معلوماتى الواردة من اسرائيل .

وفى نفس ذلك اليوم بعث مستشـــار الامن القومى باثنين من موظفى مكتبه الى منزلى بجورجيـــا ليطلعانى على الرســـائل المتبادلة بين ريجـــان وبيجين . وأكدت هذه الرسائل الالتزام بتحديد تقـــدم الاسرائيليين الى مسافة ٢٥ ميلا ومهمـــا يكن من أمر ، فان القوات الاسرائيلية اســـتمرت فى تحركهـــا شمالا بلا توقف بدلا من البقـــاء داخل هذا الحـــد .

وعلى الرغم من أن السوريين قد احتفظوا بوضعهم فى المعارك البرية التى دارت فى وادى البقاع ، فان الاسرائيليين حققوا انتصارات جوية ساحقة على الطائرات السورية السوفيتية الصنع فوق لبنان ، وتم بسهولة دحر قـــوات

الميليشيات الدفاعية اللبنانية والفلسطينية الى ضــــواحى بيروت . واحاطت القوات الاسرائيلية بالمدينة وعززت قصف العاصمة اللبنانية وغيرها من المدن بالقنابل مما أسفر عن خسائر جسيمة فى الأرواح بين السكان المدنيين الأمــر الذى أثار معارضة شديدة حتى داخل اسرائيل نفسها . وطبقا للتحليلات التى أعقبت ذلك ، فقد كان هناك عدد من الاسباب المتداخلة للهجوم : وهى وضع حد للتهديد الذى تتعرض له الحدود الشمالية لاسرائيل ، وارغام السوريين على الخروج من لبنان ، وتشكيل حكومة لبنانية تكن قدرا من الود لاسرائيــل يكفى لتوقيع اتفاقية سلام دائمة وتحطيم القوات العسكرية الفلسطينية ، وأسر ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، واخراج أية عناصر متبقية لمنظمة التحرير الفلسطينية من لبنان ، وربما أبعاد الانظار عن الضفة الغربيــة ومنطقة قطاع غزة والقضية الفلسطينية برمتها .

وفى ذلك الوقت ، أى بعد بضعة أسابيع من شن الغــزو ، تم انتخاب بشير الجميل الصديق المسيحى المــارونى لاسرائيــل رئيســا لجمهورية لبنان وبدأت المفاوضات بصدد انسحاب اسرائيل وابرام اتفاقية ســلام . ونفــذ الاسرائيليون ، تحت ضغط من جانب واشنطن ، انسحابا جزئيا نحو الجنوب ، وتم ارسال القوات الامريكية والأوروبية الى بيروت فى شهر أغسطس للاشراف على رحيل عرفات وعدة آلاف من قواته التابعة لمنظمة التحرير الفلســـطينية الذين غادروا المدينة وهم يلوحون بأسلحتهم مهددين وزاعمين بأنهم قد حققوا نوعا من الانتصار . ثم أعقب ذلك عدة حوادث سريعة متتالية ، فقد غــادرت القوات الغربية لحفظ السلام بيروت ، وقام خصوم سياسيون مجهولو الشخصية باغتيال بشير الجميل ، وعادت القوات العسكرية الاسرائيليــة الى المدينة وضواحيها المحيطة بها . وبعد ذلك ببضـــعة أيــام ، تم ذبح عدة مئات من الفلسطينيين والمسلمين اللبنانيين العزل فى معسكرات اللاجئين بصبرا وشاتيلا، وعادت القوات الامريكية الى بيروت وانضمت اليها وحدات من كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليــا .

وحاول السفير فيليب حبيب وغيره من المفاوضين الامريكيين ، لعدة شهور، التوصل الى ابرام اتفاقية لوقف اطلاق النار وانســحاب القوات السورية والاسرائيلية . وفى الوقت نفســه ، تم تعزيز الجيش اللبنانى ، بالاســلحة الامريكية وبالمستشارين العسكريين الامريكيين وهم الذين يخدمون حتى وقتنا هذا ، فى ظل الرئيس أمين الجميل الذى تم انتخابه مؤخرا .

وفى تلك المرحلة أصبحت التحيزات العسكرية والسياسية أكثر وضوحا وقد تجلى ذلك فى تقديم الاسرائيليين والامريكيين التأييد التــام للقــوات المسيحية المارونية ، بينما انحاز السوريون مع المسلمين من الشيعة والسنيين والدروز وبعض الجماعات المسيحية التى تعترض لأى سبب من الاسباب على

الائتلاف الكتائبى ــ الاسرائيلى . وانقسمت القوات المتبقية من قوات منظمة التحرير الفلسطينية ، بتوجه معظمها الى شمال لبنان بعيدا عن القـــوات الامريكية والاسرائيلية .

وقد عقد قتل بشير الجميل ، بصورة واضحة ، من المفاوضات الرتيبة الخاصة بالانسحاب والتى دارت بين اسرائيل ولبنان ، ولم يوقع القـــادة الاسرائيليون واللبنانيون عــلى الاتفاقية فى مايو ١٩٨٣ الا بعــد ان توسط جورج شولتز وزير الخارجية الامريكية لدى الجانبين . وفى النهــاية قبل الرئيس الجميل الشروط المقترحة لأنه اعتقد ان اسرائيل والولايات المتحدة على ما يبدو فى مركز قوى وفى مقدورهما حماية المصالح المارونية بعــد توقف القتال . والاهم من ذلك ، تم اعتبار هذا بمثابة خطوة اولى ضرورية فى سبيل ابعاد كافة القوات الاجنبية عن لبنان ــ وهى القوات الاسرائيلية والســورية والفلسطينية . وعلى الرغم من ان الوثيقة تدعو الى انسحاب كل من القـوات الاسرائيلية والسورية ، فان الاسد لم يشترك فى المفاوضات ، ورفض ان يرى اسرائيل وقد حققت اى انتصار سياسى نتيجة للغزو العسكرى . وعلى ذلك فانه استنكر على الفور الاجراءات التى تمت برمتها .

لقد كان للالغاء النهائى للاتفاقية أهمية بالغة بالنسبة للسوريين لأنها تدعو الى انهاء حالة الحرب التى دامت زهاء ٣٥ عاما بين اسرائيل ودولة عربية أخرى وتمنح اسرائيل اعترافا عربيا اضافيا وشرعية ، مثلما ورد فى اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة السلام المصرية ــ الاسرائيلية . وربما يكــون الأمر الأهم من ذلك أن اسرائيل حظيت بحقوق التدخل والتحليق فوق الاراضى اللبنانية بينما حرم آخرون من الامتيازات المماثلة ، بما فى ذلك سوريا التى ربما كانت معادية لاسرائيل . وتعرضت هيمنة سوريا على لبنان ، للخطر ، كما أن اتمام الاتفاقية كان سيعطى قوة سياسية كبــيرة للغايــة لأمين الجميــل والمسيحيين المارونيين على حساب جماعات أخرى فى لبنان وثيقــة الصــلة بالسوريين ومرة أخرى تم التنديد بالولايات المتحدة لتزييف اتفاقية غير عادلة لصالح اسرائيل بينما استبعد السوريون وغيرهم من العرب من العملية .

كان الاخفاق فى الاعتراف بالمصالح الحيوية لسوريا فى لبنان بمثابة لوم علنى موجه الى الأسد ، وقد اعتقد الرئيس السورى أنه من الاهانة أن ينظر الى رضوخ سوريا للاتفاقية كأمر مسلم به . وقد اعتبر ذلك أيضا خطوة أخرى بعيدة عن تناول الاسباب الاساسية للصراع العربى ــ الاسرائيلى : وهى القضية الفلسطينية ووضع الاراضى المحتلة . ولكل هذه الأسباب ، صمم الاسد على اجبار اللبنانيين على الغاء الاتفاقية واعتبر أيضا أن الغاءها انتصار على الولايات المتحدة ، التى تمثل بالنسبة له عدوا يود من صميم قلبه أن يحرجه .

وبتأييد من جانب السوريون ، استمر الدروز وغيرهم من قوات الميليشيا اللبنانية فى الغالب فى الهجوم على القـوات الاسرائيلية المحيطة ببيروت . وكانت الخسائر جسيمة ، وفى سبتمبر من عام ١٩٨٣ انسحب الاسرائيليون جنوبا الى خط يمتد على طول نهر الأولى ، ولم يحققوا سوى هدف واحد فقط من أهدافهم : فقد تم اجبار قوات منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت وجنوب لبنان على الخروج من المنطقة ، تاركة بذلك الحـدود الشمالية لاسرائيل آمنة .

وبعد أن تحرك الاسرائيليون الى جنوب لبنان ، بدأ يتعرض مشـاة البحرية الامريكية المنتشرين حـول المطـار فى ضـواحى بيروت العاصمة ، للنيران المتزايدة من جانب الدروز وقوات الميليشيا المسلمة الاخرى المرابطـة فى التلال المجاورة . وردت الولايات المتحدة باصدار الاوامر بتحليق طائراتها من حاملات الطائرات التابعة لوحدات الاسطول الامريكي التى ترسـو بعيدا عن الشاطىء ، وعندما أطلقت بطاريات المدافع السورية المضادة للطائرات نيرانها عليها ، ردت مدافع الوحدات البحرية الامريكية بقصف التلال والقرى ومواقع المدافع بالمدفعيـة الثقيلة . واتضح أكثر وأكثر أن هـدف أمريكا انما هو حماية المسيحيين المارونيين التابعين للجميل ، الامر الذى خلق حالة حرب بين الطوائف السياسية والعسكرية اللبنانية الاخـرى وبين الولايات المتحدة .

وفى شهر ابريل ، اى بعد شهر من زيارتى لبيروت ، لقى ٦٣ شخصا مصرعهم نتيجة لانفجـار قنبلة القيت على السفارة الامريكية ، واسفر انفجار مروع فيما بعد عن مقتل ٢٤١ من جنود البحرية الامريكية وهم فى ثكنـاتهم . وقد أثارت هذه الهجمات الارهابية وما قامت به قوات الميليشيا فى التـلال المحيطة ببيروت من اسقاط للطائرات البحـرية الامريكية ، معارضة سياسية شـديدة من جانب الكونجرس ومن جانب أفراد الشعب الامريكى ، لسياسة ريجان . ومع مطلع عام انتخابات جـديدة ، حدث تغيير مفاجىء فى السياسة الامريكية .

وفى مستهل شهر فبراير عام ١٩٨٤ ، ندد الرئيس ريجـان بالنـداءات التى وجهها الكونجرس لانسحاب جنود البحـرية الامريكية ، معلنا انه لم يكن مستعدا « للاستسلام » وأنه لم يكن يعـلم أى شىء بصدد اى من القـوات المتعددة الجنسيات التى ترغب فى مغادرة المنطقة . وأردف يقول .به اذا كانت قواتنا ستنسحب ، فانها ستترك بيروت تحت ضغط من القوات التى يساندها السوفيت . وهذا يعنى نهاية لبنان كدولة . واتضح أنه أصـدر أوامره بالفعل بتنفيذ مثل هذا الانسحاب ، الامر الذى أعلن رسميا بعـد ذلك بثلاثة أيام . وقد جلت القوات الاوروبية لحفظ السلام بعد ذلك مباشرة . وكانت هـذه

هى المرة الاولى منذ حرب فيتنام التى استطاع فيها الاتحاد السوفيتى وحلفاؤه ان يعرقلوا تحركا استراتيجيا هاما للولايات المتحدة .

وعندما انسحبت القوات الامريكية والاوروبية من لبنان تحت الضغط ، تركت وراءها الاسد « ملك الجبل » وقد تعين على مختلف الطوائف اللبنانية ، بما فى ذلك الرئيس الجميل والمسيحيين المارونيين ، أن ينجهوا الى سوريا بصفتها عاملا مساعدا خارجيا ربما لجمع شملهم . وفى مارس عام ١٩٨٤ ، أجبر الجميل على اعلان الغاء اتفاقية الانسحاب اللبنانى — الاسرائيلى ، وأعلن الاسد أن العرب قد حققوا لتوهم أهم انتصار على الولايات المتحدة .

وبالنسبة للبنان ، ربما كانت عملية التفاوض وتوقيع الاتفاقية والغاؤها فيما بعد أمرا مفيدا . ومع تفشى الشقاق والفرقة ، ووجود قوات خارجية قوية مما يشكل تهديدا مستمرا ، واجهت لبنان الاختيار الصعب بين التفكك أو التقسيم . ولا يهم مدى مراعاة الاتفاقية للمصالح الاسرائيلية ، فان تكثيف التورط الامريكى ، قد أتاح للبنان مهلة كانت فى أشد الحاجة اليها وتدعيما ماليا . ولمدة عام بدءا من ربيع ١٩٨٣ ، استطاعت حكومة الجميل ان تستمتع بفترة لالتقاط أنفاسها من الضغط الذى تفرضه عليهما جارتاها القويتان سوريا واسرائيل . وقد ساعدت أيضاحالة الاستياء السياسى الداخلى فى اسرائيل وجهود الاسد للقضاء على زعامة عرفات لمنظمة التحرير الفلسطينية ، على انشغال هاتين الدولتين عن القيام بأعمال تضر اكثر بجارتهما المغلوبة على أمرها .

وبعد ذلك مباشرة ، تم تشكيل حكومة وطنية جديدة من العناصر الموجوده بالفعل مما أثار املا ضعيفا فى أن تنهار الحواجز المادية والسياسية التى قسمت لبنان . وقد تدعمت الىحد كبير مكانة امين الجميل ونفوده السياسى نتيجة لرضوخه لمطالب الاسد بالغاء الاتفاقية مع اسرائيل ، واغتنم الاسد هذه الفرصة ليوسع من نطاق علاقاته بين الطوائف المسيحية ذات النفوذ . وفى الوقت نفسه ، اتضح لكل من وليد جمبلاط واتباعه من الدروز انهم فقدوا قوتهم بسبب أعدادهم الصغيرة (٦ ٪ فقط من عدد السكان) ودورهم العسكرى البطولى الاقل أهمية .

ما الذى يريده السوريون ؟ انهم يريدون أولا وقبل كل شىء الاستقرار داخل لبنان ، مع حكومة متوازنة تمثل مختلف الطوائف السياسية والدينية وخاضعة بالقدر الكافى للمصالح السورية وبمرور الوقت ربما يتضاءل دور المسيحيين المارونيين ، وهناك احتمال فى أن تبرز الطبيعة العربية والاسلامية للبنان . ويعتبر الاسد وجود القوات الاسرائيلية فى جنوب لبنان بمثابة تهديد لأمن سوريا وتعد لا مبرر له على السيادة اللبنانية ، ومما لا شك فيه أنه

سيحاول ان يجعل وجودها فى لبنان باهظ التكاليف بقدر ما يستطيعه ، واذا لم تنجح هذه المحاولة ، فان الاسد مصمم على أن تكون سوريا قوية الى الحد الذى تستطيع معه الاحتفاظ بمركزها فى لبنان . وهو يريد الحيلولة دون وقوع أية مواجهة شاملة مع اسرائيل تحسبا للتهديد بحدوث خسائر جسيمة لدى كلا الجانبين واحتمال تبادل نيران الصواريخ طويلة المدى الأمر الذى ربما يشمل القدس وغيرها من المدن الاسرائيلية .

وفيما يتعلق بالفلسطينيين ، فان الاسد يعتبر نفسه حاميهم وقائدهم الأول، والآن وبعد أن تم طرد عرفات وأتباعه الموالين له من سوريا ولبنان ، فان السوريين سيحاولون التحدث باسم الفلسطينيين الأكثر تشددا وذلك اذا سعى الآخرون الى التوصل الى تسوية منفصلة مع اسرائيل أو الاردن ، ان ادعاء الأسد بأنه بطل القضية الفلسطينية ، يتلاءم مع طموحه فى أن يكون قبلة الانظار فى العالم العربى . وبطبيعة الحال فان عرفات ومعظم قادة منظمة التحرير الفلسطينية يستاءون بشدة من المحاولة السورية لاغتصاب سلطتهم ، ويؤيد معظم العرب الآخرين رغبة منظمة التحرير الفلسطينية فى تحقيق الحكم الذاتى. ومهما يكن من أمر فمما لا شك فيه أن نفوذ سوريا قد اتسع اتساعا ملحوظا فى لبنان وخارجها على السواء ، وذلك نتيجة لاخفاق الجهود الاسرائيلية والامريكية فى لبنـــان

ان اسرائيل قد أضيرت ضررا بالغا نتيجة للحرب اللبنانية . فقد ثارت معارضة داخلية قوية لأن الاجراء العسكرى الشامل الذى قامت به قواتها لم يتم اعتباره لأول مرة ، بمثابة هجوم انتقامى لا دفاعى . فقد لقى مايزيد على ٦٠٠ جندى اسرائيلى مصرعهم أثناء الغزو الذى شنته على جنوب لبنان واحتلاله ، وهذا الالتزام من جانب القوات لا يحظى بتأييد شعبى بصورة متزايدة . وعلى الرغم من أن منظمة التحرير الفلسطينية قد ضعفت تماما ، وخضعت هجماتها عبر حدود اسرائيل للرقابة ، فان المسلمين الشيعيين الذين يحتلون معظم أجزاء جنوب لبنان ، أثيروا ضد قوات الاحتلال الاسرائيلية ، وتحول ترحيبهم السابق بها ، عندما حقق الاسرائيليون الاستقرار لقراهم ،الى معارضة علنية . ولم تنشب ثورة عامة ضد الاسرائيليين الاقوياء المنظمين تنظيما جيــدا ، ولكن الشيعيين أخذوا فى بناء العديد من خلايا المعارضة الصغيرة داخل المنطقة . وكان من الصعب تتبعها والقضاء عليها ، وقد حققت نجاحا فى هجماتها المتفرقة على قوات الاحتلال الاسرائيلية ويشعر أيضا عدد كبـــير مـــن الدروز الذين يعيشون فى اسرائيـــل والذين أقاموا عـــلاقة طيبة مع القـــادة الاسرائيليين بأنه قد تم خداعهم نوعا ما من خلال العمليات التى قامت بها اسرائيل فى لبنان لصالح المارونيين وضد اتباعهم من الدروز . ومهما يكن من أمر ، فانه ليس ثمة احتمال فى أن يمثل هذا مشكلة خطيرة أو دائمة بالنسبة لاسرائيل .

وقد تكبدت الحرب والاحتلال الناجم عنها نفقات مالية باهظة ، واصبحت اسرائيل تتحمل حاليا مسئولية اضافية وهى حكم ما يزيد على نصف مليون عربى يعيشون داخل المنطقة المحتلة جنوب نهر الأولى فى لبنان . وقد اقسم رئيسا الوزراء ، بيجين وشامير ، على عدم الانسحاب من لبنان حتى توافق سوريا على نفس الشىء . وقد وعد بيريز رئيس الوزراء الاسرائيلى باجلاء قوات الاحتلال بمجرد توفر امكانية الحفاظ على أمن الحدود الشمالية ضد أى هجوم عليها ، وبدأت المباحثات الخاصة بانسحاب القوات الاسرائيلية ــ اللبنانية مرة أخرى فى نوفمبر عام ١٩٨٤ . ومهما يكن من أمر ، فانه من الصعب ضمان منع عمليات الازعاج عبر الحدود من لبنان ، بدون التأييد الكامل من جانب السوريين ، والاسد لن يكون فى عجلة من أمره فيما يتعلق بتقديم مساعدته . فهو يشعر بالرضاء ازاء الاحتفاظ بقواته فى الأجزاء الوسطى والشمالية من البلاد ، وربما يمكنه أن يستريح وينتظر ليرى أثر الضغط السياسى الذى تفرضه حكومة الوحدة الوطنية الجديدة على القدس بصدد انسحاب القوات الاسرائيلية دون اضطراره لأن يساهم مساهمة كبيرة فى العملية . وفى الوقت نفسه ، وكما حدث فى الفترة السابقة للغزو ، فان الأسد ربما سيفعل ما فى وسعه لوضع قيود على اية هجمات لبنانية أو فلسطينية عبر حدود اسرائيل . ومما لاشك فيه انه يحبذ الغياب التام للقوات الاسرائيلية من لبنان لانه فى حالة نشوب حرب سورية ــ اسرائيلية ، فان هذا الوضع المتقدم لقوات العدو عند نهر الأولى ، لن يكون جــذابا .

ويبدو ان اسرائيل فى وضع لا تحسد عليه . فالشيعيون فى الجنوب لايرغبون فى وجود اية قوات احتلال فى وطنهم القديم ولكن ربما لن يستطيعوا منع تسلل منظمة التحرير الفلسطينية مرة أخرى فى حالة انسحاب الاسرائيليين بدون ترتيبات أمن كافية . وهذا من شأنه أن يثير احتمال تجدد انزعاج الطوائف التى تقيم فى الجزء الشمالى من اسرائيل ويمهد الطريق لنشوب غزو اسرائيلى آخر . وفى النهاية فان الغزوات السابقة لم تحقق سوى القليل أو لم تحقق شيئا على الاطلاق . ويمكن حل هذا اللغز فى المسألة الفلسطينية ، فانه من خلال احراز تقدم فى الضفة الغربية من شأنه أن يخفف من حدة المعارضة الفلسطينية لاسرائيل كحقيقة واقعة .

لقد اثبتت لبنان مرونتها فى الماضى ، حتى فى أصعب الظروف . ويتساءل المتحدثون اللبنانيون ، « كم عدد الدول الأخرى التى يمكنها أن تظل باقية بعد تسع سنوات من الحرب ، فقد قتل ما يزيد على مائة ألف ، وشرد مليون ، واحتلت ثلاث قوات أجنبية قوية ثلاثة أرباع اراضيها ؟ » « ويعربون عن رضائهم ازاء النظام الأساسى للحكم فى بلادهم ولا يرون أن هناك بديلا منطقيا آخر سوى بعض التنسيق والتوالف الدقيق .وليس هناك داع فى أن يقوم

هذا على اساس مبدأ « لكل رجل واحد صوت واحد » . فأصغر وحدة ليست الفــرد ولكن الجماعة ، ويشــعر اللبنانيون بضرورة المحافظة على الطوائف الدينية والعرقية . وليس ثمة من يقبل التقسيم ، الأمر الذى تفكر فيه فى بعض الاحيان جارتاها القويتان ، سوريا واسرائيل ، أو يفكر فيه آخرون أكثر ابتعادا والذين لا يستطيعون ببساطة ان يؤمنوا بأن لبنان تستطيع أن تواصل البقاء ككيان سياسى واحد .

ما الذى تريده لبنان على الرغم من ان اللبنانيين لم يستطيعوا الدفاع عن انفسهم بسبب بنيانهم العسكرى الضعيف والمجزأ ، فانهم فى الوقت نفسه ليسوا موضع شك فى أن يكونوا معتدين أقوياء . وثمة حلم من أحلام بلادهم فى أن تكون هولندا او سويسرا الشرق الأوسط ، وأن لا تتورط فى صراع او نكون مسرحا للمتقاتلين الآخرين وان تستفيد من العلاقات الطيبة مع جميـع الدول الأخرى ، ان اللبنانيين يريدون سيادة لا متنازع عليها على أراضيهم وتحقيق الأمن والاستقرار والعدل على اساس . الاجماع الداخلى والرخاء الذى يؤمنون بانه سيتحقق نتيجة لذلك . ويدركون مدى ضرورة اتحاد دولتهم قبل امكانية احترام سيادتها . وكلما تمتعت كل من اسرائيل وسوريا بالأمن شعرت لبنان بالامان . وبطبيعة الحال فان اللبنانيين يريدون انسحاب كلا الدولتين من أراضيهم ، ولكن هناك فرقا بينهما . فالاحتلال الاسرائيلى ينظر اليه على أنه جزء من الصراع الشامل بين العرب واليهود ، بينما يعتبر الوجود السورى بمثابة مشكلة عربية بحتة ، يتم حلها بعد خروج القوات الأخرى من البلاد . واللبنانيون متفقون فى الراى بصدد نقطة واحدة وهى انهم لا يريدون عودة الفلسطينيين الى بلادهم .

لقد تلقن العالم بعض الدروس ، وربما تتشكل أحداث المستقبل وفقا لما حدث مؤخرا فى لبنان . لقد اتضح تماما ضعف العالم العربى وتفتته عندما لم يتم اعتراض تقدم اسرائيل داخل بيروت . وطبقا لذلك فان بعض أولئك القادة العرب الذين كانوا متعسفين فى أعقاب تحرك السادات نحو السلام مع اسرائيل قد اعترفوا بالحاجة الى عودة مصر الى الحظيرة العربية . وعلى مايبدو فان القوة العسكرية لاسرائيل ما زالت بلا منازع ، ولكن الاستخدام الفعال لهذه القوة المحركة لتشكيل الاحداث فى الشرق الاوسط قد ثبت انه مشكوك فيه تماما . وقد تضاءل النفوذ الامريكى فىالمنطقة نتيجة لمغامرتها العسكرية التى قدر لها الفشل فى لبنان ، بينما دعم السوفييت فى النهاية قوتهم فى سوريا وكانوا ينتهزون كل فرصة ممكنة لملء الفراغ فى العلاقات الامريكية مع الدول العربية الأخرى . وانهارت القوة العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية وتبعثرت قواتها فى جميع انحاء العديد من الدول ولكن عرفات الذى يعيش بتسعة ارواح عاد الى العمل السياسى بروح جديدة ، وهو على استعداد لان يستعيد نفوذه بطريقة جديدة

وغير متوقعـــة . وقـد ضـعفت القبضـــة الســياسـية لبيجين وشامير وشارون على اسرائيل ، ولكن ربما يكون ذلك بصـفة مؤقتة فقط ، وربما يتم اكتشاف فرص جديدة الآن لتحقيق السلام ، مع بداية تولى حكومة اسرائيلية جديدة الحكم .

ولكى يشعر الكثيرون بارتياح ، فان لبنان لم تعد مسرحا رئيسيا ويمكن لانظار العالم أن تتجه حاليا الى منطقة اخرى . وربما تكون هذه المنطقة فى الشرق الاوسـط أيضـا . ومعظم الممثلين ما زالوا يؤدون أدوارهم فى نفس المسرحية ، ولكن ما زال من غير الواضح ما اذا كان الفصل المقبل من المسرحية سيحقق الهدوء أو أنه سيأتى بمزيد من سفك الدماء .

الفلسـطينيون

ان حدود فلسطين ، التى يطلق عليها ايضا اسم أرض كنعان أو الارض المقدسة لم يتم وضع خطوط واضحة لها على الاطلاق . واسم فلسطين ، هو اسم قديم ، مشتق من كلمة الفلسطينيين الذين عاشوا هناك . وحيث أنه معروف عنهم أنهم من أبناء السواحل ، فهم يقيمون أساسا فى الاراضى الواقعة على ساحل البحر فيما هو معروف الآن جنوب اسرائيل وقطاع غزة . ولم يصور الكتاب المقدس أولئك الناس فى صورة جذابة ، لأنهم لم يعبدوا الله ولأنهم تنافسوا مع أصحاب الكتب المقدسة على السيطرة على كنعان . وعندما كان لبنى اسرائيل شمشمون او ملك مثل داود يقودهم ، كان الفلسطينيون يتعرضون فى بعض الأحيان للهزيمة ، ولكنهم استطاعوا أن ينتصروا أمام معظم القادة الآخرين ويوسعوا أراضيهم .

وقد اختار الفاتحون الرومان ، الذين ارادوا طمس كل من عاصمة بنى اسرائيل واسمهم ، بعد أن قضوا على الثورة اليهودية الاخيرة ، اسم فلسطين لاطلاقه على الجزء الجنوبى لاقليمهم السورى الجديد . وتمت الموافقة بصفة عامة على الاسم ، حتى ولو أن حدود المنطقة ظلت تتغير عبر القرون .

وفى نهاية الحرب العالمية الاولى ، كلفت عصبة الامم ، بريطانيا العظمى بالاشراف على دولة الانتداب الفلسطينية ،التى ضمت أراضى اسرائيل الحديثة والضفة الغربية وغزة والاردن . وفى عام ١٩٢٢ ، تم فصل الاردن عن دولة الانتداب ، وشكلت الاراضى المتبقية والتى تقع بين نهر الاردن والبحر الابيض المتوسط ما يعرف باسم فلسطين .

وهكذا فان كلمة « الفلسطينيين » تعنى منطقيا ، كل هؤلاء الذين يعيشون أو يحملون بطاقة المواطنة فى هذه المنطقة . ومهما يكن من أمر ، فانه ليس ثمة منطق فى التعامل مع المنطقة كأرض مقدسة . فقبل اقامة دولة اسرائيل ، كان يطلق على يهود فلسطين اسم اليهود الفلسطينيين ولكن فيما بعد ذلك أصبحوا اسرائيليين ، وأن أولئك العرب الفلسطينيين الذين لم يختاروا قبول الدولة الجديدة ويعيشون فيها كمواطنين ، استمروا فى اطلاق اسم فلسطينيين على انفسهم . وتعريفنا لن يشمل سوى العرب وسلالاتهم ، وكل من المسلمين والمسيحيين الذين يعيشون فى المنطقة وما زالوا يزعمون أن فلسطين وطنهم .

ومن بين الاربعة ملايين فلسطينى المنتشرين فى جميع انحاء العديد من الدول ، يعيش الآن أكثر من نصفهم فى ظل الادارة الاسرائيلية — اما

فى اسرائيل كمواطنين (ما يقرب من ٦٥٠،٠٠٠) أو فى الضفة الغربية وقطاع غزة فى ظل الاحتلال (ما يقرب من ١ر٣٧٠،٠٠٠) والجدير بالذكر أن تعداد السكان العرب يزداد بمعدل ٢ ١/٢ ٪ سنويا . وثمة عدد كبير اضافى يعيش فى الارض التى تحتلها القوات الاسرائيلية فى الجزء الجنوبى من لبنان .

وعندما أجرت بريطانيا تعدادا للسكان فى فلسطين عام ١٩٢٢ ، كان هناك نحو ٨٤،٠٠٠ يهودى و ٦٧٠،٠٠٠ عربى من بينهم ٧١،٠٠٠ مسيحى . وبحلول الوقت الذى قامت فيه الامم المتحدة بتقسيم المنطقة عام ١٩٤٧ ، ازدادت هذه الاعداد لتصبح بالتقريب ٦٠٠،٠٠٠ يهودى و ١ر٣٠٠،٠٠٠ عربى ، ١٠٪ منهم مسيحيون . وفى أثناء حرب ١٩٤٨ وعندما أكدت اسرائيل وضعها كدولة مستقلة ، تم طرد ٦٠٪ من الفلسطينيين المقيمين فى الاراضى التى اصبحت اسرائيل ، او هربوا من ديارهم .

وقدرت الامم المتحدة انه عندما بدأت حرب ١٩٦٧ بلغ عدد هؤلاء اللاجئين ١ر٣ مليون لاجىء ، ربعهم فى الاردن وما يقرب من ١٥٠ الف فى كل من لبنان وسوريا ومعظم العدد الباقى فى معسكرات اللاجئين فى الضفة الغربية وقطاع غزة . وكنتيجة لتلك الحرب ، أجبر ٣٢٠،٠٠٠ آخرون من السوريين والمصريين والاردنيين والفلسطينيين على مغادرة المناطق الاضافية التى احتلتها اسرائيل فى ذلك الوقت . وكان معظمهم عاطلين ، لا يعرفون سوى زراعة الارض أو رعى الاغنام ، واكثر من نصفهم كان يعيش فى معسكرات اللاجئين . وقد تمت الموافقة على عدد من قرارات الامم المتحدة (بعضها صدر تحت رعاية الولايات المتحدة بل وحتى حظى بتأييد اسرائيل) ، وتدعو هذه القرارات الى ضرورة تعويض اللاجئين الاكثر حاجة واستحقاقا ولكن القليل منهم فقط هو الذى سمح لهم بالعودة الى ديارهم .

واعرب الفلسطينيون والقادة العرب عن قلقهم ازاء ازدياد تعدى الاسرائيليين على أراضى العرب وحقوقهم . ومهما يكن من أمر ، فانه لم يتم عقد اجتماع القمة الاول لرؤساء الدول العربية فى مستهل عام ١٩٦٤ والذى دعا اليه الرئيس عبد الناصر رئيس مصر ، الا بعد اعلان خطط اسرائيل الخاصة بتحويل المياه من بحر الجليل ونهر الاردن لرى أراضى منطقة غرب اسرائيل وصحراء النقب . لقد علم عبد الناصر أن العمل العسكرى لا يستطيع ان يوقف عملية تحويل المياه ، ولكن الرؤساء العرب الاكثر تشددا طالبوا بضرورة اتخاذ اجراء فى هذا الصدد . وفى يونيو عام ١٩٦٤ ، تم تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية رسميا ، بقوتها العسكرية ، لتمثل الشعب الفلسطينى .

وبعد حرب ١٩٦٧ ، تم تعزيز منظمة التحرير الفلسطينية الى حد كبير من خلال تفجر مشاعر الوطنيين الذين استولت اسرائيل على أراضيهم ،

وبهدف ايجاد جبهـة متحدة ومشتركة اكـثر ، سرعان ما اعترف القـادة العرب وبعض الجماعات المتنافسة من الفلسطينيين بظهور منظمة التحريـر الفلسطينية . واصبح المجلس الوطنى الفلسطينى بمثابة برلمـان لها ، وتـم فيما بعد تشكيل لجنـة مركزية ولجنة تنفيذية يمكن لاعضـائهما أن يعملوا كمجلس للوزراء فيما يتعـلق بتناول مختلف الموضوعات مثـل الرعاية الاجتماعية والتعليم والاعلام والصحة والجانب العسكرى .

وفى عـام ١٩٦٩ اكتشفت منظمة التحرير الفلسـطينية فى ياسر عرفات قائدا قويـا ، وهـو فلسطينى متعلم تعليما عاليـا ومؤسس حركة فتـح ورئيسها ، وهى عبارة عن منظمة فدائية تضع الترتيبات الخاصة بالهجـوم على اسرائيل من جهة سوريا . وبعد اختياره رئيسا للجنـة المركزية ولمنظمة التحرير الفلسـطينية استطاع عرفات أن يحـد من نشاط بعض الجماعات الاكثر تطرفا بين الفلسـطينيين ، وركز القـدر الكبير من اهتمامه على جمع الاموال لرعايـة اللاجئين ومساندتهم ، وحشـد التأييد العـالمى للقضـية الفلسطينية . وسرعان ما نجـح الفلسـطينيون فى هـذه الجهود ، بفضـل هذا الصوت الاكثر فعالية . واستطاعت منظمة التحرير الفلسطينية أن تقيم بعثات دبلوماسية فيما يزيد على مائة دولة ، واستخدمت وضعها كمراقب فى الأمم المتحدة لتصبح صوتا من أكثر الاصوات المؤثرة فى المحافل الدولية .

ولـم يكن الخروج التـالى للفلسطينيين من اسرائيل ، ولكنه كان من الاردن فى عـام ١٩٧٠ ، نتيجة للحرب الاهليـة بين المتشددين الفلسطينيين والقوات الاردنية النظامية . وعنـدما سيطرت القوات التابعة للملك حسين على الوضـع ، لـم يكن أمام الفيض الجديد من اللاجئين سوى مكان واحد يتجه اليـه : وهو لبنـان ، وهناك وجد الفلسطينيون دولة مضيفة ليست من القوة — على العكس من مصر وسوريا — بحيث تستطيع أن ترفضهم كمـا كانت بمثابة المكان الذى استطاعت فيه منظمة التحرير الفلسـطينية أن تتطور لتصبح منظمة حكومية ، بـل وحتى ميليشيا مستقلة . وكان لقواتها مطلق الحرية لتوجيه ضرباتها عبر الحدود ضـد اسرائيل ، وسرعان مـا اصبحت تشـغل مساحة كبيرة من لبنـان بدرجة تكفى لتحدى سيادة الحكومة اللبنانية .

وقد تأثرت لبنان تأثيرا عكسيا فى أغلب الاحيان نتيجة لوجود أعداد كبيرة من الفلسطينيين . فان كل غارة من الغارات التى شنها الفدائيون على اسرائيل، قد أثارت رد فعل انتقامى مفاجىء ، مما أسفر عن تعـرض السـكان المدنيين اللبنانيين للجزء الاكبر من العقاب الذى ينزل عليهم فى صورة قصف للقنابل ، حتى أنهم أصبحوا يستاءون بازدياد من ضيوفهم المضجرين . ومن خـلال تشكيل تحالفات مع المسلمين السنيين وبعض الجماعات الاكثر تطرفا فى لبنان ، كسب الفلسطينيون وحلفاؤهم المزيد من السيطرة على البلاد ، وكانت هناك مناوشات

متكررة نظرا لاستمرار الصراع على السلطة والنفوذ . ورذا على ذلك ، أنشـأ المسيحيون المارونيون قوات ميليشيا خاصة بهم لمواجهة التحدى ولكنهم أثبتوا عجزهم . وأصبحت البلاد أكثر ضعفا وانقساما فى داخلها ، وفى عام ١٩٧٥ ، نشبت حرب أهلية . وفى العالم التالى ١٩٧٦ تحركت القوات السورية لاعادة النظام . وفى النهاية ساعد السوريون فى ابرام اتفاق ينص على قصر نشاط قوات الميليشـيا الفلسـطينية على أماكـن محـددة ، والحـد من الهجمـات الفلسطينية ضد اسرائيل .

وفى تناول الصراع واحتمالات السـلام فى الشرق الاوسط ، لـم يكن هنـاك من سبيل لتجنب ادراك مدى دقـة تداخل وتشابك التاريخ والامانى والمصير لشعبين طالت معاناتهما وهما اليهود والعرب الفلسطينيون .

وبعبارة ابسط ، فان الصراع العربى ـ الاسرائيلى يعتبر بمثابة نضال بين هويتين وطنيتين من أجل السيطرة على الارض ، ولكن هناك تأثير القضـايا التاريخية والدينية والاستراتيجية والسياسية والسيكلوجية ، على المواجهـة مما يؤخر تسويتها سلميا . ان مايريده أى من الطرفين لا يقـل عـن الاعتراف والقبول والاستقلال والسيادة والهوية الاقليمية . ولا يعترف اى منهما رسميا بوجود الآخر ولذلك فان اى اختبار للنوايا يتعين اجراؤه عن طريق وسـطاء غير متيقنين من نجاح مهمتهم . ويسعى كل منهما الى الحصول على موافقة عالمية، وتأييد مالى ومعنوى وايوائى من جانب الحلفاء الخارجين ومن جانب دولة مـن الدولتين العظميين وكل طرف يخشى الدمار الشامل من الطرف الآخر أو الانكار الكامل لوجوده . وقد غذى هذا الخوف تاريخ طويل من العنف والكراهيـة ، حاول كل منهما خلاله أن يلغى صفة الشرعية للآخر بينما يعترضون بقوة : المزايا الفريدة والخاصة لقضيتهم .

بدءا من عام ١٣٥ بعد الميلاد ، عندما أتم الامبراطور الرومانى هادريـان قمع الثورة اليهودية فى فلسطين وذبح السكان وتشتيتهم ، كانت الآلام التى عانى منها اليهود المشردون والتى تضاعفت نتيجة للاضطهاد العنصرى المكثف ، دافعا مستمرا لليهود للعودة الى وطنهم المقدس وانشاء دولة اسرائيل كملاذ لهم . كانت اسرائيل بالنسبة لليهود بمثابة تحقيق للنبوءة المقدسة وتتويج للحلم الخاص بتشكيل حكومة من اختيارهم والعيش فى ظلها .

والفلسطينيون يعانون من ظروف تشرد مماثلة ، فهم مشتتون فى العديد من الدول ، وقد تجسدت ايضا رغبتهم فى تقرير مصيرهم والعودة الى وطنهم ولقيت هذه الرغبة ، تأييدا عالميا قويا . ويزعم الفلسطينيون ، شأنهم فى ذلك شـأن اليهود ، بأنهم مدفوعون بعقائد دينية تقـوم على أساس ما وعدهـم به الله ، ويعتبرون أنفسهم انهم يضمون خليطا من كافة الشعوب بما فى ذلك اليهود القدامى الذين عاشوا فى فلسطين ، وطنهم ، منذ عصور التوراة القديمة .

وعلى مر السنين ، عانى كل من الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين من العزلة وعدم المبالاة على أيدى اخوانهم العرب ، ويصرون الآن ، على أنهم أجبروا ، وليس نتيجة لخطأ ارتكبوه ، على التخلى عن مساحة أكبر وأكبر من أراضى أسلافهم لافساح المجال أمام توسيع نطاق الملاذ اليهودى لاسرائيل . وفى الوقت الذى يحتفظون فيه بحقهم الشرعى والأدبى فى وطنهم ، فان أولئك الذين ظلوا فى فلسطين — ولا سيما فى الضفة الغربية وفلسطين — قد تعين عليهم الاختيار ما بين الذهاب الى المنفى او الاستمرار فى العيش فى ظل الحكم العسكرى . وقد ازداد شعورهم بالاحباط واليأس نتيجة لعجزهم النسبى فى التخلص من مظالمهم وآلامهم . ولقد سيطر عليهم حلم العيش يوما فى ظل حكومة من اختيارهم .

وعلى الرغم من هذا التشابه الواضح بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، أو ربما بسبب هذا التشابه فان الاسرائيليين والفلسطينيين يحتقرون ويسخرون بعضهم من البعض الآخر بصفة عامة وينكرون عادة أن ثمة تماثلا فى ظروفهما . وبدا الامر كما لو أن الاعتراف من جانب طرف بشرعية قضية خصمه الآخر انما يعنى اضعاف شرعيته هو .

ومهما يكن من أمر ، فان كل جماعة سلكت طريقا مختلفا تماما للخلاص من مظالمها ، وبذلك لم تكن النتائج متماثلة . وبدون التخلى قط عن أهدافهم الطموحة للغاية فيما يتعلق بانشاء دولة يهودية متميزة لها حدود مماثلة لتلك التى كانت فى عهد الملك داود ويحيط بها جيران مذعنون ومسالمون ، فان اليهود سعوا الىتحقيقها بخطى متزايدة وحتى بحلول وسطفىوقت من الاوقات عندما يلزم الامر ، وقد حققوا تقدما كبيرا . والفلسطينيون من ناحية أخرى ، رفضوا كالمعتاد الحل الوسط ، وظلوا ملتزمين بالاجماع بالموقف الخاص « بسكل شىء أو لا شىء » . وفى المقابل ، لم يحقق الفلسطينيون أى شىء سوى كسب العطف وتأييد محدود فى المحافل الدولية وفى أوساط عربية أخرى . وانجازهم الملموس الوحيد يتمثل فى تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية ، وهى شكل من أشكال الحكومة فى المنفى . وهذا يساعد على تفسير التأييد العلنى والاجماعى تقريبا بين الفلسطينيين لمنظمة التحرير الفلسطينية ولأهدافها واغراضها .

وهناك ثلاث وجهات نظر أساسية فيما يتعلق بامكانية التوصل الى تسوية بين اليهود والفلسطينيين . فثمة وجهة نظر تفيد بأن القضية الفلسطينية تعتبر جوهر الصراع العربى — الاسرائيلى ، وبشكل من أشكال التكافؤ وتقرير المصير للفلسطينيين ، فان الصراع سيبدأ فى التلاشى فى الوقت الذى يوافق فيه العالم العربى على الواقع السياسى لاسرائيل . وثمة وجهة نظر ثانية تتمثل فى أنه فى أعقاب التوصل الى تسوية للنزاع العربى — الاسرائيلى بصورة أشمل ، بما فى ذلك الموافقة الصريحة على وجود اسرائيل من جانب نسبة

كبيرة من الدول العربية ، فانه سيكون من الايسر تسوية العنصر الفلسطينى فى الصراع . أما وجهة النظر الأكثر قتامة والأكثر تشاؤما فهى تلك التى أعرب عنها هؤلاء الذين يقولون انه لا يمكن تحقيق سلام دائم فى الشرق الاوسط طالما توجد الدولة اليهودية فى قلب عالم عربى أو تلك التى تقول من ناحية اخرى ، ان منح أى عنصر من عناصر تقرير المصير للفلسطينيين سيكون حتما بمثابة الخطوة الاولى نحو القضاء على اسرائيل .

وببساطة فانه من المستحيل لآخرين ان يفهموا فهما كاملا حدة الشعور والالتزام بين هذين الشعبين فيما يتعلق بمعاناتهما الحالية والماضية وتصميمهما على انهائها أو تجنب تكرارها فى المستقبل . ولا يسعنا الا أن نستطلع كل امكانية لتفهم أفضل بين أفراد الشعب الذين يعيشون حاليا فى كل انحاء فلسطين والذين يساعدونهم من الخارج بسبب مشاركتهم فى التجارب أو الالتزامات . ولقد حاولنا بصورة جزئية وبطريقة تكتنفها الغموض ، أن نطرح هذه المسائل الأساسية فى كامب ديفيد ، ولكن لم يكن هناك أى من الفلسطينيين على استعداد للتفاوض على أساس شروطنا ، والوعود الواردة فى الاتفاقية فيما يتعلق بحقوق الفلسطينيين أخلفها زعماء اسرائيل .

وفى خلال زيارتى الاولى لمنطقة الشرق الاوسط بعد مغادرة البيت الابيض فى عام ١٩٨٣ ، كنت قد تعرفت على معظم زعماء الدول . ومهما يكن من أمر ، فاننى أردت أيضا أن أعرف المزيد عن أفراد الشعب الفلسطينى — كيف يعيشون ، وما هى اهتماماتهم الأولى ، وكيف كان رد فعلهم ازاء وجود احتلال عسكرى طويل الأمد ، وما قد يقترحونه كتسوية سلمية . لقد استمعت فى القاهرة وعمان والرياض ودمشق ، فى أغلب الاحيان للقادة الفلسطينيين وهم يشرحون وجهات نظرهم المختلفة فى مشكلة الشرق الاوسط بالنسبة لما يتعلق بهم وباللاجئين الذين يتحملون مسئوليتهم .

وفى صباح أول يوم لى فى القدس ، تحركت فى رغبة فى الاطلاع على ما يجرى فى الأراضى المحتلة . وكالمعتاد ، استيقظت مبكرا . وبينما كنت على وشك الخروج للتجول فى المدينة القديمة ، يصاحبنى احد رجال المخابرات الامريكية ، انضم الينا جنديان اسرائيليان وقالا انهما سيرشداننا فى جولتنا . وبدأنا الجولة من فندق الملك داود الى بوابة يافا ثم اتجهنا شمالا حول المنطقة الخارجية للحصون القديمة . وبينما كنا نسير بالسيارة المسرعة نحو الشرق على طول طريق أريحا ، رأيت مجموعة من العرب من كبار السن يجلسون على قارعة الطريق يقرأون الصحف . وكان الرصيف خاليا تقريبا من المارة ويتسع بصورة كافية للمرور بسهولة ، ولكن أحد الجنود انعطف نحو اليمين واقترب منهم وألقى بكافة الصحف فى وجوه القراء المذهولين .

وسقطت بعض الصحف على الارض . وتوقفت لاعتذر للرجال ، ولكنهم لم يستطيعوا فهم ما قلته لهم . ثم قلت للجنديين اما ان يسمحا لى بالسير بمفردى او الا يتعرضان لأى شخص آخر بطريقة عدوانية . ووافقا بعد تردد على تحقيق رغبتى ، ولكنهما اضافا يقولان ان احدا لا يستطيع أن يعرف ما يخفونه وراء الصحف .

وفى الضفة الغربية وقطاع غزة ، امضيت بعض الوقت مع الفلسطينيين من كافة الاعمار فى كل من المجتمعات الكبيرة والصغيرة وفى المناطق الريفية . ومرة اخرى ، كان معظمهم قادة : احدهم عمدة مسيحى لبيت لحم ، وآخر رجل مسن اقيل من منصبه فى البلدية ويعيش فى قطاع غزة ومازال يعتبر المتحدث الذى لا منازع عليه بين افراد شعبه . وكان من بين هؤلاء عدد قليل من المحامين نشطوا فى الدفاع عن حقوق جيرانهم فى المحاكم العسكرية الاسرائيلية ، وانتخب اثنان أو ثلاثة لوظائف عامة فى عام ١٩٧٦ وأجبروا حاليا على العيش فى المنفى فى الاردن ، كما كان من بين هؤلاء اساتذة فى جامعات كبرى وعدد كبير من الفلاحين والقرويين الذين أرادوا وصف حياتهم المقيدة فى الأراضى المحتلة .

كان معظم الفلسطينيين ، مسلمين ، ولكن عددا كبيرا كان ايضا من المسيحيين ، وتحدثت مع العديد من القساوسة ورعاة الكنائس عن شئونهم الكهنوتية . وزعموا انهم ينزعجون بصورة ملحوظة من العنف الذى ينتشر حولهم ، وقال احد القساوسة ، انه هو وعدد من رعايا الكنيسة التابعين له قد فزعوا فى الآونة الأخيرة عندما قامت « جماعة ارهابية يهودية » بوضع قنبلة فى معبدهم . وقد تم اكتشافها قبل أن تنفجر . وثمة شخصية جذابة تمثلت فى مسيحى شاب كان يحاول اقناع اصدقائه من الفلسطينيين بمزايا المقاومة السلمية مؤمنا بأن اسلوب مهاتما غاندى ومارتين لوثر كينج سوف يكونان من افضل الأساليب التى يمكن لاخوانه اتباعها . واضاف قائلا : انه كان يعقد دورات تدريبية فى بعض قرى الضفة الغربية التى تخضع لرقابة السلطات الاسرائيلية ، واعطانى نسخة مما اعده بدقة باللغة الانجليزية .

وفى الطريق من القدس الى غزة ، عرفت جانبا جديدا من جوانب الحياة للفلسطينيين عندما طلبت منى السلطات الاسرائيلية أن اتوقف عند جالية فلسطينية نموذجية لتفقد التقدم الذى تم احرازه فى المنطقة . وهنا اتيحت لى الفرصة للقاء العمدة ومجلس المدينة . ولهذا فقد استطعت أن استفسر عن الكيفية التى تحكم بها المدينة . وفى بداية الأمر كنت اتساءل عمن يكون الشخص المسئول . ولكن سرعان ما ادركت ان اكثر الرجال حديثا فى المجلس هو الممثل الاسرائيلى فى « رابطة القرية » . وقد اتضح ان للفلسطينى ؟

سلطة كبيرة ولكنه كان منبوذا فى مجتمعه ، ولكننى لم أبدأ فى فهم الموقف الا بعد مناقشـــات حامية بين القـــادة القرويين المجتمعين .

فقد فهمت أن موشى ديان ، وزير الدفاع الاسرائيلى الذى وضع سياســـة الحكم فى المناطق المحتلة بعد حرب ١٩٦٧ ، قد أصدر قرارا بضرورة أن يقـــوم العرب بحكم أنفسهم بقدر الامكان وبأنه لا ينبغى أن يكون هناك فرض لأى ادارة اسرائيلية . وعندئذ قام العمد المعتدلون الذين يحظون بالاحترام والتقدير ، وهم من غير أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية ، بتولى معظم الشئون الفلسطينية ، وهؤلاء تم اختيارهم فىظل الحكم الأردنى أو نتيجة للانتخابات البلدية عـــــام ١٩٧٢ . وفى ١٩٧٦ سمح الاسرائيليون مرة أخرى باجراء انتخابات حرة ، وقد قرر المرشحون التابعون لمنظمة التحرير الفلسطينية الاشتراك فيها . وتم انتخابهم فى عدد من المجالس البلدية .

وفى عام ١٩٨٠ — ١٩٨١ تولى العسكريون الاسرائيليون الادارة الكاملـــة تقريبا ، وألقوا القبض على المسئولين المنتخبين ، وشكلوا فيما بعد ادارة مدنيـــة خاصة بهم . وقد تمت محاولة لتكوين صفوة سياسية جديدة من الفلسطينيين من خلال منح نفوذ ورعاية خاصة لاولئك الذين على استعداد للاقتناع بالاتجـــاه الاسرائيلى ، ولكن يبدو أن أولئك الممثلين المتملقين فى التجماعات الريفية يتعرضون للاحتقار من جانب معظم جيرانهم العرب بصفتهم خونة لوطنهم .

وباستثناء أولئك العرب الذين اختارتهم السلطات لتولى بعض الوظائف البيروقراطية وتوزيع الامتيازات السياسية ، فان الفلسطينيين الذين قابلتهم كانوا اما أعضاء فى منظمة التحرير الفلسطينية أو مؤيدين لها بشدة ، وقد أعربوا عن استيائهم البالغ مما اعتبروه بمثابة قمع عنيف من جانب السلطات العسكرية . ومعظمهم تناول القضية بنوع من التصميم والأمل ، ولكن البعض بدا حزينا مكدرا. وقد أضطر الى أن يرضى بالأمر الواقع . ونادرا ما وجه أحدهم النقد مباشرة الى منظمة التحرير الفلسطينية ، ولكن محاميا فلسطينيا اشتكى من أن « عرفات وغيره من قادة منظمة التحرير الفلسطينية ، مهتمون بالصراع من أجل السلطة السياسية وجمع المال وانفاقه ، أكثر من اهتمامهم بمحنة الفلسطينيين الذين يعيشون فى ظل الاحتلال العسكرى » .

ومهما يكن من أمر ، فان الادانة الأصلية الصادرة من أولئك الناســ شأنهم فى ذلك شأن العديد من العرب خارج الأراضى المحتلة ــ وجهت تقريبا الى كل من اسرائيل والولايات المتحدة بالتساوى . فقد نددوا بيـــلادنا لتمويلها المستوطنات الاسرائيلية فى الاراضى المحتلة ، ولدعمها للعمليات العسكرية ضد الدول العربية ، وقد شعروا بالمرارة بصفة خاصة ازاء رفضنا الاعتراف بالشعب الفلسطينى أو توفير منبر للدعوة الى حل مشاكلهم . وقد سخروا من الوعد الذى التزمت به دولتنا أمام اسرائيل بعدم الاعتراف أو التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية

حتى تعترف المنظمة بحق اسرائيل فى الوجود ، واعتبروا هذا الوعد خطأ سياسيا غير منطقى ولا يسفر الا عن نتائج عكسية .

جرت لقاءاتنا فى الضفة الغربية وقطاع غزة فى عدة اماكن مختلفة : فى منازل ومكاتب البلدية ، وفى مستشفيات ، وفصول مدرسية خالية من التلاميذ ، وفى أركان حوانيت أو مخازن وكنائس واديرة . وفى كل حالة تقريبا ، رتب أولئك الذين وافقوا على ان اجتمع بهم ، حضور بعض أفراد أسرهم او اصدقائهم .

وفى بادىء الأمر التزم الجميع بقدر ملحوظ من التحفظ ازاء بدء اى موضوع هام أو مثير للجدل . وكنا نحتسى البن الاسود أو الشاى أو الكوكالا أو نتناول سكر النبات أو الكعك المحلى الصغير ويتلاشى ببطء الشعور بالقيود وتبدأ مناقشة أكثر حيوية ، بعد أن يكون جميع الحاضرين تقريبا قد اشتركوا فيها . وكثيرا ما يجادل الفلسطينيون بعضهم البعض الآخر وحتى فى بعض الأحيان ينضم اليهم ابناؤهم . وفى الاجتماعات الأوسع نطاقا استطاع العديد من الناس التحدث باللغتين الانجليزية والعربية على السواء ، وفى بعض الأحيان يتنافسون مع بعضهم البعض فى ترجمة بعض الجمل للآخرين .

وقد وجهنا الدعوة ايضا الى بعض الجماعات القليلة للحضور الى مقر القنصلية الامريكية فى القدس . وقد اصطبغت هذه الجلسات بالصبغة الرسمية اكثر ، ولكنها لم تكشف عن أى شىء . فقد عرض المشتركون وجهات نظرهم كما لو كانوا محامين يكتبون مذكرة بعناية ، وبطريقة مبنية على الاستدلال والاستنتاج وبصورة مقنعة بل انهم كانوا يقدمون فى بعض الأحيان وثائق أو ادلة لحجتهم .

ولقد حاولت ، فى كافة الاجتماعات أن أعرض وجهات نظرى بصدد الحاجة الى انهاء العنف ، واقامة اتصال افضل بين الفلسطينيين والاسرائيليين والشعب الامريكى ، وتأييد جهود السلام التى وصلت الى طريق مسدود . وبدا وصفى لاتفاقيات كامب ديفيد وبيان ريجان فيما يتعلق بالفلسطينيين ، كما لو كانا بمثابة نشرة أخبار بالنسبة للكثيرين منهم ، وكان واضحا أن قبولهم لأى من الاقتراحين سيعتمد اعتمادا تاما على تفسير منظمة التحرير الفلسطينية . وقدمت لهم عرضا ملخصا للفوائد المحددة التى ستعود عليهم اذا قدر لمثل هذه الجهود أن تنجح، وشجعتهم على تأييد الملك حسين فيما يتعلق بقراره المعلق الخاص بالانضمام الى مباحثات السلام ممثلا عن الاردن والفلسطينيين . وقد اعربوا عن بعض الامل فى أن يوافق عرفات .

وهذه الانواع من القضايا العامة شكلت نسبة صغيرة من المناقشات ، ان ما اراده الفلسطينيون هو سرد قائمة من شكاواهم الخاصة ضد اسرائيل . ولما كنت مصحوبا بعدد من الدبلوماسيين الأمريكيين الذين رتبوا عقد العديد من الاجتماعات ، فقد كنت أجلس معظم الوقت صامتا أصغى لشكواهم .

لقد آكد القادة الفلسطينيون على أن جيلا بأكمله من أفراد شعبهم قد حرم من الحقوق الانسانية الأساسية فلم يكن لديهم حق التصويت أو عقد اجتماعات سلمية ، أو اختيار قادتهم ، أو السفر بلا قيود ، أو الحق فى الحصول على ممتلكات بلا خوف من مصادرتها طبقا لعدد كبير من الحيل القانونية التى لا تفسير لها • وكشعب ، وصفهم المسئولون الاسرائيليون بأنهم ارهابيون ، بل حتى المظاهرات الصغيرة التى ينظمونها للاعراب عن استيائهم ، أسفرت عن أقسى أنواع العقاب من جانب السلطات العسكرية • وذكروا أيضا أنهم يتعرضون لعمليات القبض عليهم واعتقالهم بدون محاكمة لمدد طويلة ، وان بعضهم تعرض للتعذيب فى محاولات لاجبارهم على الاعتراف ، وأن محاكمتهم كانت تتم فى الغالب امام من وجهوا اليهم التهم كقضاة ، وأن محاميهم لم يسمح لهم بالدفاع عنهم فى المحاكم الاسرائيلية ، وأن أى استئناف يكلفهم اموالا طائلة ويستغرق مددا طويلة لكثرة التأجيل وفى الغالب ما يكون عقيما •

وفى مناسبة ما ، تناقشت معهم فيما يتعلق برفضهم رفع قضاياهم ، التى قد تصبح سابقة قانونية ـ الى المحكمة العليا الاسرائيلية ، وحاولت أن أؤكد للمجموعة انهم سيجدون آذانا صاغية ، وربما تصبح سابقة تكون مفيدة فى كثير من الحالات المماثلة •

ولم يسع الزعماء الدينيون والمسئولون فى البلدية الا أن يهزوا أكتافهم فى يأس ، ولكن أحد المحامين تحدث بحماس فقال : (لقد حاولنا ذلك ولكننا تكلفنا الكثير . ان المحاولة لم تنجح . ان الوضع مختلف وليس كالنظام المتبع فى الولايات المتحدة حيث يسرى قرار تتخذه احدى المحاكم العليا على كافة المحاكم الاقل درجة • أما هنا فيوجد ثمة نظام قضائى يصدر فيه القضاة المدنيون أحكامهم ونظام آخر يصدر فيه القضاة العسكريون أحكامهم . ومعظم قضايانا ، أيا كان موضوعها ، لا ينظر فيها أحد سوى القضاة العسكريين ومنهم من يوجهون الينا التهم ، ومنهم القضاة والمحلفون • وكلهم يبدون بالنسبة لنا سواء وعندما يتخذ قرار ونادرا ما يكون فى صالحنا ، لحماية قطعة صغيرة من الارض مثلا فانه لا يعتبر بمثابة سابقة . وطبقا لقرار ادارة أو قرار جمهورى يولد اجراء جديد لتحقيق نفس الاهداف الاسرائيلية بأسلوب مختلف » • وأردف يقول : « وبالاضافة الى ذلك ، فاننا لا نستطيع أن نرفع قضية لموكلنا خارج الضفة الغربية فى محكمة اسرائيلية • فانه غير مسموح لنا بممارسة عملنا هناك » •

وسألته : « اذن لماذا لا تستخدمون محاميا اسرائيليا ؟ » فأجاب : « فى بعض الاحيان نفعل ذلك ، ولكن عددا قليلا منهم فقط يوافق على أن يتبنى قضايانا • ان أولئك الذين على استعداد لذلك مشغولون الى حد مبالغ فيه

بموكيلهم العرب الذين يعيشون فى اسرائيل . وقد حاول عضو أو عضوان من اعضاء الكنيست أن يقدموا العون ــ ومعظمهم أعضاء شيوعيون » .

لقد كان الفلسطينيون مقتنعين بأن بعض القادة السياسيين الاسرائيليين يحاولون ارغام المسلمين والمسيحيين مرة اخرى على الخروج من الاراضى المحتلة من خلال احراجهم المتعمد . فقد زعموا أن البرتقال وغيره من المنتجات الزراعية القابلة للفساد ، ليس مسموح لها بأن تباع فى اسرائيل اذا ما نافست المنتجات الاسرائيلية ، وعلى ذلك فانه يتعين توزيعها أو بيعها بكميات كبيرة بسعر زهيد أو تصديرها الى الاردن . وقالوا ان البرتقال والخضروات التى تنتجها الأسر الأكثر نشاطا كانت تحتجز فى بعض الاحيان عند جسر اللنبى حتى تفسد . وفى بعض المناطق كان لا يسمح للفلاحين بأن يستبدلوا أشجار الفاكهة التى تموت فى بساتينهم .

وكثيرا ما كان يتم اغلاق مدارسهم وجامعاتهم ، ويلقى القبض على المثقفين منهم ، وتغلق مكتباتهم وتراقب كتبهم المحفوظة بالمكتبات أو يترك الطلبة من أبنائهم وأطفالهم فى الشوارع أو فى المنازل لفترات طويلة بدون عمل . وقالوا ان أى مشاجرة خطيرة تقع بين أولئك الشباب العاطل والغاضب وبين السلطات العسكرية يمكن أن تسفر عن ارسال البولدزرات الى الحى لتحطيم منزل الاسرة . ومما أمكن التنبؤ به ، ان الفلسطينيين يعلنون استنكارهم لكافة الاعمال الارهابية ويزعمون أن المستوطنين الاسرائيليين مذنبون شأنهم فى ذلك شأن أى عرب يبدأون أعمال العنف ولكن نادرا ما يلقى القبض عليهم أو يلقون جزاءهم .

وأكثر شكواهم فيضا بالمرارة تتلخص فى أن المعونة الخارجية التى ترسلها الدول العربية بل وحتى الاموال التى ترسلها الحكومة الامريكية من أجل الاعمال الخيرية تستولى عليها السلطات وتستخدمها فيما ينفع الاسرائيليين ، بما فى ذلك بناء المستوطنات لليهود فى الاحياء الفلسطينية وزعموا أن الحكومة استولت على أموال المعونة الامريكية المخصصة لمركز للاطفال المتخلفين فى قطاع غزة وتم الاستيلاء أيضا على الاموال الاردنية والعربية الاخرى المخصصة للتعليم وتنمية صناعة الدواجن فى بعض المناطق الاكثر فقرا فى الضفة الغربية .

ولقد انزعجت انزعاجا شديدا لسماعى هذه الروايات ، وأردت التأكد مما اذا كانت صحيحة . واذا كان الامر كذلك فانى أردت أن استمع الى تفسير لهما من جانب السلطات . وقبل مغادرة اسرائيل عقدت اجتماعات مطولة مع المسئولين الدبلوماسيين الامريكيين فى القنصلية الامريكية بالقدس ، ومع الاسرائيليين المسئولين عن شئون الاراضى المحتلة . وامضيت أيضا بعض

الوقت مع احد اعضاء المحكمة العليا الاسرائيلية فى مناقشة الجانب القانونى لهذه الادعاءات . ولم ينكر أحد أن معظم التقارير صحيحة ، ولكن الاسرائيليين أكدوا أن العديد منها مبالغ فيه وأن هناك مبررات للروايات الاخرى .

ومن وجهة النظر الاسرائيلية ، فان الحياة فى ظل احتلال عسكرى تختلف حتما عن الحياة فى ظل مجتمع ينعم بديمقراطية حرة ، وأن القيود الصارمة ، تعتبر ضرورية لمنع حدوث ثورة وللتقليل من نشوب أعمال العنف . ولقد وضعت القوانين القديمة التى خلفها الاحتلال البريطانى ساعدة للقبض على المسجونين بدون توجيه اتهام رسمى لهم أو محاكمتهم . واضاف المسئولون الاسرائيليون يقولون انه ليس هناك عدد كبير من هذه القضايا وان الكنيست يدرس الغاء مثل هذه القوانين .

وفيما يتعلق بوضع العراقيل أمام العناصر النشطة ، بلغنى انه كثيرا ما كانت هناك تأخيرات طويلة عند جسر اللنبى ، على حدود الاردن ، ولكن لم يكن المقصود بهذا معاقبة أحد ، انما كان مجرد نتيجة حتمية للاضطراب البيروقراطى فى مجال السفر بين البلدين اللذين لا يتبادلان التجارة العادية ولا العلاقات الدبلوماسية .. وفى الحقيقة تحظى المنتجات الزراعية الاسرائيلية بالاولوية فى العرض فى الاسواق فى كل من تل أبيب والقدس .

وعلى الرغم من ان المسئولين الامريكيين قد استمعوا الى نفس الشكاوى من الهجمات العدوانية على العرب المسلمين والمسيحيين ، فان الاسرائيليين اصروا على ان الاعمال الارهابية اليهودية غير معروفة ، وقالوا انه مما لا شك فيه أن الفلسطينيين كانوا يتحدثون عن الاشتباكات الوجيزة بين العرب والمستوطنين اليهود بالقرب من بعض المناطق الريفية . واضافوا ان تحطيم منزل عربى بالديناميت أو بالبولدوزر ، حادث نادر ، ومتعمد الاعلان عنه بصورة مبالغ فيها ، والمقصود به أن يكون بمثابة رادع فعال للكبار الذين قد يسمحون لابنائهم فى الاسر الفلسطينية بالقيام باعمال غير شرعية ، أو يشجعونهم على ذلك .

لقد كانت معظم الاجابات الاسرائيلية صريحة ، وقد أجرينا مناقشات موسعة حول كل شكوى من الشكاوى الفلسطينية . وثمة استثناء واحد وهو استيلاء الاسرائيليين على أموال المعونة الاجنبية فقد زعموا ان بعض الاموال ربما كانت مخصصة لتمويل اعمال الارهاب العربى ، وانه يتعين أن تكون مراقبة الاسرائيليين للاحياء العربية كافية لمنع المفاسد التى قد تهدد السلام . وكان هناك أيضا بعض التعقيب على فائض السلع الزراعية الذى يتم انتاجه فى الضفة الغربية وقطاع غزة والذى قد يضر الاقتصاد الزراعى الاسرائيلى

بأسره . ان من غير المعقول أن تستخدم الاموال الاجنبية فى زيادة انتاج بعض السلع ، مثل الدواجن والبرتقال . ولقد علمت أن جزءا من أمـــوال وكالة التنمية الامريكية التى خصصها الكونجرس الامريكى قد احتفظت بها الحكومة الاسرائيلية لاستخدامها وقت الحاجة لمنع سوء استخدامها ، ولكن الاسرائيليين زعموا أن الاموال التى تم الاستيلاء عليها لم تســـتخدم فى بناء المستوطنات الاسرائيلية فى الارض المحتلة .

وأبلغنى الاسرائيليون ان هناك قاعدة قانونية يستندون عليها فى كل حالة من حالات الاســتيلاء على الارض ـــ أو أن يكون ذلك أمــر ضرورى لأغراض الأمن . وفى بعض الحالات الهامة ، استخدمت « التعريفات الادارية » للمراوغة من القرارات القانونية أو لتعديلها . وفيما بعد ذلك ، تلقيت تقريرا مقتضبا مـــن ميرون بنفينستى ، وهو اسرائيلى تولى لفترة من الوقت منصب نائب عمـــدة القدس وكان يكرس كل وقته لتحليل السياسات التى تنتهجها اسرائيل فى الاراضى المحتلة بدقـــة .

وشرح لى ميرون ، على الخرائط والرسوم البيانيـــة ، أن الاسرائيليين استولوا على الاراضى الفلسطينية بعدد من الطرق المختلفة : بالشراء المباشر، وعن طريق الاستيلاء « لأغراض أمنية خلال فترة الاحتلال » . وعن طـــريق ادعاء سيطرة الدولة على الاراضى التى كانت الحكومة الاردنيـــة تمتلكها من قبل ، « وبالاستيلاء » طبقا لبعض التقاليـــد العربية أو القـــوانين القـــديمة المنتقاة ، وبادعاء ملكية الدولة لكل الاراضى التى لا تقوم أى أسرة فلسطينيـــة بزراعتها أو تسجيلها كملكية لها . فطالمـــا أن الزراعـــة أو استخدام الارض للزراعة تعتبر معيارا من معايير ادعاء ملكية الدولة للارض فقد أصبح كسياسة رسمية عام ١٩٨٣ حظر الفلسطينيين من القيام بأى رعى للأغنام أو زراعـــة أشجار أو محاصيل فى هذه المناطق وعقوبة ذلك السجن . وعلى ما يبدو فان هذا هو مصدر بعض الشكاوى التى استمعت اليها .

ومن غير المسموح النظر فى أية قضايا قانونية تتعلق بهذه الموضوعات الخاصة بملكية الارض ، فى المحاكم الفلسطينية ، ويتعين الآن قيام الحـــاكم المدنى الاسرائيلى باتخاذ القرار فى هذا الصدد . ومنذ عام ١٩٧٧ عندما تولى حزب الليكود رئاسة الحكومة،ازدادت جهود الاستيلاءعلى الاراضى العربية بصورة واضحة وأصبح بناء المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية موضوعا من اهم أولويات اسرائيل . وأردف ميرون يقول : وعلى الرغم من كل هذه الجهـــود ، فانه لم يتجاوز عدد المستوطنين الاسرائيليين ٢٧٫٠٠٠ نسمة فى الضـــفة الغربية ، ولكن السياسات المتبعة والاتجاهات الحالية التى تعنى ضم الاراضى المحتلة ، ربما تعتبر قضية لا جدال فيها .

وحقيقى أن المحامين الفلسطينيين لم يسمح لهم بممارسة مهنتهم فى المحاكم الاسرائيلية ، حيث تتم تسوية معظم القضايا الخاصة بملكية الارض ولكننى تأكدت من أن المحامين الاسرائيليين متوفرون ليمثلوا الفلسطينيين . وكثيرا ما تم الاستشهاد بأحد الاعضاء الاكثر تطرفا فى الكنيست ، كمثال على ذلك .

وسألت قاضيا فى المحكمة العليا الاسرائيلية ، عما اذا كان يعتبر معاملة الفلسطينيين منصفة ، فقال انه يتناول كل قضية ترفع اليه فى المحكمة العليا ، بانصاف ولكن ليست لديه السلطة ليبتدع اجراء قانونيا . ثم طلبت منه أن يعرض تقييمه الشخصى عن الوضع فى الضفة الغربية وقطاع غزة . فأجاب بأنه لم يذهب الى المنطقة منذ ما يزيد على أربعة أعوام وليس لديه أية نية فى زيارتها . فقلت له انه اذا كان يتعين عليه أن يتخذ قرارات تؤثر على حياة الناس فى الاراضى المحتلة ، فانه يجب عليه معرفة المزيد عن الطريقة التى يعيشون بها . فقال وقد اعتلت وجهه ابتسامة : « اننى قاض ولست محققا » .

بل وحتى الفلسطينيين الاكثر التزاما بالصمت ، يعتقدون ان المتشددين سوف يصبحون بالضرورة أكثر نشاطا فى كلا الجانبين . وخلال الاشهر التى أعقبت زيارتى ، ازداد معدل العنف باطراد فى الاراضى المحتلة بينما اتسعت المستوطنات وأصبح اليهود والعرب أكثر اقترابا من بعضهما البعض . وحينما اكتشف المسئولون الاسرائيليون المنظمات الارهابية اليهودية فى المنطقة اتخذوا موقفا متشددا ازاءها ، فألقوا القبض على عدد من الاشخاص وأعلنوا بعض الادلة وبعض أسماء الاشخاص المتهمين .

وعندما قمت بزيارة الزعماء الفلسطينيين الذين يعيشون خارج اسرائيل والاراضى المحتلة — فى مصر والاردن وسوريا والسعودية والولايات المتحدة — وجدت مجتمعا من الناس مختلفا تماما . لقد شكلت اتجاهاتهم والتزاماتهم الاحداث الماضية . أما فى هذه الايام فلم يعد بينهم وبين اليهود أو العرب الذين مازالوا يعيشون فى فلسطين ، أى اتصال تقريبا . فان الكثيرين من هؤلاء المتحدثين باسمهم قد تم طردهم منذ وقت مبكر ، فى عام ١٩٤٨ ، من الاراضى التى مازالوا يعتبرونها بمثابة ديارهم ، وهم يزعمون علانية أن لهم الحق فى استخدام أية وسيلة متاحة لهم ، بما فى ذلك النضال المسلح لاسترداد حقوقهم السليبة .

وقد تحدثوا بحرية اكبر بل ، وحتى بعبارات تنطوى على سباب واهانات عن السياسة الاسرائيلية ، وركزوا فى حديثهم على الاهداف طويلة الاجل لمنظمة التحرير الفلسطينية . ونادرا ما ذكروا محنة اشقائهم فى الضفة الغربية وقطاع غزة . وبالاحرى فان عباراتهم صيغت فى شكل مناقشـــ

اكاديمية او سياسية واوضحوا السبب وراء اعتبار الاسرائيليين اياهم اعداء الداء والسبب وراء حقيقة أن الخلافات بين اسرائيل والمتحدثين بلسان منظمة التحرير الفلسطينية لا يمكن تسويتها . أن زعماء منظمة التحرير الفلسطينية مهتمون « بتحرير » المجتمعات القائمة فى اسرائيل نفسها بنفس قدر اهتمامهم بتحرير أولئك المقيمين فى الضفة الغربية وقطاع غزة . وكما قال أحدهم علانية ، « لم يتم انشاء منظمتنا فى عام ١٩٦٤ من أجل تحرير الخليل ونابلس وغزة ، لأن هذه المناطق قد تم تحريرها بالفعل ، ولكن بالأحرى ان منظمتنا قد تأسست لتحرير يافا وحيفا والرملة والنقب » . وقال جورج حبش رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، فى أحد الاحاديث الصحفية : « نحن سنقبل جزءا من فلسطين فى البداية ، ولكننا لن نوافق على التوقف عند ذلك لأى ظرف من الظروف . سنقاتل حتى نسترد كل شبر فيها » . ويعتقد هؤلاء المتحدثون المتشددون ان ثمة التزاما معنويا من جانب العالم العربى وجميع من يؤمنون بعدالة القضية الفلسطينية وهو أن يرفضوا كل خطوة تخطوها اسرائيل فى محاولة للحصول على قبول المجتمع الدولى واعترافه بها .

اما ياسر عرفات فقد اتخذ اتجاها اكثر اعتدالا بصفة عامة ، بزعمه : أن منظمة التحرير الفلسطينية لم تناد قط بابادة اسرائيل . وان الصهاينة هم الذين بدأوا باستخدام شعار « القاء اليهود فى البحر » ونسبوه لمنظمة التحرير الفلسطينية . وفى عام ١٩٦٩ ، أعلنا أننا نريد انشاء دولة ديمقراطية يمكن لليهود والمسيحيين والمسلمين ان يعيشوا فيها معا . فقال الصهاينة انهم لا يحبذون العيش مع اى شعب آخر سوى اليهود ... فقلنا لليهود الصهاينة ، حسنا ، اذا كنتم لا تريدون انشاء دولة علمانية ديمقراطية تضمنا جميعا ، فاننا سوف نسلك طريقا آخر . وفى عام ١٩٧٤ ، أعلنت أننا على استعداد لان ننشىء دولتنا المستقلة فى اى جزء تنسحب منه اسرائيل » . ومن الواضح أن هناك اختلافات بين الاصوات الصادرة من منظمة التحرير الفلسطينية ويفسر المستمعون الكلمات بما يتفق وغاياتهم .

اما اولئك الذين مازالوا يعيشون فى فلسطين فان اهدافهم واتجاهاتهم مختلفة تماما . فهم يسعون الى التمتع بالحقوق الانسانية الاساسية ومنها حرية التعبير والمساواة فى المعاملة فى ظل القانون وانهاء الحكم العسكرى ، والتملك بدون الاستيلاء على الممتلكات ، وحق تقرير المصير . وهم يريدون اختيار زعمائهم وادارة شئونهم الخاصة بهم . ونادرا ما ذكروا شيئا عن دولة فلسطينية فى احاديثهم معى ، كما لم يرددوا قط عبارة انهاء وجود اسرائيل كدولة . ونظرا لانهم عمليون تماما فهم يحبذون اجراء مفاوضات مع الاسرائيليين كوسيلة للتخلص من مظالمهم . ومعظمهم على استعداد لان يقوم الاردنيون أو منظمة التحرير الفلسطينية بالتفاوض نيابة عنهم ، ولكنهم سيقبلون قرار

منظمة التحرير الفلسطينية كرد ملزم فى هذه القضية . ان الفلسطينيين المقيمين فى الاراضى المحتلة مازالوا يعتبرون بمثابة جسر حقيقى بين الاسرائيليين الذين يعيشون معهم وأشقائهم فى الدول العربية .

ولا يبدى سوى عدد قليل من زعماء منظمة التحرير الفلسطينية ميلا نحو التنازل للملك حسين عن أى قدر من نفوذهم أو سيطرتهم على الفلسطينيين فى اسرائيل أو الاراضى المحتلة . فهم يعتبرون منظمة التحرير الفلسطينية بمثابة اداة بلا منازع قادرة على استرداد الحقوق الوطنية السليبة للشعب الفلسطينى فى كل مكان ، ولا يعيرون أى اهتمام للدفاع عن شرعية منظمتهم أو عملياتهم .

وعندما سألت عن اهداف منظمة التحرير الفلسطينية ، بدوا مندهشين نوعا ما متسائلين عما اذا كنت فى حاجة لتوجيه مثل هذا السؤال ، ثم اعطونى كتيبا جاء فيه : « ان منظمة التحرير الفلسطينية ، حركة تحرير وطنية للشعب الفلسطينى . انها التعبير الدستورى للنضج السياسى الفلسطينى . ان منظمة التحرير الفلسطينية تعتبر بالنسبة للشعب الفلسطينى مثل حركات التحرير الوطنية الاخرى بالنسبة لدول أخرى . انها وسيلتهم لاعادة تأكيد هوية وطنية مفقودة ، واستعادة تاريخ مطموس ، وحماية تراث شعبى ، واعادة بناء مؤسسات منهارة ، والمحافظة على وحدة وطنية تتعرض لتهديد التشتت الفردى والنضال من اجل استعادة الوطن المغتصب والحقوق الوطنية المفقودة . وباختصار ، فان منظمة التحرير الفلسطينية تعتبر الضالة المنشودة بالنسبة للشعب الفلسطينى فى سبيل احياء وجودهم الوطنى » . ومن الطريف ان تلاحظ عدد المرات التى تظهر فيها كلمة « وطنى » فى هذه العبارة القصيرة

ان منظمة التحرير الفلسطينية عبارة عن منظمة تضم عددا من الجماعات المفككة تربطهم ببعضهم البعض أهداف مشتركة ، ولكنها تضم العديد من الجماعات الحريصة على استخدام وسائل مختلفة للوصول الى هذه الاهداف . وثمة هدف من أهدافها الاساسية ، هو كسب الحلفاء والتأييد من جانب الحكومات الاخرى ، وهو الامر الذى حققت فيه نجاحا ملحوظا . ان كل قرار من القرارات العديدة التى أصدرتها الامم المتحدة والخاصة بتأييد الفلسطينيين، دللوا عليه باعتباره عنصرا من عناصر اثبات فعاليتهم وشرعية قضيتهم . وهم يرفضون الامتناع عن أعمال العنف كوسيلة لتحقيق غاياتهم ويمكنهم أن يوافقوا على الحد منها تماما فقط لرفع قدر سمعتهم الدولية بعد التوصل الى اتفاق مرضى مع اسرائيل . ومعظم اعضاء منظمة التحرير الفلسطينية ليس لديهم نية الاعتراف بحق اسرائيل فى الوجود مالم تكن على استعداد لمنح الفلسطينيين حقوق متساوية ، ويصرون على ضرورة موافقة الاسرائيليين على جميع قرارات الامم المتحدة الخاصة بالشرق الاوسط ، والكثير منها تؤيد القضية الفلسطينية تأييدا تاما ، وذلك اذا كان على الفلسطينيين أن يقبلوا قرارى ٢٤٢ و ٣٣٨ .

والزعماء الفلسطينيون مقتنعون بان كافة الحروب العربية الاسرائيلية قد اشتعلت نتيجة للمشكلة الفلسطينية — فى اعوام ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ وغزو لبنان فى عامى ١٩٧٨ و ١٩٨٢ — وبطبيعة الحال الحروب الاهلية لعام ١٩٧٠ فى الاردن و ١٩٧٥ فى لبنان . ويعتقدون ان موطىء قدم السوفيت بين العرب يرجع بصفة مباشرة الى رد فعل العرب ازاء المواقف الامريكية ازاء المشكلة الفلسطينية . وهم يتنبأون ايضا بانه اذا حدث وانهارت اتفاقيـــة السلام المصرية — الاسرائيلية أو اذا نشبت مواجهـــة بين القوتين العظميين ، فان نفس المشكلة ستكون هى السبب فى حدوث ذلك .. وبنظرة محدودة لا تتجاوز حدود المشكلة ، يرى الزعماء الفلسطينيون ان اعادة الحقوق الفلسطينية بمثابة السبيل الى تحقيق السلام الاقليمى ، بل وحتى فى ظل بعض الظروف السلام العالمى .

ومع ذلك وحتى لـــو اخذنا كل هـــذه الحقائق الواقعية فى الاعتبـــار ، فاننا سنجد هنـــاك بعض الاتجاهات المشـــجعة فى الاعوام الاخيرة . فان هنـــاك قدرا من الصرامة والتشدد لدى كلا الجانبين اقل مـــن ذلك الذى كان موجودا منـــذ عشر سنوات ، فقـــد ازداد الاعتراف فى العالم العربى بأن اسرائيـــل حقيقة واقعة كما نما ادراك بين عـــدد أكبر من الاسرائيليين بأن التوصـــل الى حـــل للمشكلة الفلسطينية يعتبر امـــرا حيويا اذا ما قدر ابرام تسوية شاملة للصراع . وبالاضـــافة الى ذلك ، فان هنـــاك اقتراحات تنبثق عـــن قرار الامم المتحـــدة رقم ٢٤٢ ، تتضمن بعض العناصر المشتركة ، وتصف بدقة ووضوح اكثر الاختلافات التى ما زالت قائمة .

ويؤكد الفلســـطينيون وغيرهم من العرب أن البيان الصـــادر عن مؤتمر فاس لعـــام ١٩٨٢ (الملحـــق السادس) يعتـــبر اعترافا صريحا بحق اسرائيل فى الوجود ويبدى استعدادا لتسويـــة بعض الخلافات التى لـــم يتم تناولها حتى الآن بصورة مباشرة خلال فترة انتقالية . ان الصـــياغة المبهمة لهـــذا البيان كانت متعمدة ، وقـــد اتضح ذلك الغموض فىالنسخ المكتوبة باللغة العربية وايضا باللغتين العبرية والانجليزية . وعلى الرغم من أن معظم المحللـــــين الغربيين وجدوا ان معناه الأعمق غامض الى الحد الذى يصعب معه فك رموزه ، فان العرب يدافعون عنه بقولهم انه قد تمت صياغته ليفهمه الاسرائيليون وغيرهم وانه على أية حال ، اكثر ايجابية ووضوحا عن اى شىء آخر يرد حاليا من تل ابيب والقدس .

ومهما يكن من امر ، فانه مازال هناك بين الامريكيين لغز بدون حل بالنسبة لاولئك الذين يسعون الى تسوية عن طريق المفاوضات وتتمثل الحقائق فيما يلى:

— ان القضية الفلسطينية تعتبر سببا اساسيا لاستمرار الصراع فى الشرق الاوسط ويتعين تناولها بدقة واحكام اذا قدر تحقيق سلام فى المنطقة .

— ان منظمة التحرير الفلسطينية ، برئيسها المنتخب ياسر عرفات ، تعتبر الكيان المسئول عن المستقبل السياسى للفلسطينيين وعن المفاوضات من اجل استرداد حقوقهم ، وليس هناك أحد آخر يمكنه القيام بهذه المهام بدون تفويض محدد من جانب منظمة التحرير الفلسطينية .

— فى سبيل اقرار السلام مع العدالة فى الشرق الاوسط ، فانه يتعين قيام الولايات المتحدة بدور هام — ولكن المسئولين الامريكيين — احتراما لالتزام تعهدوا به لاسرائيل عام ١٩٧٥ قد تعهدوا بعدم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية او التفاوض معها حتى تعترف بوجود أسرائيل وتعترف بقرار الامم المتحدة ٢٤٢ فى تسوية الخلافات القائمة فى الشرق الاوسط .

— ترى منظمة التحرير الفلسطينية ان هناك قصورا فى قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ ، لأنه يشير الا اشارة عابرة الى الفلسطينيين بكلمة « لاجئين » ، بينما تغطى كثير من القرارات الأخرى الى اصدرتها الامم المتحدة القضية بصورة اكثر تحديدا ولا تحظى بتأييد اسرائيل . وبالاضافة الى ذلك ، فان الاعتراف باسرائيل من جانب واحد وبصورة غير متبادلة سيكون عبارة عن اللعب بورقة سياسية هامة يمكن ان يحتاجوا اليها فى المفاوضات المستقبلية للمساومة من أجل مصيرهم .

ومن الواضح ان اكبر فشل لحق بالفلسطينيين ، فى السعى الى ايجاد تفهم لوضعهم ، قد واجهوه فى اسرائيل والولايات المتحدة من نفس اولئك الذين ربما اديهم مفتاح حل مشكلتهم مستقبلا . ان استعدادهم للجوء الى الاعمال الارهابية ورفضهم اى اعتراف واضح بحق اسرائيل فى العيش فى وفاق مع جيرانهم ، واحجامهم عن السماح للملك حسين أو أى ممثلين آخرين لاستكشاف الفرص من اجل اقرار السلام وتخفيف أحزانهم ، ومطالبهم المتشددة التى لا تلين والتى ترفضها اسرائيل ومؤيدوها ، كل هذا عمل على الحيلولة دون الاعتراف الرسمى بزعمائهم والحصول على مزيد من التأييد لقضيتهم .

وخلال الغزو الاسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ ، اثبت التأييد العربى للفلسطينيين عدم وجوده تقريبا او ضعفه فى احسن الاحوال ، وثمة احتمال فى ان يجعل استمرار حالة الركود الراهنة ، القادة العرب يفقدون الاهتمام بالقضية . وثمة مشكلة اخرى تتلخص فى أن تشتت الفلسطينيين وارغامهم على تغيير مكان اقامتهم فى لبنان ، قد خلق هوة طبيعية اكبر فيما بينهم وبين وطنهم . ولم تعد منظمة التحرير الفلسطينية تعمل بصورة فعالة فى اية منطقة مجاورة لاسرائيل . فان كلا من الضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان وجنوب لبنان تخضع للسيطرة الاسرائيلية ، أما الأردن وسوريا فقد رفضتا حرية استخدام أراضيهما للعمل ضد اسرائيل .

ومهما يكن من أمر ، فمن الغريب ان المكانة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية تبدو فى بعض الأحيان وكأنها تزداد بصورة عكسية بالمقارنة بهزائمها العسكرية . فبعد فقدان جهودها فيما يتعلق باستخدام الاردن كقاعدة عمليات ضد اسرائيل فى عامى ١٩٧٠/١٩٧١ ، نهضت منظمة التحرير الفلسطينية من جديد كقائد للشعب الفلسطينى ، وأصبح لها قاعدة عمليات قوية فى لبنان . وبعد أن عمل كامب ديفيد ومعاهدة السلام المصرية — الاسرائيلية على تغيير موقف مصر بصفتها مؤيدا كبيرا لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بدا أن الحياة بدأت تدب فى المنظمة حيث ان العرب الغاضبين الآخرين جددوا التزامهم نحو القضية . ولقد أسفرت الضربات الساحقة التى وجهتها القوة العسكرية الاسرائيلية الى الفلسطينيين فى لبنان عام ١٩٨٢ ، عن خروج قوات منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت ، ولكن المنظمة ظهرت مرة أخرى بمثابة الرمز السياسى المتبقى الوحيد لتقرير مصير الفلسطينيين لانفسهم . وبعد ذلك بقرابة ما يزيد على العام ، اى فى ديسمبر عام ١٩٨٣ ، أجبر الخونة الذين تؤيدهم سوريا ، ميليشيات منظمة التحرير الفلسطينية على الجلاء للمرة الثانية عن شمال لبنان ، ولكن عرفات استطاع هو وقواته مرة اخرى ان يظلوا على قيد الحياة وان يبدأوا فى اعادة بناء قوتهم السياسية . وبعد ذلك مباشرة ، توجه القائد الفلسطينى المرن ، على سبيل المثال الى مصر لرأب صدع العلاقات المتدهورة مع الرئيس حسنى مبارك. ولم يحدث الا مؤخرا أى فى نوفمبر ١٩٨٤ أن عقد المجلس الوطنى الفلسطينى اجتماعا فى عمان (نفس العاصمة العربية التى كانت مسرحا لسفك الدماء الاردنية الفلسطينية قبل ذلك بأربعة عشر عاما) . واعتبر كلا الحدثين غاية فى الأهميه فيما يتعلق بالتصالح ما بين الاردن ومصر ومنظمة التحرير الفلسطينية .

وعلى ما يبدو الآن فان منظمة التحرير الفلسطينية تتطلع الى تحقيق ما يلى الاهداف الاساسية :

— التمتع بسلطات مستقلة حرة بعيدة عن سيطرة أى دولة عربية .
— التماسك داخل المنظمة .
— قبولها بصفتها الممثل الوحيد للشعب الفلسطينى .
— المحافظة على التزام صارم بتحرير أكبر قدر ممكن من فلسطين .
— لا اعتراف واضح بحق اسرائيل فى الوجود .
— اعادة تحقيق الوحدة العربية ، بما يشمل اعادة مصر الى الحظيرة العربية .
— زيادة التأييد من جانب الشعوب الاخرى لمنظمة التحرير الفلسطينية واعضائها .

ولكن ثمة مشكلة هامة مازالت بـلا حل وهى ما اذا كان الفلسـطينيون يستطيعون لمدة اطوال مواصلة سياستهم الخاصة بالرفض التام لاسرائيـل ومطالبتهم بالاسترداد الكامل لوطنهم بأى أمل فى تحقيق النجاح فى النهـاية . والاحتمال الاكبر أن منظمة التحرير الفلسطينية تسير فى طريق مسدود ، الى الحد الذى سيضيق العالم بل وحتى مؤيدوها العرب من تأييد القضية الفلسـطينية وسيتركونها لتتلاشى وتحجب عن الانظار .لقد قال مارتن لوثر كنج الصغير فى يوم ما ، انه ليس هناك ثمة شيء يمكن ان يضر بقضية السود فى امريكا اكثر من ان يضيق ببساطة البيض ذرعا بها .كما أنه ليس ثمة احتمال فى أن يـكون الاستعداد للجوء الى العنف أو التهديد بالعنف له أية نتائج مثمرة فى المستقبل اكثر مما كان له فى الماضى . ويتعين ان نتذكر أن منظمة التحرير الفلسطينية لم تستفد ، نتيجة لاتباعها سياستها الحالية الخاصة بالمواجهة وعدم المرونة ، بوصة واحدة من الارض أو اية ميزة أخرى للفلسطينيين . ومازال زعماء منظمة التحرير الفلسطينية ، يتصرفون بما يضر بمصالح أولئك الذين يمثلونهم بينما يرضون قبول تحمل اية مسئولية بسبب عدم احراز تقدم .

وربما يؤتى تحرك حقيقى نحو اقرار السلام ثمارا وفيرة وذلك من خلال حث التأييد له فى الولايات المتحدة وغيرها من الدول . وهنـاك الكثيرون من الاسرائيليين الذين يؤمنون بأن الفلسطينيين يستحقون وطنـا ، وأن حقـوقهم الاساسية ، بما فى ذلك حق تقرير المصير ، ينبغى أن تحترم . ويعتمد مصـير اربعة ملايين فلسطينى على ما اذا كانت منظمة لتحرير الفلسطينية سـوف تختار تحقيق اهدافها عن طريق الوسائل السلمية أو عن طريق استمرارها فى سفـك الدمـاء .

« الأردن »

بدا الوادى الضيق الذى لا يكاد يتسع لمرور سيارة جيب والذى تحـد جانبيه كثبان من الحجر الرملى يصل ارتفاعها الى مئات الاقدام وكأنه دائما يلتقى فى الافق متجها الى طريق مسدود . قال مرشدونا الأردنيون أن الوادى يأخذنا الى أقـرب مكـان لوادى موسى ، حيث تلقى اليهـود القدامى المحتضرين عطشـا الميـاه من عين جـديدة عندما أمر الله زعيمهم بأن يضرب بعصاه الصخر . وحتى فى تلك الايام ، كانت المنطقة المحاطة بهذه الجبال شديدة الانحـدار قد اقامت فيهـا الشعوب آلاف السنين لأنها منيعة بصفة طبيعية ضد اى هجوم للعدو وبسبب قربها من التقاء طرق التجارة القديمة من شبه الجزيرة العربية الى البحر الابيض المتوسط ، ومن سوريا ووادى نهر الفرات العظيم الى البحر الأحمر ومصر .

وبعد آلاف السنين من مرور موسى بهذا الطريق شيد الانبـاط مدينة حصينة فى هذا المكان ، عرفت فى الازمنة المقدسة باسم سيلا ويطلق عليهـا حاليا اسم بيترا ، وقبل عهد المسيح امتد سلطان ملكهم أريتاسى الثالث شمالا فيمـا وراء دمشق وغربا الى ما بعد القدس تجاه البحر الابيض المتوسط . وعندما فر هيرودس من القدس فى عام ٤٠ قبل الميلاد ، جاء الى هذه المنطقة المعزولة طلبا للمساعدة . ومن هذا المكان واصل رحلته الى روما . وهناك تم بسرعة تتويجه ، بمساعدة مارك انطونيوس وأكتافيوس ، ملكا على اليهود واعيد الى فلسطين حيث ظل فى الحكم حتى الى ما بعد مولد المسيح . وظلت بيترا العاصمة الاقليمية للأنباط لمـدة ١٥٠ عاما أخـرى حتى أسس الفاتحـون الرومان اقليم الجزيزة العربية الجديد ، وانشأوا مركزه السـياسى فى أقصى الشـمال .

وبينما كان مرشدونا يلقون علينا دروسا تاريخية ، أشاروا أيضا الى القنوات الصغيرة التى نحتت فى الصخر الاصم على كلا جانبى الطريق المتعرج ، والتى جلبت المياه الى المدينة القديمة . واذا صدقت هذه الاسطورة فان هذا هو نفس المجرى المـائى الـذى أمـد اليهود خلال فترة خروجهم من مصر ، بأسباب الحياة . وسرنا فى طريقنا بحذر ، وببطء حتى نفسح الطريق للزائرين الآخرين الذى يسيرون اما على الاقدام أو على ظهر الخيل فى الممر الوعر . وكنا نصادف من وقت لآخر ، نقوشا منحوتة على الصخر على المنحـدرات المتآكلة ، وعلى ما يبدو انها تتضمن بعض المعانى الدينية .

وبعد أن قطعنا مسافة ميل أو نحو ذلك ، توقفت سيارتنا الجيب ونزلنا منها لنستكمل رحلتنا سيرا على الاقدام . وفجأة ارتسمت عبارات الدهشة

عندما ظهرت الواجهة الجميلة لمعبد يونانى من بين ثنايا صدع أمامنا . لقد كان عبارة عن مبنى تم نحته فى منحدر من الحجر الرملى ، وقد بدأ متناسقا ومتلألئا بصورة غريبة بمختلف الالوان التى اصطفت بها الصخور الطبيعية ، فمنها الأحمر والأرجوانى والأصفر .

وقمنا بفحص عدد قليل من الكهوف التى من صنع الانسان كان بعضها عبارة عن مقابر والبعض الآخر مخازن حيث كان يحفظ فيه الانباط ثرواتهم ومقتنياتهم . وامكننا أن نتصور كيف كانت هذه المبانى الضخمة المهجورة مزدحمة بالتجارة الدولية ، وبعمليات تبادل تجارى للسلع بين مشايخ القبائل الصحراوية والاسر الملكية وبعمليات التفاوض بصدد الاتفاقيات السياسية ، وبقطاع الطرق البدو الذين كانوا يدبرون الهجمات على القوافل المارة التى ترفض دفع جزية لحمايتها . وفيما بعد ذلك ، استقلينا السيارة وسرنا فى الوادى ، لنتوقف على طول الطريق لنتسلق جدران المنحدرات لزيارة عدد قليل من سكان الكهوف التى مازالت عامرة بالسكان . وبدأ أن الوقت الطويل الذى امضيناه والآف الأميال التى قطعناها قد فصلتنا عن المشاكل الحالية التى تعانى منها منطقة الشرق الاوسط .

ولكننا جلسنا ، عند قرية صغيرة وتحت خيمة لنتحدث مع احد مشايخ القبائل ، لقد عاد بى أول تعليق نطق به ، الى الواقع . فقد قال بعبارة ممتزجة بخليط من الغضب والأسى ان أسوأ كارثة ألمت بأفراد قبيلته هى تلك التى تتمثل فى استيلاء اسرائيل على الضفة الغربية واغلاق الجسر الممتد عبر نهر الاردن بالقرب من أريحا . ان سكان بيترا والاردن اعتمدوا اعتمادا كبيرا على بيع سلعهم وخدماتهم للزائرين الذين يترددون على المنطقة لمشاهدة الاماكن المقدسة ، ولكن الطريق السياحى غير المباشر وهو يمر باسرائيل والضفة الغربية والاردن ومصر قد أغلق الآن منذ سبع سنوات .

وعندما وقعت عيناى أنا وروزالين لأول مرة على الاردن فى ربيع عام ١٩٧٣ ، لم ندخل البلاد ، ولكننا حدقنا ببصرنا من الضفة الغربية عبر الاسلاك الشائكة ، على الحقول الخضراء عبر النهر . فقد كنا زوارا متميزين ، وقد سافرنا كضيوف على جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل . وعند جسر اللنبى ، سررنا لرؤية عدد كبير من الناس يذهبون ويجيئون بلا توقف بين البلدين وكان التفتيش على الحدود مجرد اجراء روتينى . وقد أحاط بالمكان الذى يعج بالزوار ، جو مرح مثل ذلك الذى تتسم به الأعياد والبرامج الترفيهية .

والآن وبعد عشر سنوات ، رجعنا الى نفس الجسر . ولكن الموقف اختلف تماما . فقد انتشر الجنود الاسرائيليون بزيهم الرسمي فى كل مكان ، ولم يكن هناك سوى عدد قليل من الناس يعبرون الحدود . وطوابير منتظرة ممتدة

لمئات الياردات ، وصف غير منتظم من العربات والسيارات ، كما لو كان بعض الناس ينتظرون منذ عدة أيام • ولم يبد أى شعور بالاستعجال على وجوه أولئك المتجهين الى أى من الاتجاهين •

وفى هذه المرة كنا على استعداد لعبور نهر الاردن ونحن فى الطريق من القدس الى عمان ، فى أعقاب قدر كبير من المشادات الكلامية بين أعضاء هيئة مكتبى والمسئولين الدبلوماسيين لكلا البلدين . وكانت وزارة الخارجية الامريكية قد نصحتنا بالحصول على جوازات سفر خاصة للقيام بالعبور ، لأن توقيع الاسرائيليين على الوثائق فى بادىء الأمر ، لا يجعلها تحظى باحترام العرب • وقد أصبح بمثابة عادة بالنسبة للمسافرين أن يحملوا جوازات سفر مزدوجة لهذا الغرض ، ولكننى رفضت كمسألة مبدأ . وعندما وصلنا ومعنا جوازات سفر منفردة ، تمت بالفعل الترتيبات حتى لا يحدث تغيير فى الأوراق ولكنهم أوضحوا لنا ان استمرار استخدامنا لنفس الوثائق ، يعتبر بمثابة ترتيب خاص لى بصفتى رئيس جمهورية سابق ، ويعتبر خرقا للاجراء المتبع العادى •

وغادرنا السيارات التى تقلنا ، وسرنا وبرفقتنا عدد من المسئولين الاسرائيليين على الجسر ومعنا أمتعتنا وواصلنا السير بهدوء حتى وصلنا الى منتصف الجسر بالضبط وشكرنا مضيفينا الاسرائيليين ثم التفتنا لنجد مجموعة من الاردنيين فى استقبالنا • ولم يتم أى تبادل لعبارات المزاح بين مسئولى الدولتين •

ومما يدعو للدهشة أن النباتات الاستوائية التى تزرع فى الوادى الخصيب على شاطىء النهر ، تماثل الى حد كبير مزروعات الأرض الانتاجية القريبة من خط الاستواء . وكنا عند ادنى منطقة على الأرض ، على بعد بضعة اميال من البحر الميت ، ولقد اشاعت مجموعة العوامل المختلفة المجتمعة مثل الموقع المنخفض والحرارة المرتفعة ومياه النهر للرى ، جوا جميلا ممتعا مليئا بحب الخير •

وكنت قد قرأت شيئا عن مدينة بنى عمون ، المدينة القديمة للعمونيين فى الروايات المقدسة لفتوحات الملك داود وعرفت ان اسمها قد تغير الى فيلادلفيا قبل عهد المسيح . وبعد أن فتحها العرب فى عام ٦٣٥ ميلادية اصبح اسمها عمان . وواصلنا السير الى المدينة القديمة ، التى أصبحت الآن العاصمة الحديثة للاردن . والجدير بالذكر أن تعداد السكان فى عمان قد تضاعف فى الآونة الاخيرة بل انه تضاعف أربع مرات نظرا لأن مئات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين وأعداد كبيرة من البدو من السهول شبه القاحلة والصحارى واصلوا زحفهم الى داخل هذا المركز الحضارى الهام .

وقد اصطحبنى أنا وروزالين ، أعضاء الحرس البدو التابع للملك حسين الذين يرتدون زيا أنيقا فى جولة بالسيارة فى ضواحى عمان . ثم اصطحبانا الى فناء القصر الملكى ، ويقع على تل بالقرب من المدينة القديمة . وقد أمكننا أن نطل من قصر مضيفنا عبر وادى ضيق شديد الانحدار ، على الشوارع المزدحمة بالمارة فى منطقة سكنية ، حيث تم بناء المساكن خلال السنوات الاخيرة . وقال بعض مرافقينا من الأردنيين ان المنطقـــة ليست كما كانت تبدو منذ العديد من السنوات ، حيث كان جد الملك حسين ، الملك عبد الله ، يستمتع بوضع الاهداف على التل الخالى من المبانى عبر الوادى ، حتى يتمكن هو والضباط البريطانيون فى الجيش العربى من ممارسة هواية الرماية بعيدة المــدى .

لقد قاتل أحد الأ مراء الهاشميين وهو عبد الله بن الحسين ـــ من سلالة النبى محمـــد ـــ بشجاعة الاتراك خلال الحــرب العالمية الأولى ، واضطر البريطانيون مكافأته بطريقة ما ملائمة . فاختير فى بادىء الأمر ، ملــكا على العراق وفقا لمـــا أوصى به القادة العرب الآخرون ، ولكن البريطانيين قــرروا منح ذلك الشرف لشقيقه فيصل . لذلك فانهم احتاجوا لعرش آخر ، لــذلك انشأوا امارة أطلقوا عليها اسم شرق الاردن ، من بعض المناطق الصحراوية النائية عن فلسطين الخاضعة للانتداب فى ذلك الوقت . وتوج عبد الله ملــكا عليها . ولكن نظرا لأنه فى ظل دولة خاضعة للانتداب فقد احتفظ البريطـــانيون بكافة السلطات تقريبا . ولم تصبح شرق الأردن مملكة ولــم تحصل على أى استقلال حقيقى الا بعد عام ١٩٤٦ . وحتى فى ذلك الوقت ، كان الســـــفير البريطانى يتحكم فى السياسة الخارجية ومعظم المسائل المالية والعسكرية .

وفى أعقاب الحرب العربية ـــ الاسرائيلية عام ١٩٤٨ ، ادعى عبد الله ملكية الارض فى الضفة الغربية غير الخاضعة لسيطرة الاسرائيليين ، بما فى ذلك المدينة ذات الاسوار القديمة القدس الشرقية ، بما فيها من أماكن مقدسة عديدة . وأعرب مجلس ضم مجموعة من القادة الفلسطينيين وقع عليهم الاختيار فى الضفة الغربية عن موافقته على الضم . وربما كان ذلك هو البديل الوحيد فى ذلك الوقت لتشتتهم . وقد تأكد هذا الاجراء من خلال هدنة عام ١٩٤٩ التى تم ابرامها بين الملك عبد الله والاسرائيليين ، فى الوقت الذى أصبحت فيـــه شرق الاردن المملكة الهاشمية الاردنية . وناضلت من أجل استيعاب ما يقرب من ٤٠٠ الف لاجىء فقدوا ديارهم بالاضافة الى ٤٠٠ الف عربى كانوا لايزالون يقطنون فى ديارهم فى الضفة الغربية . ولم يكن سوى ٦ ٪ من أرض الاردن هى التى تقع غرب النهر ، ولكن ما يقرب من ثلثى السكان ونسبة كبـــيرة من مواردها الطبيعية والمالية أصبحت الآن فلسطينية .

وقد عاش ما يقرب من ثلث عدد الفلسطينيين فى معسكرات ، بينمـــا عاش الآخرون حيثما أمكنهم أن يجدوا مأوى مؤقتا ـــ فى الكنائس والمســاجد

والخيام والكهوف والأكواخ والمبانى العامة ، فقد رفضوا قبول مساكن دائمة ، زاعمين أن ديارهم الدائمة الوحيدة هي فى فلسطين ، التى يطلق على جزء كبير منها حاليا اسم دولة اسرائيل . وظل عدد كبير من المشردين بلا عمل ، وعاشوا على حصص المعونة الغذائية لوكالات الغوث التابعة للامم المتحدة . وحتى مع ذلك ، ظلت الحياة فى الضفة الغربية مزدهرة ، ولذلك فقد تلقى الفلسطينى العادى تعليما افضل ، وحصل على غذاء افضل ، وقام بقدر أفضل من النشاط السياسى من جاره الذى يقيم فى الضفة الشرقية . وعندما وافق البرلمان الاردنى فى ابريل عام ١٩٥٠ على الوحدة الرسمية بين الضفة الغربية والاردن ، تم منح جميع الفلسطينيين الجنسية فى الدولة الجديدة . واشترك الكثيرون فى الشئون السياسية للاردن ، ولكنهم ما زالوا يحتفظون بهويتهم كفلسطينيين .

وعلى الرغم من انه لم يكن ليصدر اقتراح هام بصدد انشاء دولة فلسطينية فى الضفة الغربية قبل عام ١٩٦٧ ، كانت هناك اعتراضات قوية بين العرب على قبول دولة اسرائيل . وقد تردد أن عبد الله كان يجتمع سرا بالاسرائيليين ، وأن أحد المتشددين المسلمين قد اغتاله فى يوليو عام ١٩٥١ على جبل المعبد فى القدس أمام حفيده حسين بن طلال . وبعد ذلك بما يزيد على عامين ، اعتلى ذلك الشاب العرش الهاشمى عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره . وبحلول ذلك الوقت ، حصل الفلسطينيون على نصف عدد المقاعد فى البرلمان ، ونفس النسبة من المناصب العليا فى الحكومة . واستمر الملك فى ضغطه من أجل الحصول على الاستقلال الكامل للادرن . وفى ١٩٥٦ ، أصدر أوامره للمسئولين البريطانيين والعسكريين بمغادرة الاردن خلال ساعات قليلة . وعندما امتثلوا لهذا الانذار النهائى ، تم انهاء كافة اوجه الاعتماد على أولئك الذين انشأوا مملكته ومولوها وعززوها منذ مولدها ، بطريقة سليمة . وكان هذا القرار هو من اكثر القرارات التى لاقت شعبية خلال مدة حكمه .

وقد واجه الملك حسين اكبر مأساة سياسية فى عام ١٩٦٧ ، عندما انضمت الاردن الى سوريا ومصر فى مواجهة اسرائيل . ففى خلال ثلاثة أيام من نشوب الحرب ، احتلت القوات الاسرائيلية القدس الشرقية والضفة الغربية بأسرها ، حيث ظلوا الى يومنا هذا . وفقدت الاردن نصف عدد سكانها تقريبا ، وكذا دخلها من المصدر السياحى الهام من الاماكن المقدسة فى القدس وبيت لحم ، ومساحات واسعة من الأراضى الزراعية الانتاجية . وفى الوقت نفسه ، هرب ما يقرب من ٢٥٠ الف لاجىء من الضفة الغربية واستقروا فى الاردن على الضفة الشرقية للنهر .

وعلى الرغم من جهود الملك حسين لاحكام السيطرة عليهم ، فان الفلسطينيين المتشددين الذين أخذ نفوذهم ينمو ، واستخدموا بعض معسكرات

اللاجئين كقواعد للفدائيين ليشنوا منها هجماتهم المستمرة تقريبا على اسرائيل . وقد كان العديد من هؤلاء المتشددين على استعداد تماما لأن يقبلوا الغارات الانتقامية على الاردن لأنها تضعف النفوذ السياسى للملك حسين بفقد شعبيته . ومن بين اهداف الفلسطينيين المتشددين احلال جمهورية مثل جمهورية مصر التى يراسها عبد الناصر محل الملكية الاردنية .

وقد ازدادت حدة هذه التهديدات ، وبحلول سبتمبر من عام ١٩٧٠ نشبت حرب اهلية شاملة فى الاردن بين قوات الملك حسين وفرق حرب العصابات . وحركت سوريا قواتها البرية عبر الحدود لمساندة المتمردين الفلسطينيين ولكن حافظ الاسد وزير الدفاع السورى رفض الهجوم على الاردنيين ومع التهديد بالتدخل الاسرائيلى الذى تسانده الولايات المتحدة ، انتصرت القوات النظامية الاردنية . وانسحب السوريون ، وفر العديد من الفلسطينيين الى لبنان ، واستتب النظام على نحو كاف . وعلى الرغم من أن الملك حسين أرسل بعض الوحدات الصغيرة الى كل من سوريا خلال هجوم أكتوبر عام ١٩٧٣ على اسرائيل ، والعراق فى حربها مع أيران ، فان الملك الأردنى قد نجح فى تجنب اية معارك عسكرية كبيرة تتورط فيها القوات الأردنية منذ انتهاء الحرب الاهلية .

لقد استغرقت المسافة من نهر الأردن الى عمان اقل من نصف ساعة قطعناها بالسيارة ، وسرنا مسافة قصيرة على الاقدام من منزل الضيافة فى البهو الملكى الى قصر الملك حسين . وبعد وصولنا مباشرة ، سررنا بزيارته هو وقرينته الجميلة الأمريكية المولد ، الملكة نور . وكنا قد عرفنا بالفعل جلالته معرفة تامة، فقد التقينا به خلال زياراته الرسمية لواشنطن ، وأيضا فى اليوم الاول من عام ١٩٧٨ بعد أن حضرت أنا وهو حفل رأس السنة الميلادية الجديدة كضيوف على الشاه فى ايران . لقد أدى شجبه لجهود السلام بعد رفضه لاتفاقيات كامب ديفيد الى توتر العلاقات بين الاردن والولايات المتحدة ومصر . وفى خريف عام ١٩٧٩ ، طلبت من سايروس فانس وزير الخارجية الامريكى أن يستكشف مع الملك حسين ، فى دورة الامم المتحدة ، ما اذا كانت زيارته لواشنطن ستكون مثمرة أم لا . وجاء فى التقرير الذى تلقيته أن ثمة اجتماع رسمى بينى وبين الملك الاردنى لن يخدم أى هدف مفيد . ولكن الملك حسين والملكة نور قاما فى يونيو عام ١٩٨٠ بزيارة رسمية للبيت الابيض مما أدى الى تخفيف حدة التوتر ولم يعد هناك اى نفور عندما اجتمعنا فى عمان .

وعلى الرغم من أن الملك حسين سعيد حاليا مع أسرته ، فانه على ما يبدو يعانى من القلق . فمنذ اعتلائه العرش فى عام ١٩٥٣ ، نجح فى السير على حبل « البهلوان » السياسى خلال فترة الفوضى والاضطراب التى سادت منطقة الشرق الأوسط ، وأصبح من اكبر الحكام الوطنيين فى العالم حيث أن حكمه دخل عامه الثالث عشر . ويتسم الملك حسين هو شخصيا بالشجاعة . وقد كرس

نفسه للعمل من أجل مصالح بلاده . وقد أصبح غساية فى الحــذر فى قراراته السياسية والعسكرية ، ويرجع ذلك جزئيا الى أنه فى آخر مرة تصرف فيهــا بشجاعة بالغة ، وكانت فى عام ١٩٦٧ ، قاد المملكة الهاشمية الى هزيمة ساحقة على يد اسرائيل .

ومنذ ذلك الحين ، لم تعد المغامرة العسكرية بمثابة اغراء بالنسبة للاردن، وفيما يتعلق بالدبلوماسية فان حسين لا يجازف كثيرا . ولقد دلت تصرفاته على انه بدون تأييد واضح من جانب كل من الدول العربية المعتدلة ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وفرصة نجاح مؤكدة نسبيا ، لا يقدم على محاولة منفردة لاقرار السلام فى المنطقة . ومهما يكن من أمر ، فان التهديدات المتزايدة التى تواجهها مملكته بسبب مزيد من عمليات الانتهاك الفلسطينية قد دفعته الى استئناف العلاقات الدبلوماسية مع مصر فى سبتمبر من عام ١٩٨٤ ، والترحيب بالمجلس الوطنى الفلسطينى فى عمان بعد ذلك بشهرين . وقد لقيت هاتان الخطوتان استنكارا علانية من جانب سوريا وغيرها من دول الرفض .

وليست هناك دولة من بين كافة الدول فى الشرق الاوسط ، سوى لبنان التى تشارك الأردن فى مثل هذا القلق البالغ ازاء الظروف الراهنة . وربمـــا يشعر الملك حسين بقدر من القلق أكثرمما يشعر به أى زعيم آخر حيال مدى احتمال تأثر مصالح بلده بصورة عكسية بالتغييرات التى من المحتمل أن تحدث . وفى المقابل ، فان اسرائيل وجيرانها الآخرين ، ومصر وسوريا يشعرون برضـــاء نسبى ازاء الوضع الراهن أو تجاه استمرار الاتجاهات الحالية فى الصراع على السلطة والارض والنفوذ .

وبينما كنا نستعد للاجتماع بالملك حسين وبأسرته ، تذكرت كيف أن هــذا البلد الضعيف الهش ترنح على حافة الانهيار أو التفكك عدة مرات منذ مولده كمملكة شرق الاردن فى عام ١٩٢٢ . فقد تم تأسيسها على حساب عرب آخرين، وقد اعترض عليها الصهاينة الذين أرادوا الاستيلاء على فلسطين بأسرها ، شرق نهر الاردن وغربه على السواء ، وسخر منها فى بداية تأسيسها كدولة ، أولئك الذين اعتبروها بمثابة دولة تابعة لبريطانيا العظمى ، وتعرضت للهزيمــة مرتين على يد الاسرائيليين ، وأرغمت على اقامة اتحاد مع العراق فى عام ١٩٥٨ لحماية نفسها من تهديدات سوريا ومصر خلال أيام قيام الجمهورية العربيـــة المتحدة ، وقامت بالدفاع عنها قوات المظلات البريطانية عندما تمت الاطاحـــة بالملكة العراقية فى نفس ذلك العام ، وانقذها تشكيل غريب من القوات المحلية والاجنبية خلال الحرب الأهلية عام ١٩٧٠ ، وأرغمت على أن تعيش فى حالة ، تكاد تكون دائمة ، من العلاقات المتوترة مع سوريا . وأيضا استطاعت الاردن ، بموارد محدودة للغاية ، أن تستوعب مئات من اللاجئين الفلسطينيين وأن تخلق سبيلا لهم للمشاركة فى الشئون السياسية للبلاد .

وعندما وصلنا الى القصر الصغير والمريح المعد لزيارتنا ، أحضرت الملكة نـور أصغر أعضاء الاسرة الملكية لمقابلتنا ، وبدأت هى وروزالين فى التحدث عن حياتها الشيقة بصفتها سيدة أمريكية شابة تعيش فى المملكة الهاشمية ، وانتقلت انا والملك حسين الى حجرة مجاورة حيث تحدثنا ببساطة عن آخر تطورات الاحداث فى لبنان والضفة الغربية ، والحكومة الاسرائيلية ، ومنظمة التحرير الفلسطينية بعد رحيل الفلسطينيين الاضطرارى من بيروت . أن الملك حسين رجل قصـير القامة ، وديع ودمث الخلق وهادىء نوعا ما فى تصرفاته ، ويراعى ضيوفـه وزواره ويحترمهم . وهو فى الوقت نفسه معروف عنه بأنه قائد سياسى وعسكرى ولا يميل الى توجيه النقد الى الآخرين . ويتلخص انطباعى عنه فى أن زملاءه من قادة الدول يحترمون آراءه لأنها دائما ما تكون مدروسة قبل أن يعرب عنها . والملك حسين يتمتع بشخصية قوية أكبر بكثير مما تتيح له أن تظهره مملكتـه الضعيفـة .

وبصوته الهادىء الذى يكاد لا يسمع فى بعض الاحيان ، أوضح الملك حسين انه يعتبر حالة القلق وعدم الاستقرار والتوتر التى تسود المنطقة حاليا ، خطيرة بل واخطر من أية حالة شهدها خلال حياته . ودائما ما يصغى الملك حسـين باهتمام خاص للبيانات الاكثر تطرفا التى ترد من جانب رفاقه العرب فى سوريا ومن جانب جيرانه الاسرائيليين . ويولى اهتماما خاصا للتهديد المتكرر بـأن القضية الفلسطينية سوف يتم حلها عن طريق تحويل الاردن الى دولة فلسطينية. فقد كان يخشى من احتمال تدفق دفعات جديدة من اللاجئين على الاردن ، بعـد ارغام الفلسطينيين على الخروج من لبنان وغيرها من الدول العربية ، وبسبب المحاولة الاسرائيلية الخاصة بضم الضفة الغربية وقطـاع غـزة الى اسرائيل الأصلية . ويعتبر العجز الفظيع الذى يعانى منه الفلسطينيون فيما يتعلـق بايجاد وسيلة مرضية للتعبير بها عن حقوقهم الشرعية ، بالنسبة للأردنيين ، أكثر من أية دول اخرى فى الشرق الاوسط ، بمثابة السبب الاسـاسى لمعظم المشاكل السياسية التى ابتليت بها المنطقـة .

ويعتقد القادة الاردنيون أن بلادهم محصورة بين فكى كماشة وهمـا القوتين العسكريتين الاقليميتين ، اسرائيل وسوريا ، وكل منهما تساندها احدى الدولتين العظميين وكل منهما ابدت من خلال تصرفاتها وبياناتها ، اتجاهـات توسعية قوية — على حساب الأردن — بصفة أساسية وكلتا هاتين الجارتـين اللتـين تشكلان تهديدا لها مشغولتان حاليا فى تعزيز قواتهـما العسـكرية تعزيزا شاملا ، بينما فشلت الى حد كبير ، جهود الملك حسـين الاخـيرة فى تحسين قوته العسكرية .

ومثل الدول الاخرى فى الشرق الاوسط ، تنفق الاردن نسبة كبيرة من مواردها البشرية والمالية فى تدعيم قواتهـا العسـكرية وتطويرها ولكن الملك

حسين قد نجح فى ادارة شئون بلاده الاقتصادية بحذر ، وتعتبر ديونه الخارجية متواضعة نسبيا . ومهما يكن من أمــــر ، فانه يعتمد على المعونة الخارجية بالنسبة لما يقرب من نصف الميزانية السنوية لبلاده . ويعانى اقتصاد الأردن أيضا من عدم وفرة تدفق البترول ، الامر الذى أدى الى تخفيض تحويلات النقد لرعاياها الذين يعملون فى الدول المنتجــة للبترول ، وفى الوقت نفســه ، فان الايرادات المنخفضة للحكومات العربية الأكثر ثراء قــد زادت من صـــعوبة استمرارها فى تقديم منحهــا السخية الســابقة . ولم تعد ســـوى الكويت والسعودية اللتان تمدان الاردن بالمساعدة المالية ، « لمقاومة سياسة الضـــم التى تنتهجها اسرائيل » ، وفقا لما تعهدتا به فى مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى عام ١٩٧٨ ببغداد .

وقد أصاب أيضا فشل العراق فى تسوية صراعه المزمن مع ايران ، الملك حسين بخيبة أمل بالغة ، لأن تحمس الاردن المبكر لاستثمار انتصار عراقى من غير المحتمل أن يسهم بنصيب فى سلام مبكر فى المنطقة أو فى الحصــــول على معونة مالية من بغداد . وبالاضافة الى ذلك فان الملك حسين قد انزعج نتيجة لرياح التغيير التى تهب على المنطقة من جراء الحماس الدينى لآية الله الخمينى. ومن وجهة نظر الاردن ، فان احتمال اقرار السلام وتحقيق الرخاء فى المنطقة أمر يبدو قائما .

وعلى الرغم من أحجام الاردن عن اتخاذ اجراء شجاع ومستقل ، فمما لا شك فيه أن الملك حسين يعتبر قوة ثابتة بالنسبة لتحقيق الاستقرار والسلام. وهو يفخر بأنه أيد كل اقتراح دولى هام تقريبا ، يمكن أن يعمل على انهــاء الصراع فى المنطقة ، بما فى ذلك قرار الامم المتحدة ٢٤٢ ، واتفاقيات فصـــل القوات الخاصة بسيناء ومرتفعات الجولان عام ١٩٧٣ ، ومؤتمر جنيف الذى عقد فى ديسمبر عام ١٩٧٣ والبيان الامريكى — السوفيتى المشترك فى اكتوبر عام ١٩٧٧ ، واعلان فيينا للدول الاوروبية عــام ١٩٨٠ ، والعناصر الرئيســية الواردة فى اتفاقيات كامب ديفيد ، وبيان ريجان واقتراح فانس عام ١٩٨٢ .

ونظرا لأن الملك حسين عرضة للتهديدات من جانب العرب الاكثر تشددا وقوة ، وحيث أنه يعتمد على تأييد المعتدلين الحذرين الآخرين ، فعادة ما يكون فى محيط دائرة العمل . ان الملك حسين وجه فى تصريحاته العلنية الاخـــيرة النقد الى محاولات سوريا الخاصة بالسيطرة على منظمة التحرير الفلسطينية ، والى اخفاق الرئيس ريجان فى مواصلة مقترحاته الخاصة بتحقيق تسوية شاملة، والى خوف وتردد عرفات وغيره من الزعماء الفلسطينيين فى اتخاذ القرارات . والملك حسين يؤمن بأن الحاجة الى الاجماع التام فى المؤتمرات العربية ليست سوى مفهوم عقيم عادة ما يسفر عن أسوأ مستوى شائع ، وصلوا اليه ويلزم تغييره على الفور . وبالاضافة الى ذلك ، فهو يعلن أنه ليس ثمة فرصة لتحقيق

النجاح النهائى فى مباحثات السلام بدون التعاون من جانب الاتحاد السوفيتى ، ربما عن طريق اعادة عقد مؤتمر جنيف طبقا لقرار الأمم المتحدة ٣٣٨ ، أو عن طريق التشاور من اى نوع مع السوفييت . ولم يوضح الملك حسين قط هـــذه النقطـــــة .

وخلال المناقشات التى اجريتها مع عدد كبير من المسئولين فى الحكومة والقادة المهنيين فى عمان ، وجدت أن المشكلة الفلسطينية ذات اهمية مستمرة ومباشرة وحيوية فى الأردن ، وتمثل الموضوع الرئيسى فى كل حديث تقريبا يدور حول السلام فى المنطقة .

وقد أوضح لى الملك حسين مدى شعوره بالاحباط نتيجة لتحول اهتمام العالم بالكامل تقريبا الى الأزمة التى تواجهها لبنان ، والتى اعتبرها بمثابة ابتعاد يؤسف له ، عن جذور الحرب المستمرة وهى : حرمان الفلسطينيين من حقوقهم ، وتوسيع نطاق السيطرة الاسرائيلية على الاراضى المحتلة . وتعتبر المشاكل التى تواجهها لبنان ايضا نتيجة مباشرة لفشل الدول المعنية فى تناول القضايا الاساسية باخلاص .

ويعتبر الاردنيون ومعظم العرب الآخرين أن المحنة الفلسطينية تساوى تماما المحنة التى واجهها اليهود فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وتتمثل فى حرمانهم من حقوق وطنية أو فردية ، وارغامهم على ترك وطنهم ، واستمرار معاناتهم من الظلم الذى تمارسة ضدهم قوة عسكرية بعد أكثر من جيـــــل . ويزعم الأردنيون ان السياسة الحالية التى تنتهجها اسرائيل تهدف الى تشديد القبضة العسكرية على الضفة الغربيـــــة وقطاع غـــزة ، والتنافس مع الفلسطينيين على المواقع المختارة ، وجعل الحياة بالنسبة لهم مليئة بالاعباء الفادحة بقدر الامكان حتى يتم طـــــرد السكان العرب من الاراضى المحتلة . ويؤكد الاردنيون مرارا أن ما يقرب من ١٢ ألف فلسطينى سنويا يتم وضعهم او ارغامهم على ترك ديار اجدادهم وينتقلون الى الشرق ، اما الى الاردن او ينضمون الى العديد من اللاجئين المتجولين فى الدول الأخرى .

ويستشهد الاردنيون بآخر الاحصائيات الاسرائيلية حـــول أراضى الأسر الفلسطينية التى تصادرها السلطات العسكرية الاسرائيلية . ويزعمون أن أساس التركيب الاجتماعى لغير اليهود قد تغير ، وفقا للمناهج العلمية ، من الزراعة والمشروعات التجارية الى العمل اليومى ، وذلك مع زيادة اعتمـــــاد الفلسطينيين على الخدمة الذليلة فى المنازل وغيرها من الأعمال للاسرائيليين بدون أن يكون لهم حق تنظيم نقابات عمالية أو الانضـــمام الى مثـــل هذه النقابات . ويستشهدون بحالات ليثبتوا أن موارد المياه من الوادى العلوى لنهر الاردن قاصرة تقريبا على اليهود ، ويحظر على العرب حفر أى بئر جديدة أو تعميق بئر قديمة تكون قد جفت مياهها نتيجة للآبار المجاورة التى يكون

المستوطنون اليهود قد حفروها مؤخرا . وهم يستنكرون السياسة الاسرائيلية فيما يتعلق بمنع تسليم المعونة الاجنبية التي ترد عن طريق عمان الى الضفة الغربية وغزة لتمويل مشروعات مثل التعليم والاسكان والزراعة .

ولقد استمعنا بالفعل الى معظم هذه الشكاوى من أولئك الذين يعيشون فى الضفة الغربية وغزة . ومهما يكن من أمر فقد تقدموا الينا الآن بالصور الفوتوغرافية الملونة والرسوم البيانية والاحصائيات والوثائق . وكان واضحا ان الاسرة الملكية الاردنية تعرض نفس الاشياء على الزوار الآخرين ، والحاضرين فى المحافل الدولية . والمقصود من هذا التعبير عن مشاعر القلق بهذا الاسلوب الدعائى الواسع النطاق هو حشد التأييد للقضية الفلسطينية والابقاء على حالة التوتر التى تسود الاراضى المحتلة وجيران اسرائيل ، وربما تذكير الفلسطينيين بأسباب نضالهم لاستعادة وطنهم .

والقادة السياسيون فى عمان مقتنعون بأن تحرك اسرائيل الحالي لاستعمار الاراضى المحتلة وضمها اليها فى النهاية ، لن يغير السمة الاساسية لاسرائيل فحسب بل انه سيعرض معاهدة السلام مع مصر للخطر أيضا . وهذا من شأنه أن يضع نهاية لكافة المحاولات الجادة الخاصة بالتوصل الى تسوية سلمية للخلافات العربية — الاسرائيلية ، ويؤدى فى النهاية الى حرب مقدسة جديدة أوسع نطاقا وأكثر هلاكا ، مع قوات المسلمين الملتزمين ، وفقا لمعتقداتهم الدينية ، باستعادة حقوق اخوانهم العرب الذين يعيشون فى منطقة غرب نهر الأردن أو الذين يزعمون ان لهم حق العيش هناك . ولم يتقاعس الملك حسين قط عن التأكيد على أن هذا الصراع لابد أن يتضمن مواجهة خطيرة بين الدولتين العظميين ، نظرا لأن الولايات المتحدة قد تعهدت بتأييد اسرائيل ، ولأن الاتحاد السوفيتى تحالف مع بعض الدول العربية على الاقل .

وحتى بدون هذه الحرب التى تحمل الكوارث معها ، فان الكثيرين من الاردنيين يشعرون بأن ثمة فشل فى حل المشكلة الفلسطينية عن طريق المفاوضات السلمية ربما يؤدى ايضا فى النهاية الى انهيار دولتهم ، وهم يستمعون والغضب والقلق ينتابهم الى التهديد الذى يردده كثيرا بعض المتحدثين الاسرائيليين الاكثر تطرفا ، الذين يمدون حدود بلادهم النهائية الى ما وراء نهر الاردن ، يقولون ، عندما يشيرون الى وطن لغير اليهود فى فلسطين ان الاردن هى فلسطين » . ان هذا التهديد يعتبر حقيقيا وغاية فى الاهمية بالنسبة للقادة الاردنيين . وفى اشارة الى خروج ثالث للفلسطينيين من الضفة الغربية وغزة الذى قد تنظمه اسرائيل ، قال لى ولى العهد الاردنى الامير حسن مؤخرا : « ان تدفق الناس المتزمرين والمبعدين سياسيا ، على الاردن لن يخدم سوى هدف واحد : هو صبغ سياستها بالصبغة الراديكالية واثارة الفوضى والقلاقل فى مجتمعها » .

وفى الاراضى المحتلة ، يتطلع العديد من الفلسطينيين انفسهم الى الملك حسين لقيادتهم وحمايتهم فى الوقت الذى يعربون فيه عن خيبة أملهم لعجزه الذى يشبه عجز هاملت فى اتخاذ قرار بصدد دور الاردن . وحتى بينما يصرحون علانية بأن زعيمهم الشرعى الوحيد هو ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية ، فانهم يعربون عن أسفهم لانشغال قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بالصراعات التنظيمية ، وممارسات الدعاية الدولية والمناورات من اجل الحصول على المعونات المالية ، وهم والملك حسين مقتنعون بأن خلاص النهائى ربما يعتمد على تمثيل الفلسطينيين على مائدة المفاوضات من داخل الاردن . وليس لدى القادة الفلسطينيين ولا القادة الاردنيين أية اجابات جاهزة بصدد المشكلة الراهنة ، ولكنهم يبحثون بلا توقف عن حلفاء آخرين يعملون على استمرار توجيه اللوم الى اسرائيل .

وتنعكس الحيرة فى أوساط الاردنيين حول الشخص الذى ينبغى أن يكون المتحدث بلسان سكان الضفة الغربية وغزة . وعلى الرغم من حرص الملك حسين على حماية حقوق الفلسطينيين وابرام اتفاقية مقبولة بصدد الاراضى المحتلة ، فانه ملتزم باعلان الرباط الذى أصدره العرب عام ١٩٧٤ ومفاده أن الفلسطينيين لا يمثلهم أحد سوى منظمة التحرير ، وهو يعتقد أنه من غير الملائم وربما من الخطورة بمكان أن يكون المرء هجوميا بصورة مبالغ فيها ، باستغلاله الضعيف والتمرد داخل صفوف منظمة التحرير الفلسطينية واعلان حقه فى تولى القيادة الفلسطينية . ونظرا لشعوره بمثل هذا القدر من التقييد ، فانه غير مستعد حتى الآن للاشتراك فى المفاوضات للتخفيف من حدة الظروف التى تحمل فى طياتها تهديدات متزايدة على الضفة الاخرى للنهر .

ووفقا لما يدور فى ذهنى فانه ليس ثمة شك فى أن اتفاقيات كامب ديفيد أتاحت افضل فرصة فى يومنا هذا لحل المشكلة الفلسطينية ولتحديد الوضع النهائى للضفة الغربية وقطاع غزة ، ولكن هذه الاهداف قد أحبطت نتيجة للتحركات الواضحة التى قام بها بيجين رئيس وزراء اسرائيل ، للسيطرة على المنطقة بأسرها ، ونتيجة لرفض الملك حسين الانضمام الى مباحثات السلام . وهذا هو ما بدا لنا انا والسادات وبيجين فى كامب ديفيد .

وعلى الرغم من أن اشتراك حسين فى هذه المفاوضات الاصلية ، لم يناقشه الرئيس السادات أو أنا على الاطلاق بصورة جدية ، فان الرئيس المصرى قد أبلغنى فى كامب ديفيد انه كان يستعرض تقدم المباحثات مع الملك الاردنى وانه كان من المقرر ان يجتمع به فى المغرب وهو فى طريق عودته الى بلاده ليقدم له تقريرا مفصلا . بيد ان الملك حسين الغى هذا الاجتماع فى اللحظة الاخيرة وعاد الى عمان . وفور ابرام اتفاقية كامب ديفيد ، قمت انا وسايروس فانس وزير الخارجية الامريكى بشرح نصوص الاتفاقية بالتفصيل

للملك حسين ، ولكن ذلك كان متأخرا جدا . فقد اقنعته صيحة احتجاج من جانب اشقائه العرب بأنه يتعين عليه الانضمام الى جبهة الرفض العربية فى التنديد بجهود كامب ديفيد بأسرها ، وفى محاولة لمعاقبة السادات لاشتراكه فيها .

وفيما بعد ، وبعد الاعتراف بأن اتفاقيات كامب ديفيد قد اعطت دفعة جديدة لعملية السلام ، اخذ الاردنيون يؤكدون ان المزايا الهامة لهذه الاتفاقية يقابلها فى الجانب الآخر تحييد مصر ، وابعاد مصر من المجالس العربية واتساع نطاق الدور المتسلط لاسرائيل فى الاراضى المحتلة ، كما يقابلها ضغائن واستقطابات جديدة بين الدول العربية . وايضا لم تتضمن اتفاقيات كامب ديفيد اعترافا بالسيادة الأردنية أو السيادة الاسرائيلية على الضفة الغربية ، ولكنها تركت امر اتخاذ هذا القرار النهائى على مائدة المفاوضات . وفى الآونة الاخيرة حاول الملك حسين رأب صدع العلاقات العربية الذى حدث نتيجة مبادرة السلام التى تقدم بها السادات ودفع الأعضاء الآخرين فى المجتمع الاسلامى الى اعادة منح مصر العضوية الكاملة .

وقد تشجع الاردنيون عندما أعلن الرئيس ريجان فى سبتمبر عام ١٩٨٢ تفسيره لنصوص اتفاقيات كامب ديفيد ، من خلال اقتراح يمكن أن يكون احتمالا مقبولا فى المستقبل ، بأن تتحد الضفة الغربية وغزة فى ظل السيادة العربية مع الأردن (الملحق الخامس) وعقب ذلك ، وفى الاجتماع الذى عقده القادة العرب فى فاس بالمغرب ، أصدر زعماء العرب قرارا ، صيغ بدقة واسهاب يؤيدون فيه اعلان ريجان ، ووفقا لتفسيراتهم الخاصة ، اعترفوا لأول مرة بحق اسرائيل فى الوجود (الملحق السادس) .

وعلى الرغم من رفض بيجين رئيس الوزراء الاسرائيلى الفورى لهذه المبادرة التى تقدم بها ريجان ، فان الملك حسين سعى على الاقل الى الحصول على موافقة ضمنية من جانب العرب المعتدلين وموافقة صريحة من جانب ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، على انضمام الاردن وبعض الفلسطينيين الى مباحثات السلام مع اسرائيل ومصر والولايات المتحدة . وقدم الرئيس ريجان للقادة الاردنيين تأكيدات مباشرة وواضحة لا لبس فيها بأن النشاط الخاص باقامة المستوطنات الاسرائيلية سوف يتجمد كشرط لبدء مباحثات السلام الموسعة . ولقد توقفت معظم العمليات الانشائية التى تمولها الحكومة فى الضفة الغربية فى اواخر عام ١٩٨٣ ، بسبب قيود الميزانية اساسا . اما الاسرائيليون فانهم ينكرون وجود اى قرار سياسى بوقف النشاط الخاص ببناء المستوطنات .

وفى فبراير عام ١٩٨٣ ، وقبل زيارتى الاخيرة للملك حسين فى عمان اصدر المجلس الوطنى الفلسطينى ، القائم بعمل البرلمان الفلسطينى فى المنفى قرارا يوافق فيه على فكرة الاتحاد بين الاراضى العربية المحتلة والاردن . وقد

اصرت منظمة التحرير الفلسطينية على اقامة دولة اولا ثم ربما نـــوع من التحرك نحو الاتحاد ، ويبدو ان الملك حســين يريد الاتحاد ، مع اعطــاء الفلسطينيين حق الاختيار فيما يتعلق بانشاء دولة مستقلة فى المســتقبل ونظرا لمضمون البيانين العربيين اللذين يعتبران بمثابة تعبير كاف عن حق الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم ، ونتيجة للالتزام التحريرى من جانب ريجان بتجميد النشاط الاسرائيلى الخاص باقامة المستوطنات ، فقد اصبح حسين واثقا تماما من انه يستطيع الانضمام الى مباحثات السلام .

ولقد حثثته للقيام بذلك ، مشيرا الى أنه على مائدة المفاوضات مع مصر واسرائيل والولايات المتحدة وممثلين فلسطينيين ، سوف يجد أن موقفــه من العديد من المسائل موضـــــع الجدال ، يطابق المواقف التى أعلنت بالفعل فى اتفاقيات كامب ديفيد والمواقف التى وردت فى اعلان ريجان . وكان فى نية الملك حسين التفاوض فى ظل اطار الاقتراح الامريكى والخاص بأن يكون هنــاك كيان فلسطينى فى الضفة الغربية وغزة مرتبط مع الاردن ولكنه أعلن أن هدفه طويل المدى يتلخص فى أن يشمل بعض العناصر الواردة فى مشروع فاس ، الذى يدعو الى منح الفلسطينيين حقوقا أوسع نطاقا بما فى ذلك حق اختيار انشاء دولة مستقلة . وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن ينطوى على ما تحبذه الاردن . (ونظرا لما هو معروف من أن اسرائيل لن تقبل ذلك قط) فــان حسين قد شعر بأنه لم يستطع — كموقف من مواقفه فى التفاوض — ان يعرقل امكانية تحقيق هذا الهدف الذى يتطلع اليه الكثيرون من الفلسطينيين .

وعلى الرغم من جهود الملك حسين ، فان مجموعة من العوامل تجمعت فى ابريل عام ١٩٨٣ لتحول دون اشتراك الاردن فى المفاوضات وهى : رفض بيجين لاقتراح ريجان رفضا تاما ، واستسلام عرفات لضغوط المتطرفين ، ومطالبته فى آخر لحظة باعتبار الملك حسين غير مقبول ، والافتقار الى التأييد الواضح من جانب القادة العرب الآخرين ، والسكوت النسبى من جانب الولايات المتحدة فى مواجهـــة استمرار احتلال اسرائيل للبنان ، الأمـــر الذى جعل ايفاء الرئيس ريجان بوعده الخاص بتجميد النشاط الخاص باقامة مستوطنات أمرا مشــكوكا فيـــه . وفى وقت لاحــق اعلن الملك حســين علانيــة ان العامل الاخير هو أهم العوامل . وبالاضافة الى ذلك ، فانه كانت هنــاك فى هذا الوقت العصيب بالنســبة لحسين ، انحرافات مزعجة داخل حكومة ريجان عن الموقف الأمريكى الثابت منذ زمن بعيد من المستوطنات الاسرائيلية ، ومفاده ان المستوطنات غير شرعية وتعبر بمثابة عقبات بالنسبة للســلام . ويتساءل الاردنيون فيقولون اذا كانت الولايات المتحدة تعتبر الآن ان للاسرائيليين مطلق الحرية فى الاستيطان فى الضفة الغربية على حساب الفلسطينيين ، فما هو هدف مفاوضات السلام ؟ .

وثمة سبب آخر يدعو للقلق وهو الافتقار لأى موقف متماسك من جانب الولايات المتحدة لحل الازمة فى لبنان أو حتى اشراك القادة السوريين فى محاولة شاملة لاقرار السلام . وقد تم التوصل الى حل لهذه النقطة بعقد اتفاقية الانسحاب الثنائية فى مايو ۱۹۸۳ بين اسرائيل ولبنان بعد قليل من التشاور مع سوريا بصدد مصالحها فى المنطقة . ويخشى الاردنيون من أن عدم ابرام اتفاقية انسحاب شامل يمكن ان يخلق حالة جمود دائمة تؤدى الى تقسيم لبنان ، مع بقاء القوات الاسرائيلية فى المنطقة الجنوبية على أن يتم ضمها فى النهاية الى اسرائيل على غـرار ما حدث بالنسبة لمرتفعات الجولان والضـفة الغربية وغـزة . وسـوف يعد ذلك بمثابة سـابقة جديدة يمكن تطبيقها على الاردن فى المستقبل وعلى أية حال فانه سيدفع المزيد من العرب الى الخروج من ديارهم ويخلق دفعة جديدة من اللاجئين . ولقد خفت حدة هذا الخوف الذى سيطر على الاردنيين مؤخرا عندما بدأت اسرائيل تستعد لسحب قواتها من لبنان

ويعتبر الاحتلال الاسرائيلى المستمر للبنان بمثابة ورطة سياسية وعسكرية، ولكن من وجهة النظر الاردنية فان هذا الاحتلال قد حقق لاسرائيل هدفا من أهدافها . فحتى تبدأ مباحثات السـلام ، تستطيع اسرائيل أن تستغل الوقت فى دعم قبضتها على الضفة الغربية وغزة . ويبدو حتى الآن أن هذا الوضع سيعمل على بقـاء لبنان فى موضع الاهتمام ، مما يساعد على اقصـاء المصالح الانسانية للاردن . وأيضا نظرا لأن الاردنيين يدركون أن لبنان ليست سوى حلقة واحدة من سلسلة أكبر من المناطق الساخنة فى شرق البحر الابيض المتوسط والخليج العربى والبحر الاحمر ، فانهم يعتقدون ، وهو اعتقاد صحيح ، أن تركيز امريكا لقوتها السياسية والعسـكرية كلية تقريبا على بيروت يعـتبر بمثابة استخدام مبذر لمواردها الكبيرة ولا يسفر الا عن نتائج عكسية .

ومع الاعلان عن « تحالف استراتيجى » بين أمريكا واسرائيل فى ديسمبر عام ۱۹۸۳ ، شعر العرب ان الولايات المتحـدة أصبحت أكثر تحيزا ضدهم وتخلت عن فعاليتها فيما يتعلق بممارسة الضغط على كافة الاطراف لتجتمع على مائدة المفاوضات . وكانت استجابة الملك حسين لذلك حادة على غير العادة ، فقد شعر بأن الولايات المتحدة ستقدم ، فى ظل هذا التحالف الجديد « الاعتمادات المالية للمستوطنات الاسرائيلية مما يهز بشكل وجوهر مقترحات السلام التى تقدم بها الرئيس الامريكى ريجان » .

وأهم ما يشغل بال الملك حسين هو أن أيدى الراديكاليين والمتطرفين قد ازدادت قـوة نتيجة لاستمرار حالة الجمود التى أصابت الجهود الخاصة باقرار السلام ، بسبب حملة انتخابات الرئاسة الأمريكية واحجام حكومة ريجان عن تناول المسائل الهامة الخاصة بالمستوطنات الاسرائيلية ، وانسحاب قـوات

الاحتلال وحقوق الفلسطينيين . ويؤكد الاردنيون على أن صانعى السلام المعتدلين فى اسرائيل وفى الدول العربية (مثل الملك حسين) سيفقدون الأمل وسوف تثار مشاعر الخوف فى نفوسهم، وأن مصالح الولايات المتحدة نفسها سوف تعانى فى حالة استمرارها فى التخلى عن دورها الذى تلعبه منذ زمن بعيد بصفتها وسيط السلام فى المنطقة . وسوف يتحول الميزان الاستراتيجى بين الدول الكبرى اكثر تجاه الاتحاد السوفيتى حيث أن الشعب العربى فى كل مكان يشعر باليأس من بذل جهد متوازن لاقرار سلام مؤيد من القادة الامريكيين .

ويؤمن الملك حسين بأن دورا امريكيا هاما ، يعتبر أمرا جوهريا اذا ما اريد تحقيق أى تقدم . ودعا فى عام ١٩٨٣ ، الى حملة سلام مشتركة من الحزبين الامريكيين يتزعمها مواطنون امريكيون لهم سمعة طيبة ولا يمكن تجاهل اصواتهم ، وربما يكونون من وزراء الخارجية السابقين . وعلى الاقل، فان هذه الحكومة الصغيرة سوف تؤكد الحقائق وتقدم المقترحات التى يمكن ان توجه الحكومة الامريكية بعيدا عن الضغوط التى لا داعى لها . وعندما عرض حسين هذا الاقتراح على كبار المسئولين فى واشنطن ، أكد بأن هذه المحاولة لن تضر بالرئيس ريجان سياسيا ، ولكن على العكس من ذلك ، فان هناك احتمالا فى ان تتيح الفرصة لدفع عجلة السلام وفى الوقت نفسه ستكون جذابة من الناحية السياسية بالنسبة لمعظم الناخبين الامريكيين . ولكن ليس ثمة استجابة ملحوظة من جانب واشنطن .

ولا يزال المسئولون الامريكيون يؤكدون على انه نظرا لالتزام امريكا على اعلى مستويات الحكومة بعملية السلام ، فان هناك احتمالا فى أن تقوم الاردن بدور فعال يهدف تنفيذ قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ . وهم مقتنعون أيضا بأن ثمة قدرا كافيا من التأييد سيأتى من قبل الفلسطينيين والعرب المعتدلين لجعل جهود اقرار السلام هذه ممكنة ومثمرة .

ويعتقد الاردنيون أن معظم العوامل التى احالت دون اتخاذ هذه الخطوة فى ابريل عام ١٩٨٣ ، أصبحت الآن اقل أهمية . فقد زاد كل من تفتت منظمة التحرير الفلسطينية ، وتضاؤل النفوذ السورى على عرفات ، وتحسن العلاقات بين منظمة التحرير الفلسطينية والاردن ، من احتمال تصرف الاردن بسلطة اكبر من أجل اولئك الذين يعيشون فى الضفة الغربية وغزة ، ويسعى الملك حسين الى وسيلة ما من اجل تحمل هذه المسئولية .

وقد اصيب الملك حسين بخيبة أمل نتيجة لحالة الجمود الدبلوماسى التى سادت المنطقة خلال عام الانتخابات الامريكية سنة ١٩٨٤ ووجه هجوما شفهيا بصدد هذا التأجيل ، ولكنه ناضل ، من خلال مبادراته فى سياسته الداخلية والخارجية ، فى ابقاء احتمال اجراء مفاوضات فى عام ١٩٨٥ . فهو لا يرغب فى أن يظل ملتزما بلا داع بالتطرف السياسى السائد فى العالم العربى

كما انه لا يرغب فى أن يحيد عن المطالب العربية الاساسية فيما يتعلق بالحقوق الفلسطينية . ويفضل أن يسلك طريقا وسطا يكاد يكون مستحيلا يضمن قدرا من الاستقلال الاردنى فى صنع القرار ، ولكن فى الوقت نفسه لا يبتعد عن أشقائه العرب المعتدلين . وقد اتضحت من استمرار مناقشاته مع زعماء الفلسطينيين واعادة انعقاد برلمانه الذى طالت مدة حله ، بحضور نصف أعضائه من الفلسطينيين من الضفة الغربية ، ومساعدته على عقد المجلس الوطنى الفلسطينى فى عمان فى نوفمبر عام ١٩٨٤ ، رغبته فى زيادة ارتباطه بالقيادة الفلسطينية داخل الأراضى المحتلة وخارجها . وقد عزز أيضا تطبيع العلاقات الدبلوماسية بين الأردن ومصر منذ شهرين ، نفوذ حسين بصفته قائدا معتدلا يمكنه أن يقوم بتحرك نحو السلام .

ولا يريد الملك حسين أن يكون الممثل الوحيد للفلسطينيين ، فهو يفضل أن يقيم علاقة عمل مع منظمة التحرير الفلسطينية ولا تشكل تهديدا لكلا الجانبين . وثمة مشكلة متصلة بهذه العلاقة ، وهى أنه اذا كان حسين يعتمد على موافقتهم ، فان المتشددين فى منظمة التحرير الفلسطينية والذين لا يريدون التوصل الى اية تسوية مع اسرائيل ، يمكنهم أن يعترضوا على رغبة الاردن فى التفاوض من أجل مستقبل الضفة الغربية وغزة . وثمة وسيلة لتجنب هذا المأزق ، وهى موافقة الاردن على طلب واضح من جانب الزعماء الفلسطينيين فى الاراضى المحتلة ، بأن يتحدث حسين نيابة عنهم بالاتفاق مع منظمة التحرير الفلسطينية . ويمكن أيضا ، أن يعمل على استئناف الروابط الوثيقة بين الاردن والولايات المتحدة واشارة مؤكدة من الولايات المتحدة تدل على استجابتها لرغبةحسين فى التفاوض على التخفيف من حدة المشاكل المالية والعسكرية الاخرى التى يواجهها .

وسوف يحاول الاردنيون الاستمرار فى القيام بدور ثابت فيما يتعلق بالصراع العربى — الاسرائيلى والخلافات العربية الداخلية ، بهدف حماية مصالحهم . ان الملك حسين يحكم بلاده فى خضم هذا النوع من المتاهة السياسية منذ ان كان فى الثامنة عشرة من عمره وهو يعتبر حاكما بارعا فى معالجة المسائل والتحديات المتغيرة دوما . واذا كانت هناك اية اجابة على السؤال المحير الذى تواجهه الاردن حاليا ، فانه يعتبر الشخص الوحيد الذى يمكنه ان يتفوه بها .

ولقد أكد شقيقه ولى العهد الامير حسن بن طلال مرارا على أن الفكرة النهائية تتلخص فى أن يكون الاردن والاراضى المحتلة فى متوقع وسط بين أفريقيا والدول المنتجة للبترول فى شبه الجزيرة العربية الى الجنوب وبين القوة البشرية الماهرة والتكنولوجيا المتقدمة التى تتميز بها لبنان وسوريا والعراق فى المنطقة الشمالية مع عرب يعيشون فى وفاق وتعاون مع اسرائيل آمنة ومسالمة .

لم تستغرق المسافة بين القاهـرة وتل ابيب سوى نصف ساعة ـ وتقطعها الطائرة فى سهولة ويسر ، ولكن الطريق من الناحية السياسية صعب للغاية . وهو قاصر تقريبا على الامريكيين الذين قاموا « بدبلوماسية المكوك » . وكنت قد قمت بهذه الرحلة على متن طائرة السلاح الجوى رقم واحد بصفتى رئيسا للجمهورية ، ولكن الأمر اختلف فى ربيع ١٩٨٣ . لم اكن قد رأيت قط جبل سيناء الذى يسميه العرب « جبل موسى » ، لذلك طلبت من المسئولين المصريين فى آخر لحظة قبل مغادرتى البلاد ، أن يصرح لطائرتنا الخاصة بأن تتجه نحو الجنوب الشرقى بدلا من الشمال الشرقى فوق صحراء سيناء حتى يمكننا أن نقوم بجولة حول الموقع التاريخى . ومن المعتقد أن يكون هذا المكان هو جبل حوريب ، حيث تلقى موسى الوصايا العشر من الله . وحتى بالنسبة لمضيفينا الكرماء ، كان هذا الطلب صعبا لانه يعتبر بمثابة انحراف عن الطريق المعتاد للطيران ، وتأجل اقلاع طائرتنا لمدة ساعة حتى يصدق نهائيا على الرحلة أحد كبار المسئولين المعنيين .

وقامت الطائرة بدورة فوق قمة الجبل التى يبلغ ارتفاعها ٧٥٠٠ قدم . والقينا نظرة على دير سانت كاترين ، الذى يقع فى مواجهة الواجهة الشمالية للجبل العتيق لما يزيد على ١٤٥٠ سنة ، وهو يعتبر أقدم دير مسيحى على وجه الأرض . وهو مكان مقدس بالنسبة لليهود والمسيحيين والمسلمين ، وكان موضع العديد من المناقشات بين الرئيس السادات ومناحم بيجين رئيس وزراء اسرائيل وأنا فى كامب ديفيد . وقد اعتبر السادات « جبل الرب » هذا بمثابة رمز للسلام ، ولكن احتمالات تحقيق حلمه الخاص ببناء مجمع للديانات الثلاثة ، بدت بعيدة فى ذلك الوقت ، عام ١٩٨٣ ، نظرا لاحتدام الحرب فى لبنان وتوتر العلاقات بين مصر واسرائيل الى حد الانهيار تقريبا .

وعلى الرغم من وفاة انور السادات منذ سبعة عشر شهرا ، فقد وفينا عن طيب خاطر بوعد أخذناه على عاتقنا روزالين وأنا فى أثناء احدى زياراتنا الرسمية ، وهو العودة الى بلاده للقيام بزيارة خاصة على مهل . وبعد وصولنا الى مصر ، قمنا بأول زيارة لنا للقرية التى ولد فيها السادات ، وتقع فى الشمال الغربى من القاهرة وهى ليست ببعيدة عن الطريق الرئيسى الى الاسكندرية . وهناك التقينا بقرينته جيهان وأولادهما واحفادهما ، وازواج أولادهما وأقاربهما المقربين . ومن الغريب أن أول موضوع تحدثنا فيه كان

يدور حول الدجاج والبيض ، نظرا لكونه مشروعا تجاريا كانت الاسرة تدرسه ، وقمنا بجولة فى بساتين البرتقال فى المزرعة الصغيرة ، ثم جلسنا فى الشرفة المشمسة لنحتسى الشاى بالنعناع الذى كان يفضله السادات ، والذى كثيرا ما احتسيته معه خلال مفاوضات كامب ديفيد . ثم سرنا فى شوارع القرية .

وكثيرا ما عقدنا مع السادات مقارنة بين منزلى فى بلينز بولاية جورجيا ومنزله الريفى . لذلك استطعت ان اتعرف عليه من كثرة وصفه المتحمس له . واستمتعنا بحماس جيرانه وهم يناضلون فى توجيه حركة المرور البشرية التى رافقتنا فى الشوارع الضيقة . وعلى الرغم من اننا كنا ننفذ البرنامج المحدد للزيارة ، فاننا استسلمنا لتوسلاتهم فيما يتعلق بزيارة عدد قليل من المنازل التى يفاخرون بها بصفة خاصة — التى دفعت تكاليف بنائها جميعا من ايرادات السيرة الذاتية للسادات ، وهو كتاب « البحث عن الذات » .

وفى منطقة الدلتا الواقعة بين القاهرة والقرية ، لاحظنا الاراضى الزراعية الخصبة والاساليب القديمة الخاصة بالرى والزراعة والحصاد . لقد تناقشنا انا وروزالين حول تاريخ مصر ، الذى يبدو كخليط خلاب من العادات المتغيرة وغير المتغيرة ، والاثر البالغ له على الشرق الاوسط خلال العقدين الأخيرين اللذين حكم خلالهما البلاد رئيسان جاءا ليعتبرا نفسيهما بمثابة خليفتين سياسيين للفراعنة العظماء ، وهما انور السادات وجمال عبد الناصر . وفى البقية الباقية من رحلتنا امكن لنا أن نتعرف على هذا التاريخ القديم والحديث بطريق مباشر . وبعد القيام بجولة شاملة تضمنت زيارة متحف الآثار المصرية بالقاهرة واهرامات الجيزة برفقة المدير المصرى للآثار ، سافرنا من القاهرة الى الاقصر على ضفاف النيل . ومن هناك قمنا بزيارة « طيبة » (الاقصر) ووادى الملوك ومعبد الكرنك وغيره من الأماكن الأثرية القديمة . وتفقدنا المقابر الاكثر شهرة للفراعنة والمدن القديمة المليئة بتماثيلهم الجميلة ، وامضينا بعض الوقت مع علماء الآثار الذين كانوا مشغولين بين التقاط الصور الفوتوغرافية للآلاف من القطع الأثرية وادراج اسمائها فى قوائم ، وفك الطلاسم التى كتبت باللغة الهيروغليفية على بعض الاماكن الاكثر بعدا والاقل شهرة .

وفى صباح احد الايام وبينما كنا نقترب من مدخل مقبرة توت عنخ آمون ، راتنى مجموعة من الاسرائيليين الذين بدأوا على الفور فى ترديد نشيد « فليرافقك السلام » . وتوقفنا لنستمع اليهم ، وقد لاحظت أن عينى لم تكن العينين الوحيدتين اللتين تلألأتا . لقد كانت لحظة رائعة . واتجهت نحوهم لاتحدث معهم ، فشكرونى « لاتاحة الفرصة لنا لزيارة اصدقائنا الجدد

فى مصر » ومثل هؤلاء وغيرهم من مجموعات السائحين الاسرائيليين . كان المصريون الذين التقينا بهم فى منازلهم وفى الاسواق مغتبطين وممتنين لانتهاء حالة الحرب ، وأعرب الكثيرون منهم عن امتنانهم لثلاثتنا بالتساوى تقريبا ، لى وللرئيس السادات ولبيجين رئيس الوزراء الاسرائيلى .

وعلمت ان ٣٣ ألف سائح اسرائيلى يفدون الى مصر كل عام وانهم مسرورون سرورا بالغا بالترحيب الودى الذى يلقونه . وهذا العدد بالاضافة الى ٥٠ ألف فلسطينى من الاراضى المحتلة يعبرون الحدود ليدخلوا مصر بدون وقوع أى حدث ، ومعظمهم تقريبا من غزة . بيد أن ما يقرب من ٢٠٠٠ مصرى فقط يزورون اسرائيل سنويا ، القليل منهم للسياحة ، نظرا القيود السياسية والاقتصادية على السواء .

وقد امضينا عدة أيام على ظهر سفينة مريحة ، أخذت تتهادى على سطح مياه النيل ، مما أتاح لنا أن نرى من وراء عدسات المنظار ومن على مقربة منا أفراد الشعب المصرى وهم يؤدون أعمالهم اليومية ، وهم يحرثون التربة الخصبة بأيديهم وبالفؤوس والجمال أو الثيران مثلما كانوا يفعلون عندما حكم الملوك القدماء بلادهم وعندما كانت القوارب التى تسير فى النهر تدفعها أشرعة من ورق البردى أو مجاديف العبيد . وفى الطريق ، توقفنا فى اسنا وادفو وكوم امبو . وكانت طائرتنا تنتظرنا فى أسوان ، حيث قمنا بجولة فى منطقة السد العالى قبل ركوب الطائرة لتقلنا الى أقصى الجنوب حيث توجد التماثيل الشهيرة لمعبد « أبو سمبل » ، التى تطل على شاطىء بحيرة ناصر على بعد بضعة أميال من الحدود السودانية .

وفى أثناء الرحلة النيلية التى قمنا بها كانت السفينة ترسو كل ليلة عند مكان مختلف ، وكنت أستيقظ كل صباح قبل الفجر لاقوم برياضة الجرى لبعض الوقت . وقد استمتعت بصفة خاصة بهذه الاوقات التى كنا نستكشف فيها أماكن جديدة ، كما استمتعت بالعزلة نسبيا . والجدير بالذكر ان احد رجال الامن المصريين قد رافقنى أثناء سيرى فى الطرق المتربة والوعرة ، وفى بعض الاحيان على ضفة النهر ، وفى أوقات أخرى فى المناطق البعيدة عن المجرى وهى المنطقة المزروعة الضيقة بين المساحات الصغيرة من الارض الخصبة وفى شوارع القرى . وفى ذلك الوقت من الصباح لا تكون الشوارع ولا الطرق مزدحمة بالناس ، ولكنها تنشط بالفلاحين المتجهين الى حقولهم أويحملون منتجاتهم الى الاسواق الكبيرة على طول ضفة النهر . وبدا جميعهم وكأنهم يعرفون من أكون ، ولقد كان من الممتع أن اتوقف وأنا فى الطريق وأتحدث عن المحاصيل أو الحيوانات او الحياة الاسرية . لقد كان رجل الامن من أبناء منطقة الاقصر ، وقد ظل

مشغولا فى الاجابة على الكثير من اسئلتى وقام بدور المترجم فى كثير من الاحيان .

وفى صباح احد الايام رأينا جملا كبير الحجم على غير العادة وتوقفت لأنظر اليه باعجاب . وكان الفلاح الفخور به فى طريقه الى القرية التى كانت السفينة ترسو عندها خلال الليل ، واصر على أن أركب على ظهر الحيوان الضخم . وسرعان ما غيرت الموضوع وعدنا الى السفينه ، حيث اعددت لمقابلة العمدة وغيره من كبار الشخصيات فى القرية قبل الابحار . كان الوقت مبكرا اى بعد شروق الشمس بقليل ، وبعد تبادل التحيات مع المسئولين ، سرنا فى الشوارع الضيقة لنشاهد المدينة وهى تنبض بالحياة فى أول النهار . لقد بدأ التجار يفتحون حوانيتهم والفلاحون يرتبون فواكههم وغيرها من منتجاتهم فى اكشاك أو على حوائط ومناضد فى ميدان كبير .

واثناء ذلك سمعنا جلبة وضوضاء فى مكان قريب ، اصوات صياح وضحك . وسرنا لنرى سبب هذه الضوضاء . وتعرفت بعد مرور بعض الوقت على صديقى الفلاح صاحب الجمل الضخم . وسارع العديد من افراد الجمهور المحتشد لتحيتى . وكان واضحا انهم كانوا يتوقعون موافقتى على ركوب الجمل والسير به . وحاولت ان اقدم كل الاعتذارات الممكنة ، ولكن سرعان ما وجدت أن حتى رجل الأمن الذى يرافقنى قد نسى واجبه الذى يقتضى منه حمايتى وانضم الى الجمع من الناس . وفى النهايه استسلمت أمام المطالب الجماعية بأن اغامر بحياتى او أن افقد رجولتى .

وبصعوبة بالغة ، حث الفلاح واصدقاؤه ، الجمل لكى يجثو على ركبتيه ، وقد غطوا سنامه بغطاء من اجمل الاغطية . وكل فرد من الجمهور المحتشد اومأ لى لكى امتطى الجمل ، ولم يكن من السهل الوصول الى ركاب السرج الذى كان عبارة عن مجرد فتحة فى حبل متدلى ليس بعيدا عن قمة السرج . وعندما جلست فى النهاية على الاطار الخشبى الصلب للسرج خطا الفلاح خطوة الى الوراء وسحب قعود الدابة .

وبمجرد ان بدأ الجمل يترنح فى اول تمايل شديد له ، صاح رجل الامن قائلا : « امسك اللجام بشدة بقدر ما يمكنك » . وكنت على علم بأن هذا التمايل سيعقبه تمايل آخر ثم تمايل مفاجىء ثالث وهو اكثرهما صعوبة . واهتز السرج الى الخلف ثم الى الامام ، وفى كل مرة يهتز اشعر وكأننى انحدر حتى الارض . وكنت اترنح وانا ممسك بالسرج الخشبى ، فاقترب من رقبة الجمل ثم أرجع الىالوراء لأصل لى مكان حرج بالقرب من ذيله وفى هذه الاثناء يهلل الجمهور المحتشد ويصيح حينما أترنح ، ولكننى لم اقترب قط من المكان الذى كان من المفروض ان اكون فيه . وعندما سار الجمل وانا على ظهره فى النهاية فى اتزان وبدون ترنح نوعا ما ، كنت

امسك باللجام بشـــدة ، وقد استطعت بمشقة ان ارجع الى الوراء بينمـــا حاول الجمل مرارا ان يعضنى . وعلت صيحات وضحكات الجمهور فى جميـــع انحاء القرية .

وظللت ممتطيا ما يقرب من تقاطعين ــ ولم يكن الامر سيئا كما اعتقدت ــ وفى النهاية نزلت من على ظهره وقد أصبت بعـــدد من الكدمات العميقـــة ولكننى لم اصب بأية كسور . ولقد هنأنى الفلاح السعيد وقال اننى الشـــخص الوحيد باستثنائه الذى امتطى جمله . وعبرت وانا اتصبب عرقا ، نصـــفه ساخن ونصفه الآخـــر بارد ، عن امتنانى لصـــاحب هذه الوسيلة الخطـــرة للنقل على هذا الشرف ، واومـــأت براسى الى جمهـــور المتهللين وســـرت وانا اشـــعر بنوع من التقلص فى عضلاتى ، وحاولت ان استجمع ما يمكننى من وقار ، واتجهت صـــوب احـــد الحوانيت المجاورة . وقد انفجر الجميع بالضحك عندما سألنى العمدة « هل ذكرك هـــذا بمفاوضات السلام الخاصـــة بمشكلة الشرق الاوسط ؟ . فأجبته بقولى : « نعم ولكننى حققت صباح اليوم تقدما أكبر فقد هبطت من على ظهر الجمل بسهولة أكبر » .

وفى احد الاكشاك خارج القريـــة وجدت بعض العصى المصـــنوعة من الخيزران وعكاز الرعاة ، وشرح صاحب الكشك كيفية صنعها ، فقال انهـــا صنعت بتعريض المادة الخام للبخار وتشكيلها كما تريد . وفكرت فى امكانيـــة استخدامها كهدايا ، ولكننى تركتها عندما رفض صاحب الكشك أن يذكر ثمنها قائلا « فى هذه القرية لا يمكنك ان تدفع شيئا مقابل ما تريد شراؤه » وبعد أن ابحرت السفينة وابتعدنا عن القرية قام المضيف باحضار مجموعة كاملة من بضائع التاجر الى قاعة الاستقبال بالسفينة .

لقد حاولت فى كل مكان على طول نهر النيل ان اتحدث الى اكبر عدد ممكن من المسئولين المحليين وغيرهم من افراد الشعب ، وقد اتضح لى انهم على علم كاف باتفاقيات الســـلام مع اسرائيل ، ويكاد يكونوا متحمسين التعبير عـــن تقديرهم لبيجين مثلما يكنون للسادات ولى كل تقدير . وفى المنازل غالبـــا ما يوجـــد على الجـــدران عـــدد كبير من الصـــور الفوتوغرافية لعبد الناصر وعدد قليل من الصور للسادات ، وفى بعض الاحيان صورة لى شخصيا . كما توجد على الجدران كتيبات سياحية وصور واعلام وغيرها من التذكارات الخاصة بالدول التى كان يعمل بها ابناء الاسرة ، وكانت ليبيا هى اكثر الدول التى يتم تذكرها كثيرا .

وفى يوم الاحد ادينا الصلاة فى كنيسة قبطية قديمة باحدى القرى التى صادفناها ونحن فى طريقنا ، وذكرنا راعى الكنيسة بقوة عقيدة هؤلاء المؤمنين المســـيحيين الذين كان راعيهم القديس مرقص . وبعد القداس شـــاركنا

القساوسة فى احتساء الشاى ، وقد أشاروا الى أن الطقوس لم تتغير تغييرا يذكر خلال الستة عشر قرنا الاخيرة . ويبدو أنهم كانوا مشغولين بصورة بالغة بموضوع تحديد اقامة البابا شنوده الذى قـام الرئيس السادات بتقييد نشاطاته والذى كان محددا اقامته والذى كان بأمر من الرئيس مبارك . وقد رفض الاقباط اختيار اى شخص آخر لرئاستهم ، ووعدتهم بأن أتوسـط لمصلحتهم لدى المسئولين المصريين . ومنذ ذلك الحين ، قمت بذلك عدة مرات ، وقد تم اخيرا اطلاق سراح البابا شنوده فى يناير عام ١٩٨٥ .

وعلى عكس الحال بين المسيحيين وغيرهم من المؤمنين فى الدول الغربية، فانه لم يكن ثمة ظهور لمذاهب أو عقائد جديدة فى العالم الاسلامى منذ العصور الوسطى ، ونفس النمط الأرثوذكسي مازال مستمرا بين المسيحيين ، الـذين ظلوا طوال عصور طويلة بلا مساس بصفتهم جماعات أقلية بين المسلمين . ومهما يكن من أمر فانه منذ الثورة الايرانية والجماعات الاسلامية اصبحت أكثر تشددا ، وقد رد قادة مصر وغيرها من الدول العربية فى بعض الاحيان على هذه الضغوط الدينية باضطهاد غير المسلمين وهو الامـــر الذى يتعارض مع طابع المسلمين . وفى تاريخ الاسلام الطويل يمكن للمرء أن يكتشف وجود شعور متزايد مناهض للغرب . ويعتبر سوء معاملة البابا المسيحى القبطى شنوده ، مثالا من الأمثلة على هذا الاتجاه المزعج .

لقد أصبحت مصر دولة موحدة لأول مرة منذ اكثر من خمسة آلاف سنة، فى عام ٣١٠٠ قبل الميلاد ، عندما قام ملك عظيم يسمى مينا بتوحيد القطرين الشمالى والجنوبى . وساعد اكتشاف اللغة الهيروغليفية فى نفس ذلك الوقت تقريبا ، المملكة على تسجيل التاريخ المجيد لنضجها الثقافى والسياسى .

وعلى عكس سـوريا وغـيرها من الدول الواقعـة بين نهرى دجـلة والفرات . فان مصر لم تكن فى مفترق طرق التجارة أو مركزا للحرب الدائمة عندما كانت الحضارات تناضل فى بادىء الأمر من أجل الهيمنة . ولم توجد فى وادى النيل المسالم نسبيا أية اضـطرابات تتعلق بالنزاع مع قوى وأفكار أجنبية ، ولذلك فقد ظهرت فلسفات ومعتقدات دينية جديدة ببطء شـديد ، وركز أفراد الشعب اهتمامهم على البناء والحرف والزراعة . ونظرا للرخاء النسبى الذى كانت مصر تنعم به ، فانها اشتهرت بكونها مصدرا موثوقا بـه للمواد الغذائية حتى فى تلك العصور القديمة ، ولذلك فانه ليس من الغريب أنه عندما وصل ابراهيم الى أرض الميعاد فى كنعان ليجد الجفاف والمجاعة ، واصل رحلته الى دلتا النيل ، ربما الى مكان لا يبتعـد كثيرا عن مزرعـة أسرة السادات — لشراء مواد تموينية لأسرته ولرعيته . وهناك لقى ترحيبا كريمـا وقد أضافت زيارته الممتدة ثروة الى ثروته الكبيرة بالفعـل ، ومن المؤكد أن قصة هذه الزيارة معروفة لخلفائه من بعده .

وعندما حلت مجاعـــة شديدة اخرى على ارض كنعان ، ذهبت عائلة اسرائيل (معروف ايضا باسم يعقوب) حفيد ابراهيم الى مصر مرة ثانية — وربما الى نفس المكان لانقاذ انفسهم من الموت جوعا . وهناك مكث أحفاده اربعة قرون ، وعاشوا فى باديء الأمر فى حرية ثم اصبحوا فيها بعد ذلك عبيدا للفراعنة حتى عاد بهم موسى الى أرض الميعاد . ويشير الأنجيل الى انهم حتى بعد تحررهم ، اخذ مئات الآلاف من الاسرائيليين التائهين ينظرون بشوق الى حياتهم فى مصر .

ومن وقت لآخر كانت مصر تبسط نفوذها على طول الســاحل الشرقى البحر الابيض المتوسط وعلى سوريا . وفى العديد من المناسبات تعرضت مصر نفسها للغزو من جانب جيرانها القريبين منها فى افريقيا ومن جانب أعدائها فى سيناء . ومهما يكن من أمر ، فانه حتى عندما احتلت قوات أجنبية أراضيها ؛ فان المصريين ، بوجه عام استطاعوا الاحتفاظ باستقلالهم النسبى وعزلتهـــم الثقافية وواصلوا تحقيق الازدهار الاقتصادى من التجارة الدولية .

وفى اثناء القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ، تحطمت الممالك اليهودية لاسرائيل ويهودا فى فلسطين على أيدى الآشوريين والبابليين ، كما تعرضت مصر لهزائم ساحقة على أيدى نفس هذه القوى الكبرى القادمة من وادى دجلة والفرات . وبعد عشرين عاما ، احتل الفرس ، مصر وكان هذا يمثـــل بداية فترة طويلة من الاحتلال الاجنبى . وفى عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، قهـــر الاسكندر الاكبر المنطقة بأسرها وبدأ عهد النفوذ اليونانى الذى أثر فى النهاية فى الثقافة المصرية القديمة ومازال تأثيره مستمرا . ثم جاء بعد ذلك الرومان ، قبل مولد المسيح بفترة وجيزة ، واصبحت مصر مرة أخرى مسرحا لدرامـــا مسيحية . فقد تم ارغام أسرة المسيح على ايجاد مأوى لهم هـربا من الملــك هيرودس الاكبر الذى أمر بقتـــل جميع الأطفـــال الذكور فى بيت لحــم . لذلك هرب يوسف ومريم وطفلهما الى مصر ومكثوا هناك حتى وفـــاة هـــيرودس هذا وقد حكم الرومان مصر قرابة سبعة قرون ، وقد اصبحت المسيحية خلال ذلك الوقت الديانة القومية واصبحت اللغة القبطية هى لغة الشعب المصرى . وبعد ذلك ظهر التيار القوى للاسلام فى القرن السابع ، واجبر الرومان على الخروج من الشرق الاوسط (وفى النهاية من جزء كبير من جنوب أوروبا) . ولفترة تزيد على الف عام والحياة السياسية والثقافية للمصريين ولغيرهم فى جميع انحاء الشرق الاوسط ، تمتثل لتعاليم النبى محمد (عليـــه الصـــلاة والســـلام) .

وتعتبر مصر من اكثر دول المنطقة ، تحملا لتاريخ طويل من الاستعمار الغربى ، حيث أن معظم الدول الأخرى فى الشرق الاوســـط ظلت جزءا من

الامبراطورية العثمانية حتى الحرب العالمية الاولى . وفى ذلك الوقت خضعت مصر لاحتلال بريطانيا العظمى لاكثر من جيل . وعندما اقترب نشوب الحرب العالمية الثانية ، كانت الضغوط القومية فى مصر ترغم البريطانيين فى النهاية على منح بعض الاستقلال للشعب ولكن غزو موسولينى لاثيوبيا فى عام ١٩٣٥ اقنع معظم المصريين بأن حماية بريطانيا ربما لم تكن اسوأ خيار بالنسبة لهم لبضع سنوات أخرى . وحتى مع ذلك ، فان كراهية البريطانيين قد أحدثت انقساما سياسيا خطيرا داخل صفوف أفراد الشعب المصرى ، فمالت مجموعة من الضباط الشبان نحو تأييد النازيين . ونظرا لهذه الضغوط الداخلية ، لم تنجح بريطانيا فى اقناع مصر باعلان الحرب على المانيا الا بعد حلول عام ١٩٤٥ ، أى قبل نهاية الحرب بأشهر قليلة .

وبتشجيع من البريطانيين ، ساعدت مصر على انشاء الجامعة العربية فى نفس ذلك العام ، وذلك بانضمام شرق الاردن واليمن والسعودية والعراق وسوريا ولبنان الى مصر كأعضاء أصليين . وفيما بعد انضمت أيضا الدول العربية الأخرى الواقعة فى شمال افريقيا وفى شبه الجزيرة العربية ، الى الجامعة العربية .وكان مقرها فى القاهرة وظلت كذلك حتى قام الرئيس السادات بتوقيع معاهدة السلام المصرية — الاسرائيلية فى مارس عام ١٩٧٩ . عندئذ اتفق القادة العرب الآخرون على نقل قاعدة عمليات الجامعة العربية الى تونس عقابا للسادات .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، واصل المصريون نضالهم من أجل الاستقلال ، ولكن النفوذ البريطانى لم يتضاءل بصورة ملحوظة الا بعد قيام ثورة ١٩٥٢ . وفى يونيو عام ١٩٥٦ ، انتهى الاحتلال البريطانى العسكرى الذى دام ٧٤ عاما ، وبعد شهر واحد من ذلك أمم عبد الناصر قناة السويس. وفى نوفمبر ، نجح البريطانيون بمساعدة الفرنسيين والاسرائيليين فى الاستيلاء مرة أخرى على قناة السويس . وأثبتت قوات عبد الناصر العسكرية ضعفها فى تأدية واجبها . وكان الضغط السياسى من جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وغيرهما من الدول الأعضاء فى الامم المتحدة ، هو الشىء الوحيد الذى أرغم قوات الاحتلال على الانسحاب .

وقد خلف هذا التاريخ الطويل من الاستعمار ، ذكريات مريرة للغاية فى أذهان المصريين وغيرهم من العرب . وفى خلال الثلاثين سنة الماضية ، قاوم قادتهم فى عزم واصرار أى تدخل أجنبى فى شئونهم الداخلية وأعلنوا عدم تحيزهم للدولتين العظميين . ومع ذلك فانهم كثيرا ما وجدوا أنفسهم قريبين من موسكو أو واشنطن عندما كانت دولهم فى حاجة للمعونة العسكرية أو الاقتصادية .

وقبل الثورة المصرية باربعة أعوام ، تأسست دولة اسرائيل وقد غير وجودها من طابع المنطقة وحياتها السياسية . ومهما يكن من أمر ، فان المصريين وجميع العرب قد اعتبروا ، خلال الايام الاولى من تأسيس وطن قومى لليهود ، بمثابة غلطة قصيرة الأجل ، وبمثابة اجراء اتخذه البريطانيون من أجل تحقيق أهدافهم السياسية الشخصية . ولقد اصيب القادة المصريون وغيرهم من القادة فى الشرق الاوسط ، بالدهشة من جراء مدى وعمق ما وصلت اليه القضية اليهودية ، ذلك لأنهم ببساطة لم يكونوا على استعداد لمواجهتها ، واخفقوا فى الاعتراف بحاجة الشعب اليهودى لملاذ او مأوى ، وقللوا من شأن قوة وعناد الصهاينة فى الحصول على موطىء قدم لهم فى فلسطين والمحافظة عليه . لقد اعتقد الجانبان فى امكانية حل الموقف بالقوة . وأعتقد اليهود فى احتمال أن يجلوا السكان عن الارض أو يتقاسمونها معهم ، أما العرب فقد اعتقدوا انه فى امكانهم الحيلولة دون وفود أو اقامة أعداد كبيرة من اليهود فى فلسطين .

ظهر جمال عبد الناصر باعتباره قائدا ديناميكيا لجمهورية مصر الجديدة وسرعان ما دعم بلاده بمساعدة الاتحاد السوفيتي كقوة دافعة للعالم العربى . وثمة هدف من الاهداف السياسية التى تطلع العرب الى تحقيقها ، وهو مواجهة التهديد الصهيونى . وبحلول منتصف الستينيات ، كان عبد الناصر وغيره من القادة العرب يستعدون لشن حرب اعتبروها حتمية ، وعندما نشبت الحرب فى عام ١٩٦٧ الحقت بالعرب هزيمة خسرت فيها مصر سيناء .

وفى أعقاب وفاة عبد الناصر ، أصبح أنور السادات ، رئيسا للجمهورية ، وبدأ يتحرك بطيئا ولكن مطردا فى الابتعاد عن السوفييت والاقتراب من الولايات المتحدة . ولقد توج هذا القرار بطرد الآلاف من المستشارين السوفيت من مصر فى يوليو عام ١٩٧٢ واستدعاء كل من السفيرين فى موسكو والقاهرة . كانت هذه بمثابة حركة مثيرة ، ولكن فى خلال بضعة اشهر عاد السفيران الى منصبيهما وبدأ السوفيت مرة أخرى فى امداد مصر بالاسلحة المتقدمة بخطى سريعة لمضاهاة تلك الاسلحة التى تسلمها الولايات المتحدة لاسرائيل .

وبدأ الرئيس السادات والرئيس السورى حافظ الاسد فى التخطيط سرا لأن تكون الحرب القادمة (التى نشبت فى أكتوبر عام ١٩٧٣) حربا ذات أهداف محدودة ، وليست محاولة لحرب شاملة . وربما استغل أتباع السادات الأحداث بعد وقوعها وزعموا الآن أن الهدف الحقيقى للمصريين كان ينحصر فى تمهيد الطريق من أجل تحقيق سلام حقيقى بين العرب والاسرائيليين . وهذا الموضوع لا يمكن التفاوض بصدده الا اذا استعيدت الكرامة

العربيـــة وساد اساس من المساواة والاحترام المتبادل فى ميـــادين القتـــال المحتملة مستقبلا . وقد شعر السادات بانه من المؤكد انـــه اذا تـــم تحقيـــق هـــذه الاهـــداف المحدودة ، فان افراد شعبه سيؤيدونه فى التحرك نحـــو اقـــرار السلام .

وفى هـــذه المرة وعلى الاقـــل فى المراحل الأولى لحرب اكتوبر عـــام ١٩٧٣ ، استخدم المصريون الاسلحة السوفيتية بفعالية أكثر مما فعلوا أثنـــاء حرب ١٩٦٧ . وعلى ايـــة حال ، فان الكرملين لـــم يستطع مضاهاة الكميات الكبيرة من المواد الحربية التى ارسلتها الولايات المتحدة الى اسرائيـــل عـــن طريق جسر جوى . ونظرا لتعرض الجيش المصرى لخطر الدمار ، فان اليكسى كوسيجين رئيس الوزراء السوفيتى طار الى القاهرة مـــن اجل الترتيب لاعلان وقف اطلاق النار . وعندما رفض الاسرائيليون مراعاة هـــذا الترتيب ، حذر السوفيت كلا من الرئيس نيكسون والاسرائيليين ووضعوا خططا واضـــحة لارسال قواتهم الى مصر . ونتيجة للضغط الامريكى راعى الاسرائيليون شروط وقف اطلاق النـــار ، ولكن لـــم يحدث ذلك الا بعد ان اعلنت الولايات المتحدة ان قواتها العسكرية المنتشرة فى جميـــع انحاء العالم قـــد وضعت فى حالة التاهب القصوى ، استعدادا لصدام خطير بين القوتين المعظميين .

وبعد انتهاء حرب ١٩٧٣ التى لـــم تؤد الى نتيجة محددة ، وبعـــد ان حقق العرب انتصارهم السيكولوجى ، اعتبر الســـادات بمثابة بطل عســـكرى عظيم يتميز بقوة مكنته من الايفاء بوعـــد عبد الناصر الذى لـــم يحققـــه . واصبح لدى السادات الذى قام بدراسة الشروط المحتملة لتحقيـــــق تســـوية مـــع الاسرائيليين فى موعـــد مبكر يرجع الى عـــام ١٩٧١ ، التكافؤ فى التفاوض الذى سعى الى تحقيقه . وفى اكتوبر عـــام ١٩٧٣ ، ذهب الســـادات الى مقر البرلمـــان المصرى واقترح امام اعضائه ، عقد مؤتمر دولى للسلام يضـــم الاطراف المتنازعة فى الشرق الاوسط وتتناوب على رئاسته الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . وعلى ايـــة حال ، فعندما عقد مثـــل هـــذا المؤتمر فى النهاية (بدون اشتراك سوريا) فى ديسمبر عـــام ١٩٧٣ ، اثبتت المحاولة على الفور فشلها . ومن وجهة نظر السادات ، فان اتفاقيات فصل القوات لعامى ٩٧٤ او ١٩٧٥ فى سيناء ومرتفعات الجولان بين مصر واسرائيـــل وسوريا ، تعتبر بديلا متواضعا ومحدودا لمـــا كان يدور فى ذهنه .

لقـــد تلقت مصر مساعدات كبـــيرة من السوفيت ، ولكن فى اعقـــاب التفـــاوض الخاص باتفاقيات الانســـحاب من سيناء ، اصـــبح واضـــحا ان السادات يوجه مصـــالح بلاده مرة اخرى نحو الديمقراطيات الغربية . لقـــد ابلغنى الســـادات فيما بعد ذلك ، بانه لـــم يرغب فى تدفق « المستشارين » السوفيت مرة اخرى على مصر ، فقد راى المعارضة القديمة من جانب السوفيت

لمفاوضات الانسحاب مع الاسرائيليين واعتقد أن هناك احتمالا اكبر فى أن توفر الولايات المتحدة السبل لاجراء المزيد من مباحثات السلام .

وتطلع السادات الى خلق مصر عصرية تنعم بالرخاء ومتحالفة مع الغرب . بل انه كان حتى على استعداد لان يبرم اتفاقية سلام منفصلة مع اسرائيل مما يعرض مكانة بلاده للخطر فى المجتمع العربى . حتى أن رجالها من الشباب كانوا أكثر من تمت التضحية بهم فى الحروب ضد اسرائيل . وادرك ان ثمة فوائد كثيرة سوف تعود على أشقائه العرب نتيجة لانهاء الحرب ، وشعر بأنه اذا استطاعت مصر أن تتحرر من المواجهات المستمرة والمهلكة مع اسرائيل، فانه سيستطيع المساعدة فى تحديد الحياة السياسية والاجتماعية للعرب ، والاشتراك فى صد الاعداء المشتركين . وثمة تطور هام فى تاريخ الشرق الاوسط ، عندما قرر الرئيس السادات انه لم يعد ملتزما باجماع الجامعة العربية ، وانه يمكنه التصرف باستقلال عن سوريا وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية وغيرها من الدول التى استمرت فى رفضها اجراء اية مفاوضات مع اسرائيل .

وبعد أن توليت الرئاسة بفترة وجيزه ، نشبت نزاعات متعددة على الحدود بين مصر وليبيا ، وزاد التأييد السوفيتى لليبيين من عزلة السادات . وقد بدأ فى قطع روابطه العسكرية والثقافية والتجارية مع الاتحاد السوفيتى ، وتدهورت العلاقات بين البلدين عندما أعلن السادات عزمه على زيارة القدس فى نوفمبر عام ١٩٧٧ . ويبدو ان افراد الشعب المصرى قد قبلوا كل هذه التغيرات السريعة التى طرأت على السياسة باتزان نسبى .

وعندما التقيت بالسادات لأول مرة فى ابريل عام ١٩٧٧ ، كان ميله الى التعاون معنا فيما يتعلق بمفاوضات السلام قد اتضح بالفعل ، ولكنه لم يحدد أى موعد زمنى لاجراءاته . وقد أبلغنى بأنه يتطلع الى اتفاق سلام شامل وحقيقى وعادل ، بتأييد من كلا الدولتين العظميين ، من شأنه أن يحقق توازنا جديدا بين الاسرائيليين والعرب ويعامل الفلسطينيين بانصاف . وقد استعرضنا بعض العناصر الأساسية الجوهرية للتقدم ، ثم أيد السادات فيما بعد ذلك العبارات الواردة فى البيان الامريكى — السوفيتى المشترك الصادر فى اكتوبر عام ١٩٧٧ (الملحق الثالث) . واعتبرت ذلك بمثابة تمهيد حيوى لاعادة عقد مباحثات جنيف للسلام . وصدرت اعتراضات قوية على البيان المشترك من اسرائيل ولا سيما من الاصدقاء الامريكيين لاسرائيل . ولا تتعلق هذه الاعتراضات بمضمون نص البيان المشترك بقدر ما تتعلق بالآثار الناجمة عن رئاسة الدولتين العظميين لاجتماع يضم أطراف محجمة ومتنافرة . ولقد غضبت لهذه الانتقادات وبدت لى كل فرص التقدم وهى تضيع .

وبعد ثلاثة ايام بعث السادات برسالة خاصة وشخصية لي وفيها بعد استقال وزير الخارجية المصرى الذى سلمنى اياها احتجاجا على محتوياتها . وتحثنى الرسالة على عدم الإقدام على أى شىء يتعارض مع قدرة السادات على التفاوض مباشرة مع الاسرائيليين ، وكان هذا بمثابة بشير بعزم السادات على زيارة القدس .

وبعد ذلك اجتمعت وموشى ديان ، وزير الخارجية الاسرائيلى ، لاؤكد له ان سياستنا التى انتهجناها من قبل لم تتغير ، وأن السوفيت قرروا ببساطة فى البيان المشترك ، ان يؤيدوا الموقف الامريكى . ولم يقتنع الاسرائيليون وكانت الآمال المعلقة على مباحثات السلام لا تزال تتضاءل تدريجيا . وبعثت الى السادات برسالة بخط يدى اخبره فيها بمدى « الاهمية بل ربما الجوهرية « بالنسبة له ان يقدم لى مساعدته فى تلك اللحظة العصيبة . وناقشنا مختلف الاحتمالات بالتليفون . وفى يوم ٩ نوفمبر اعلن عرضه المذهل الخاص بالذهاب الى القدس. وبسرعة وجه بيجين عن طريقى دعوته للسادات لان يلقى كلمة فى الكنيست الاسرائيلى ، وبعد ذلك بفترة وجيزة ، تمت الزيارة التاريخية .

وفى خطابه الذى القاه أمام اعضاء الكنيست الاسرائيلى ، اعلن السادات فى عبارات محددة الموقف العربى القوى . ومن الشيق أن نعرف انه قرر بعد بعض المناقشات الهامة ، الا يأخذ بمشورة مستشاريه بالقاء الخطاب باللغة الانجليزية للمستمعين فى انحاء العالم . وبدلا من ذلك القى خطابه باللغة العربيـة لصالح جيرانه العرب واعرب عن امله لو انه استطاع ايضا ان يلقيه باللغة العبرية . ان وجوده كرمز كان قويا الى الحد الذى طغى على كلماته التى لم تحظ باهتمام بدرجة كبيرة . وكان رد فعل الدول الغربية مؤيدا تأييدا ساحقا ، بينما كان رد فعل القادة العرب المعتدلين ، حذرا فى احسن الظروف المتوقعة ، أما الجمهور الاسرائيلى فقد استجاب بابتهاج وحماس . وقطعت سوريا علاقاتها الدبلوماسية مع مصر ، ودعا كبار المسئولين فى دمشق وبغداد وطرابلس ومنظمة التحرير الفلسطينية الى اغتيال السادات .

وفى ديسمبر عام ١٩٧٧ ، جاء بيجين الى البيت الابيض ليناقش الاقتراح الخاص باقرار السلام فى سيناء والضفة الغربية . وتم عقد عدة اجتماعات محمومة بين المصريين والاسرائيليين اسفرت عقب انتهاء اعياد الميلاد بزيارة بيجين للاسماعيلية بالقرب من قناة السويس . وقد ابلغنى السادات بأن الجلسة كانت غير مرضية تماما ، بل تعتبر بمثابة نكسة حقيقية لمبادرة السلام . اذ أن بيجين كان يصر على ضرورة بقاء المستوطنات الاسرائيلية على الاراضى المصرية . وبدا يبدو أن النتيجة الوحيدة الثابتة للحركة الشجاعة التى قام بها السادات ، هى انتهاء اى احتمال لعقد مؤتمر جنيف . وفى خلال زيارة سريعة قمت بها فى بداية السنة الميلادية الجديدة ، تشاورت مع قادة الاردن وايران

والسعودية ومصر ، فوجدت العرب الآخرين يؤيدون نوعا ما السادات فى مجالسهم الخاصة ، ولكنهم يوجهون اليه النقد فى بياناتهم العلنية ، وهم بذلك انما يحترمون تعهدا بالاجماع بالوقوف مع اشقائهم العرب الاكثر تطرفا .

وفى خلال النصف الاول من عام ١٩٧٨ ، تدهور الموقف من سيىء الى اسوأ ، وبعث لى السادات برسالة يبلغنى فيها بأنه عقد العزم على المجىء الى الولايات المتحدة والتنديد علنا ببيجين بصفته خائنا لعملية السلام . وفى شهر فبراير ، وجهت انا وروزالين الدعوة لأنور السادات وجيهان للقيام بزيارة شخصية لكامب ديفيد ، وبعد تمضية نهاية الاسبوع فى مباحثات مكثفة ، اقتنع السادات بالمحاولة مرة اخرى من اجل التوصل الى نوع ما من الاتفاق . وقد ساعد سيروس فانس وزير الخارجية الامريكى فى الجهود الجديدة ، ولكن خلال بضعة اسابيع ، اتضح أن الاسرائيليين والمصريين لن يتفقوا قط بصدد أى من القضايا الأساسية .

وفى النهاية وفى محاولة يائسة من أجل التوصل الى اتفاق سياسى ، قررت أن أوجه الدعوة لكل من بيجين والسادات للحضور الى كامب ديفيد حتى يمكننا الابتعاد عن المهام الروتينية لبضعة أيام ، وقد استطعت ، ونحن فى عزلة نسبية ، أن أقوم بدور الوسيط بين وفدى البلدين . لقد قبلا الدعوة على الفور ، وفى شهر سبتمبر عقدنا سلسلة من الجلسات الخاصة استمرت ثلاثة عشر يوما .

ونتيجة لتنازلات كبيرة ، نصت اتفاقيات كامب ديفيد على انهاء الحكم العسكرى الاسرائيلى ، ومنح الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة ، حكما ذاتيا كاملا ، واجراء مفاوضات من اجل تحديد الوضع الدائم للاراضى المحتلة الاخرى ، بالاضافة الى اشتراك الفلسطينيين فى تقرير مستقبلهم . وقد تم توقيع اطار لاتفاقية مصرية — اسرائيلية ، تدعو الى انسحاب اسرائيل من سيناء وحل المستوطنات الموجودة فى الاراضى المصرية واقامة علاقات دبلوماسية بين اسرائيل ومصر ، وفتح الحدود بينهما لتبادل التجارة ، وضمان مرور السفن الاسرائيلية فى قناة السويس واعلان سيناء منطقة منزوعة السلاح ، وابرام معاهدة سلام دائم لتأكيد هذه الاتفاقيات (الملحق الرابع) .

وفى ١٧ سبتمبر من عام ١٩٧٨ ، وقعنا ونحن مبتهجون الاتفاقيات فى البيت الأبيض ، ولكن الاحتفال بذلك كان قصير الاجل . فقد بدا من المستحيل تقريبا تحقيق أى تقدم آخر . وبعد ستة أشهر ، أى فى مارس عام ١٩٧٩ ، قررت الذهاب الى القاهرة والقدس لمحاولة حل المسائل المتبقية ، وتمكنا من ابرام معاهدة السلام ، التى تدعو الى انسحاب اسرائيلى كامل من سيناء المصرية ،

واقامة علاقات طبيعية بين البلدين . واعقب هذا النجاح ، ولبضعة اشـــهر ، تعاون وسهولة فى الاتصال بين مصر واسرائيل ، ولكن منذ ذلك الحـــين ، والمفاوضات متوقفة تماما . ولم يتحقق أى تقدم . ولم يمنح الاسرائيليون أى حكم ذاتى يذكر للفلسطينيين ، وفى الواقع زادت حكومتا بيجـــين وشامير من تشديد قبضتهما على الاراضى المحتلة . فضلا عن ان الاردنيين والفلســطينيين لم يكونوا على استعداد للانضمام للمباحثات .

لقد أصر السادات دائما على ضرورة اعطاء الاولوية لمســألة منح الفلسطينيين حق تقرير مصيرهم ، وكنا جميعا (ربما باستثناء بيجين) مقتنعين بأن هذه الحقوق مصونة فى الوثيقة النهائية . وكنا جميعا (بما فى ذلك بيجين) واثقين ايضا من امكانية صياغة النصوص النهائية للمعاهدة خلال المدة المحددة لذلك وهى ثلاثة اشهر . ولقد أدرك المصريون أنه اذا ، بدأت اسرائيل فى بناء مستوطنات جديدة ، فــان الفلســـطينيين والاردنيين وغيرهم من العرب لن يستطيعوا قط أن يقتنعوا بأن التزامات كامب دىفيد ستحظى بالاحترام . وبالنسبة لهم ، فان منح الفلسطينيين وعدا « حكم ذاتى » ، وان يكون لهم الحق فى ابداء رأيهم على قدم المساواة أو الرأى النهائى فى تحـديد مصير الاراضى المحتلة ، بينما تستمر عملية بناء مستوطنات اسرائيلية كبيرة وبصفة دائمة ، انما يبــدو أمرا غير ملائم الى حد يثير السخرية .

وربما لم يكن أخطر ما أغفل توضيحه كتابه فى مباحثات كامب ديفيد ، وعد بيجين الخاص بتجميد المستوطنات خلال مباحثات السلام التالية . لقد اعتقد المصريون أن أسوأ خطأ ارتكبوه فى كامب ديفيد هو حذف عبارة « تقرير المصير » حيث أنها تنطبق على حقوق الفلسطينيين ، ولكننى اشك فى أن بيجـــين كان سيقبل امكانية اقامة دولة فلسطينية مستقلة . ولقد اخفقت أنا والسادات فى المداومة على اطلاع الملك حسين عاهل الاردن على الاحداث عند صياغة البنود النهائية للاتفاقيات ، الامر الذى ساهم بلا شك فى رفضه الانضمام الى المباحثات التالية الخاصة بالحكم الذاتى .

وفى أثناء أحاديثى الكثيرة مع السادات ، كثيرا ما اعربت عن مخاوفى من تزايد عزلة مصر عن العرب الآخرين ، ولكنه كان يسخر من تلقى هذا . فقد كان متأكدا من أن مبادرته تمثل على نحو دقيق أمانى الشعب المصرى فى تحقيق السلام وانه مقتنع على حد سواء بأن معظم جيران اسرائيل من الدول العربية لديهم نفس الطموح حتى بين أفراد الشعب انفسهم . وقد ندد بشدة بقادة تلك الدول لجبنها المتسم بقلة التمييز عندما أخفقوا فى أن يحذو حذوه .

ولقد أثبت السادات أنه على صواب فيما يتعلق بفشل هذه المحاولات الخاصة بمعاقبة مصر . ومهما حاولوا ، فان العرب الآخرين لن يستطيعوا أن

يستبعدوا أو يتجاهلوا لفترة طويلة مصر ، بقواتها المسلحة الهائلة وموقعها الوسط ، وتراثها الحضارى العظيم وسكانها المتعـــــددى العناصر الذين يبلغ تعدادهم ٤٧ مليون نسمة ، وقوتها العاملة الكبيرة فى الخارج ، واســـــتعداد قادتها الحاليين فى استكشاف مفاهيم جريئة وجديدة . لقد ذكــــر احد أساتذة جامعة تل أبيب مؤخرا أن موقف العرب من مصر خلال محاولتهم مقاطعتها يذكره بعنوان قديم فى جريدة التايمز اللندنية ، « الضباب يخيم على بحـــر المانش . اوروبا معزولة » . وبالنسبة « للرافضين » فى العالم العربى الذين لم يستطيعوا اقناع انفسهم بالتخلى عن تصميمهم على القضاء على اسرائيل ، يعتبر السادات بمثابة خائن ، خدع اشقائه العرب من اجل مجده الشخصى ومن أجل الحصول على مزايا لا مبرر لها لبلاده على حساب الآخرين . وقد ترددت نداءات متكررة تدعو الى نبذ مصر واغتيال السادات ، ولكن الرئيس المصرى لم ينزعج من هذا وواصل فى هدوء سعيه الى تحقيق هدف السلام .

وفى وقت مبكر من صباح اليوم السادس من اكتوبر عـــام ١٩٨١ ، دق جرس التليفون فى منزلى فى بلينز بجورجيا . وجه احد الصحفيين سؤالا عن رد فعلى ازاء الهجوم على السادات ، واضاف بسرعة بأن محاولة اغتياله لم تنجح ، وأنه يعانى فقط من اصابات طفيفة . فاعربت عن اســـــتنكارى للارهاب ، ثم طلبت الاتصال بمصر . لم استطع الاتصال بالسادات ولكننى تحدثت مع السفير الامريكى ، الذى اكـــد لى أن الرئيس المصرى على ما يرام وأن القتلة الذين حاولوا اغتياله قد قبض عليهم وفى أثناء النهـــار عاودت الاتصـــال عدة مرات بالقاهرة ، وشاهدت التليفزيون الذى اعلن النبأ المؤسف . لقـــد قتـــل انـــور السادات بأيدى متعصبين دينيين مضللين . كانت وفاته خسارة شخصية كبيرة بالنسبة لى وضربة شديدة لاحتمالات السلام فى الشرق الاوسط .

ومنذ ذلك الوقت والرئيس حسنى مبارك حريص على أن يفى بالالتزامات التى تعهد بها سلفه . لقد اتضح لى تماما خلال اجتماعاتى الأخيرة التى عقدتها مع القادة المصريين ، انهم يسعون الى ايجاد سبيل لاعادة تأكيد زعامة مصر فى داخل العالم العربى وانها قوة كبيرة فى عملية السلام فى الشرق الاوســط على السواء . ويتلخص انطباعى فى أنه بالنسبة للوقت الحاضر ، يأتى العالم العربى أولا ، بينما تظل معاهدة السلام المصرية — الاسرائيلية بلا مساس . ومبارك الذى يعتبر تلميذا للسادات ، يفتقر الى الجرأة التى تميز بها السادات وربما يفتقر الى مفاهيمه الاستراتيجية ، ولكنه مصمم على أن يظل وفيا لمنهاجه . ويتميز مبارك بالهدوء والصبر ، وهو اكثر اهتماما وانشغالا بالشئون الســــياسية والاقتصادية الداخلية لبلاده من سلفه . وقد تصرف عموما فى ظل ظـــروف عصيبة ، كما يعتقد هو ومستشاروه المقربون ، أن السادات كان سيفعل ذلك .

ومن المفيد الاصــــغاء الى الاصوات المصرية ، لأن مصر قد تبوأت مركز الصدارة فى السنوات الاخيرة وتزعمت حركة القومية العربية فى ظل عبد الناصر، والسلام المستقل مع اسرائيل فى ظل السادات . وبدون مصر ، كان من غـــير المحتمل ان يتخذ العرب أية مبادرة فيما يتعلق باقرار سلام حقيقى أو الدخول فى حرب مع اسرائيل .

ولقد شعر القادة المصريون اكثر من غيرهم بالأمل وخيبة الأمل والانتصار، والمآسى ، والقرب من اشقائهم العرب والبعد عنهم . ان أرض مصر القديمـــة مازالت قائمة كاحدى دول افريقيا وكجزء لا يتجزأ مما نسميه الشرق الاوسط . وخلال جيل ، اقامت مصر ارتباطا سياسيا وثيقا بالاتحاد السوفيتى فى الوقت الذى رفضت فيه أمريكا ، ثم أقامت علاقة حتى أكثر وثوقا مع الولايات المتحدة فى الوقت الذى استبعدت فيه السوفيت . وعلى أية حال فان الاهم من ذلك أن مصر تعتبر ، بصورة ما ، مختبرا للتجارب بالنسبة لمبادرة سلام ترمى الى تسوية النزاع القديم بين العرب واليهود ، ومازال قادتها الحاليون يعترفون بهـــذه المســئولية الجسـيمة .

وفى اى مناقشة تدور حول الظروف السياسية التى تسود منطقتهم ، يؤكد القادة العرب على التمركز المزعج للقضية الفلسطينية ، ويشيرون الى ان مصر انشغلت « بالمشكلة الفلسطينية » قبل تأسيس اسرائيل بفترة طويلة . ويعتقد الرئيس مبارك ، مثله فى ذلك مثل السادات ان الموقف فى الشرق الاوسط يعتبر جزءا من مشكلة عالمية ، تتورط فيها فى النهاية القوتان العظميان وأصدقاؤهمـــا وحلفاؤهما المنحازون .

ويوضح المصريون ان معاهدة السلام بين البلدين مازالت تقوم على اساس اطار شامل يتضمن مراحل التقدم بصدد الضفة الغربية وقطاع غزة ، واستعداد اسرائيل لمنح الفلسطينيين حكم ذاتى كامل ثم حق تقرير المصير ، ويبدون قلقـــا بالغا ازاء سياسة اسرائيل فيما يتعلق بالضفة الغربية وغزة . ويصفون الآن الاراضى المحتلة بأنها مليئة « بأحياء جديدة وصغيرة ليهود مسلحين ينظرون الى العرب من حولهم كأعداء » . ويعتقدون ان نمو المستوطنات انما يزيد من استفحال واستمرار الكراهية التى اعتقد السادات أنها انتهت بزيارته للقدس وبالاتفاقيات التى تلت ذلك .

ان القادة المصريين المعتدلين الذين يعترفون علانية باستحسان التسوية مع اسرائيل والذين يؤيدون تأييدا شديدا المعاهدة ، قد تلقوا سلسلة من الضربات العنيفة خلال الأعوام الأربعة الماضية . فهم يعتقـــدون ان التحفظ السياسى فى الولايات المتحدة ، والتعهـــد المصرى بتحقيق السلام مع اسرائيل قد أبطلا بصفة جزئية الاثر الرادع لهاتين الدولتين على اسرائيل . لقد تعرضـــوا لاحراج بالغ من جانب أولئك الذين يذكرونهم باستمرار من بين العرب الآخرين

انه منذ أن انسحبت مصر كقوة عسكرية مضادة ، غزا الاسرائيليون لبنان مرتين ، وضموا مرتفعات الجولان ، بالاضافة الى ذلك شددوا قبضتهم على القدس ، وقصفوا بالقنابل المفاعل النووى العراقى ، وصعدوا الى حد كبير من نشاطهم الخاص ببناء المستوطنات فى الاراضى المحتلة .

وقد تضاعف حزن المصريين وكربهم نتيجة لرد فعل واشنطن الذى تمثل فى معونة عسكرية اكبر لاسرائيل واعلان قيام « تحالف استراتيجى » على الرغم من التصرفات العنيفة التى اقدمت عليها اسرائيل بلا داع كما اعتبرها المصريون .

ومهما يكن من أمر ، فان المصريين ما زالوا يعلقون الآمال فى أن يثمر حلم السادات الخاص باقرار السلام ، وتأييدهم المستمر لاعماله . ولقد شعروا حتى الآن بخيبة امل نتيجة لعدم تحقيق الافتراض بان الاردن ستقبل المقدمات المنطقية الاساسية لاتفاقيات كامب ديفيد وتنضم لعملية السلام ، على الاقل طبقا لاعلان ريجان لعام ١٩٨٢ ، الذى يصفونه بأنه « صياغة رقيقة لتجنب عبارة كامب ديفيد البغيضة » .

ويعتقد معظم المصريين أن الملك حسين رجل شجاع ، وابتهجوا لان الملك الاردنى قرر استئناف العلاقات الدبلوماسية مع القاهرة فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٤ وثمة دلالة تبشر بالامل فى أن تخلق مصر والاردن جماعة مركزية للمصالح العربية ، على استعداد للسعى لتحقيق تقرير المصير للفلسطينيين عن طريق المفاوضات . وعلى الرغم من أن الاردن قد تنصلت من اتفاقيات كامب ديفيد ،فان مبارك (وربما حسين) يدرك أن هذه الاتفاقية هى الاعتراف الاسرائيلى الرسمى الوحيد بالحقوق الفلسطينية . وسوف يقوم المصريون بتشجيع العاهل الاردنى على اتخاذ الخطوة التالية نحو السلام ولكنهم يعترفون علنا وفى المجالس الخاصة بأن حسين لا يمكنه التحرك بجرأة كبيرة . اذ أنه لابد أن يحصل على تأكيدات من جانب منظمة التحرير الفلسطينية والعرب المعتدلين بأنه لن يتم التخلى عنه أو التنديد به بسبب جهوده . وقد شرح أحد المتحدثين المصريين هذا الموقف المعتل بقوله : « ان حسين ليس السادات ، والاردن ليست مصر » .

ويرى المصريون الاكثر تفاؤلا بؤرة الاهتمام العالمى ، بل وحتى بعض العوامل السلبية التى تضفى على الموقف نوعا من المرونة وتتيح فرصا حقيقية للسلام . فان مزيدا من الاستقرار فى لبنان ونفوذا قويا للاسد ربما يعطى للقائد السورى شعورا اكبر بالامن . ويعتقد المتحدثون المصريون فى امكانية تحقيق مطالب سوريا فى لبنان بدون تعريض الوجود أو السيادة اللبنانية للخطر ، بشرط اجماع القادة العرب الآخرين والرأى العام العالمى على تأييد حماية الحقوق اللبنانية . وأيضا هناك ثمة احتمال فى أن يتيح

تشتت منظمة التحـرير الفلسطينية وانهيار سيطرة سوريا على عرفات ، فرصة لحسين لان يتحدث باسم الفلسطينيين فى مباحثات السلام او يتحدث معهم فيها . بل وحتى سياسة الاستيطان التى تنتهجها اسرائيل قد زادت من المخـاوف فى الاردن وشجعت حسين على منع حدوث خروج ثالث لفلسطينيى الضفة الشرقية ، ولهذا استقر السكان العرب فى الاراضى المحتلة . وتعمـل الحـرب المستمرة بين ايران والعراق والقلق النـاجم عن ذلك فى الدول الاخـرى بمنطقة الخليج العربى ازاء احتمال انتشـار الصراع ، على توضيح مزايا السلام والاستقرار فى المنطقة . وتدعم المناقشـة العامة التى تدور فى اسرائيل حول الاحداث الاخيرة فى لبنان والاراضى المحتلة ، وكذلك عـدم الاكتفـاء الواضح لاقرار السلام مع دولة عربية واحـدة ، القوى التى تنادى باقرار السلام والاعتدال . ومن المؤكد أن يعزز الترحيب بعـودة مصر الى الحظيرة العربية من نفوذ مبارك . وثمة احتمال فى أن تتشكل حكومة واشنطن متحـررة من ضغوط عام الانتخابات ، وتكون اكثر جراة فى جهـودها . ويرى بعض العرب المعتدلين توافقا بين حكومة ريجـان فى فترة رئاسته الثانيـة والفترة الثانيـة من رئاسة دوايت ايزنهاور ، عندما تم ارغام اسرائيل على الانسحاب من سيناء فى مارس عام ١٩٥٧ . وهم يعلقون آمالهم على رؤية جهود مماثلة منجانب واشنطن مما قد يشجع اسرائيل على الانسـحاب من الاراضى المحتلة الاخرى .

وقد راقب المصريون حركة السلام فى اسرائيل ، وقد ادهشهم بل واغبطهم ان يجدوا الاسرائيليين متحمسين حتى اكثر من العرب فى تأييدهم للحقوق الفلسطينية . ولاحظوا باهتمام بالغ ان ٤٠٠ الف اسرائيلى خرجوا الى الشوارع احتجاجا على قتل الفلسطينيين فىاثنين من معسكرات اللاجئين خـلال غـزو لبنان فى عام ١٩٨٢ . ويعلق القـادة المصريون آمالهم على أن يشـاركهم الاسرائيليون الذين يؤيدون اتفاقيات كامب ديفيـد ومعاهدة السلام ، فى ادراك أن السلام بين الدولتين المتورطتين فى الصراع على القوى فى الشرق الاوسـط لم يعد فى حاجة للعبة تكون حصيلتها « صفرا » ، حيث لا يستطيع فيهمـا اى من الطرفين أن يفـوز الا على حسـاب الطرف الآخـر . ومن الممكن بالنسبة لكل من اسرائيل وجيرانها أن يستفيدوا فى الوقت نفسه . ويعـترف القادة المصريون بالشلل السياسى الذى اصاب حكومة الائتلاف الاسرائيلية ، الامر الذى جعل القاهرة تواصل انتظارها لمبادرة تتخذها واشنطن لبـدء أية مفاوضات .

ويؤكد المصريون على اهميـة استعداد العرب لقبول مبـدا التعايش مـع اسرائيل . ويؤكدون أن ثمة دليـلا كافيا على انهم يستطيعون ان يعيشوا فى سلام مـع اسرائيل بمجرد توقيـع اتفاقية سلام رسمية . ويستشهدون باتفاقيات الانسـحاب لعامى ١٩٧٤ و ١٩٧٥ التى تضـم اسرائيل وسوريا

ومصر ، ومعاهدة السـلام المصرية ــ الاسرائيلية لعـام ١٩٧٩ ــ وكلهـا حظيت بالتأييد على الرغم من وفاة السـادات ، و « ضـم » مرتفعات الجولان وغزو لبنـان .

وقد حاولت مصر حث الدول العربية الاخرى ومنظمة التحرير الفلسطينية على الانضمام الى عملية السـلام ، وذلك عـن طريق الجهـود الدبلوماسية المستمرة والهادئـة . وعلى الرغم من عـدم حضور اجتماعات مؤتمر القمة العربى الذى عقـد فى فاس فى سبتمبر عام ١٩٨٢ ، فقد أيدت المشروع العربى الذى انبثق عن هذه الاجتماعات ، والذى الح الى موافقة كافة دول المنطقة عليه . والمصريون مقتنعون بأن غالبية الدول العربية متفقه على حتمية اقرار السلام مع اسرائيل . ومعظم العرب يطالبون بالحصول على اجابة على سؤالهم « ما هى حدود اسرائيل » ؟ قبل امكان البدء فى أية مناقشة ، ولكن البعض على استعداد اكبر لايجاد أو صياغة الاجابة خلال التفاوض .

ويتوقع المصريون من الولايات المتحدة محاولة اقناع الحكومة الاسرائيلية ولكنهم اصيبوا بثبوط الهمة ، شأنهم فى ذلك شأن العرب الآخرين ، نتيجة للتقلب والتناقض السائدين فى واشنطن . ولقد أصيبوا بالدهشة والغضب نتيجة لاعلان ريجان بعد مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى فاس ، والذى تضمن نفاد الصبر أو تنديدا بالتسويات العربية ، بينما كان رد الفعل الامريكى ازاء رفض بيجين الكامل والمباشر ، معتدلا نسبيا . لقد افسدت المعاملة غير العادلة ، من العلاقات الأمريكية ــ المصرية ومكانة مصر بصفتها دولة معتدلة بين العـرب .

ويدعو المتحدثون فى القاهرة الى اتخاذ الخطوات التالية لاستئناف عملية السلام الشـامل :

— تغيير حقيقى لموقف الاطراف المعنية ، بما فى ذلك استعداد الفلسطينيين والاردن للانضمام الى مباحثات السلام مع اسرائيل واستعداد القادة الاسرائيليين لوقف النشاط الاستيطانى خلال المباحثات .

— التعهد بعدم القيام بأية أعمال عنف خلال المفاوضات .

— اظهار حسن النيه من خلال سحب اسرائيل لقواتها من لبنان .

— ادماج مفاهيم العناصر المشتركة فى كل من قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ ، واتفاقيات كامب ديفيد ، واعلان ريجان ، وقرارات مؤتمر فاس مـع افتراض فترة انتقالية قبل تحديد الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة .

— وضع عملية التفاوض فى أيدى المعتدلين .

— استخدام « عبارات غامضة بناءة » لحل ، بصفة مؤقتة ، تلك القضايا الحساسة للغاية مثل القدس التى تتطلب درجة من الثقة والاتصال اكبر مما هو قائم حاليـا .

ـ تشجيع فلسطينيى الضفة الغربية وغزة على التفاوض بطريقة مباشرة اما من طريق اصدار بيان من جانب عرفات ، أو العمد ، أو القادة الموثوق بهم الآخرين فى الأراضى المحتلة ، أو من جانب البرلمان الأردنى الجديد .

ـ اشتراك كامل وجدى للولايات المتحدة كوسيط (وليس كمدافع) فيما يتعلق بالقضايا الهامة الخاصة بحقوق الفلسطينيين وانسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضى المحتلة الأخرى .

ويتعين فى بعض الاحيان على المصريين والاردنيين والفلسطينيين أن يتحركوا معا فى التعامل مع الاسرائيليين ويتعين اشتراك السوريين حتى يمكن التوصل الى تسوية نهائية . ويدرك المصريون تماما انه لكى يتم كل هذا ، يتعين عليهم ان يلعبوا دورا متكاملا ، ولكنهم يفضلون البقاء فى الخلفية لفترة من الوقت حتى يمكن التأكد من نوايا كل من الولايات المتحدة واسرائيل والاردن .

وبدون ان تقدم أية تنازلات علنية ، استعادت مصر عضويتها فى المؤتمر الاسلامى ، وهى تتحرك بهدوء وبفاعلية لاقامة علاقات حقيقية مع الدول العربية كل على حدة . وتوجد أقلية صغيرة فى مصر ، تعتقد انه يمكنها بل وينبغى عليها ان تظل بمنأى عن الاضطراب والدسائس السائدة فى الدول العربية الاخرى ، ولكن الأغلبية لا توافق على ذلك .

وكان أول تحرك هام يعبر عن الموقف المتغير لمصر تمثل فى ذلك الاجتماع الذى عقد بين عرفات ومبارك فى ديسمبر عام ١٩٨٣ ، اى بعد الرحيل الاجبارى الثانى للفلسطينيين من لبنان بفترة وجيزة . لقد كان عرفات اثناء تشاوره مع الرئيس المصرى ، يحاول انقاذ سمعته بين العرب بصفته القائد الذى لا منازع عليه للقضية الفلسطينية . وفى الواقع ، انتهك عرفات التوصيات التى اتخذها مؤتمر قمة بغداد فى عام ١٩٧٨ ، وقرار المجلس الوطنى الفلسطينى الصادر فى عام ١٩٨٣ الذى ينص على حظر أى اتصال مع مصر حتى تلغى اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة السلام الاسرائيلية . لقد أظهر عرفات الذى وجهت اليه ضربات عنيفة . استقلاله ، الأمر الذى ساعد على أتاحة الفرصة لمبارك للدعوة الى استئناف الحوار بين الاردن ـ ومنظمة التحرير الفلسطينية ، بأمل تجديد مباحثات السلام .

ويعتقد القادة المصريون الان أن معظم افراد القيادة فى منظمة التحرير الفلسطينية ، معتدلون نسبيا ، ويفضلون حماية عرفات وتاييده فى نزوعه المتردد الى انضمام ممثلى الاردنيين والفلسطينيين ، لمباحثات السلام . وعندما قام الرئيس مبارك والملك حسين بزيارة الرئيس ريجان فى فبراير عام ١٩٨٤ ، اكد الرئيس المصرى تأكيداً علنيا تأييده لعرفات . وفى نوفمبر عام ١٩٨٤ ، اغتبط المصريون لرؤية الملك حسين يرحب بعقد المجلس الوطنى الفلسطينى فى عمان .

وثمة قاعدة منطقية اساسية دائمة بالنسبة للسادات وللرئيس مبارك ، وتتلخص فى أن معاهدة السلام ليست سوى جزء واحد من اتفاقية كامب ديفيد الشاملة ، وأن مصر سوف تحترم التسوية الشاملة طالما ان اسرائيل تفعل ذلك . والأمل ينحصر فى ألا يقوم الاسرائيليون لا بالطرق العملية ولا بالأساليب القانونية بالغاء الاتفاقيات الخاصة بالحقوق الفلسطينية ، والتراجع فى سحب قواتهم العسكرية من الضفة الغربية وقطاع غزة والبنود المحددة الواردة فى قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ . ان مثل هذا الاجراء النهائى ، الذى كثيرا ماهدد القادة الاسرائيليون باتخاذه سوف يقضى على حلم السادات الخاص باقرار السلام واعادة كافة شئون الشرق الاوسط الى نقطة البداية — اى اسرائيل معزولة يحيط بها أعداء عرب موحدون ولا يعرفون الصفح وينتظرون فى صبر بينما يعدون العدة لاغتنام فرصة أخرى لتوجيه ضربة قاضية .

« العربيــة السعوديــة »

لقد اتيحت لى فرصتى الاولى للعودة الى الرياض كمواطن عــادى ، فى أوائل ربيــع ١٩٨٣ ، وكان علينا أن ننتظر لبضع دقائق فى قاعــة الانتظار الخاصة بالمطار حتى ينتهى المسئولون السعوديون من فحصهم الروتينى للوثائق الخاصة بمجموعتنا . وقد استمتعت أنا وروزالين بالقهوة العربيــة ، التى يتــم صبها ببراعة من فم الاناء المنحنى ذى النقوش المزخرفــة فى كوب صغير للغايــة . وقد عجبنا لقدرة النادل على تجنب اسقاط بضع نقاط من السائل القاتم الكثيف على البســاط الجميل ، وما قد يلحق به اذا افســد هــذا العمل الفنى المصنوع من النسيج . وحينما أصبحنا متأهبين للتوجه الى قصر الضيافة ، قمنا برج أكوابنا الفارغة من جنب الى آخر اشارة الى عدم رغبتنا فى اعــادة ملئها مــرة أخرى . ولــم يعجب الشراب المخمر القوى شــخص أو اثنــان بمجموعتنا وتركوا بعضا منه فى الاكواب لدى اعادتهــا الى الصينية . وفى كل مرة ، كان النادل يلقى بالقهوة مصادفة على البســاط ، ثــم يكدس الاطباق ويغادر المكان . وقــد فسر دبلوماسى رسمى ، فى وقت لاحق ، ذلك بأن البساط المستعمل يعتــبر أكــثر قيمة من البساط الجديــد ، وان ذلك يعــد دليــلا على حسن ضيافة المضيف وبيــان أن ضيوف الشرف هم محل الاعتبار الاول وأن الأطباق ، والاثاث ، وســائر أدوات الضيافة تحظى بأهمية أقل نسبيا .

ان العربية السعودية تعد بلدا غريبــا ، بالنسبة للغربيين ، اذ أن عزلتهــا الجغرافية عملت على حمايتها لفترة طويلة مــن كل من الهيمنــة الاستعمارية وعبء التقاليــد والعادات الاوربيــة الثقيل . وعلى أيــة حال ، فمع ظهور ثروات السعوديين النفطيــة والنفوذ المتزايد فى الشــئون الاقليمية والدولية ، أصبحت آراء وقرارات زعمائهم أمرا هاما فى تحديــد مستقبل الشرق الاوسط . وأنا أعرف أنهم يتمتعون باستقرار نســبى فى بلدهم ، بيد انهم يشــاركون فى القلق العام بشــأن التهــديدات المحتملة من الاحــداث الجديدة والتى لا يمكن السيطرة عليها فى أفغانستان ، واليمن ، ولبنــان ، وايران .

وقــد كنت أود زيارة الملك فهــد أثنــاء وجودى فى العربية السعودية ، وخاب رجائى حينما علمت أنــه كان يلتقى بزعماء القبــائل فى الصــحراء ولا يتوقــع عودته الى المدينــة لبعض الوقت . وبدلا عن ذلك ، تم اعــداد جدول أعمال كامل لاجراء مشاورات لى والامير عبدالله ولى العهــد ، ووزير الدفاع الامير سلطان ، ووزير الخارجية الامير سعود الفيصل ، وزعماء آخرون بالحكومة السعودية ، معظمهم أعضاء بالعائلة الملكيــة . وقــد حدث بعــد ذلك أن أبلغت ، فى وقت متأخر من المساء بعد وصولنا ، بأن الملك فهــد يود

انضمامنا اليه فى اليوم التـالى فى معسكره فى الصحراء ، الذى يبعد حـوالى ٢٠٠ كيلو متر عن شمال العاصمة .

وفى الصباح استيقظنا على صـوت انهمار الامطار الغزيـرة بشـكل مروع . وكان ذلك مـن شأنه أن يجعل تحليـق الطائرة العمودية أمـرا مستحيلا ، ومع استمرار انهمار الامطار ، أصبح المرور فى الشوارع والطرق المؤدية الى المطار أمرا غير ممكن كلية . وقد بلغت الامطار الساقطة على الرياض خمس بوصات وهو أمر لا يصدق . وكان نظام الصرف بها متخلفا تماما ، ولذا فلم يكن ثمة مكان لتصريف المياه ، فامتلأت الاماكن الاكثر انخفاضا بالمياه الغزيرة ، وكان الكثير من هذه الاماكن فى الشوارع ذاتها . وكانت المضخات المحمولـة تعمل بشكل ثابت على ملء عشرات من الخزانات الكبيرة المحمولة على شاحنات، حيث كانت تسحب المياه من المدينة وتلقى بها فى الصحراء . وأشرقت الشمس فى منتصف الصباح ، وبعد بضع ساعات كان بالامكان المرور فى بعض الشوارع مرة أخرى . وتم نقلنا بالسيارة الى اقرب موقع لهبوط الطائرة العمودية وواصلنا طريقنا على الفور .

وقد حلقنا ميلا بعد آخر على ارتفاع منخفض فوق الكثبان الرملية والوديان الجافة بطبيعتها ، وكان بعضها القريب من المدينة لا يزال ممتلئا لدرجة الفيضان. وكانت هناك عدة مزارع مروية ، وقد دهشنا لوفرة الازهار البرية فى أماكـن كثيرة . وكان يوجد بين التلال المنخفضة والكثبان الرملية أعداد من الخيـام السوداء المصنوعة من شعر الماعز ، التى تأوى الأسر البدوية الذين يتبعـون مع قطعانهم رقع الحشائش سريعة الزوال . وبينما كنا ندور محلقين فوق واحدة او اثنتين من تلك المستعمرات المؤقتة ، لاحظنا وجود جياد وعدة جمال فى كل معسكر ، تستعمل فى وسائل النقل المعتادة ، كما كانت توجد فى اكثر الاحيـان سيارات اللاندروفر المتربة الغالية الثمن تقف على مقربة منها . وقال الطيارون ان تلك السيارات تستخدم للرحلات الطويلة المتكررة الى المدينة البعيدة .

وهبطنا فى النهاية فى منطقة اكثر ارتفاعا لاستكشاف الهضاب التى ترتفـع بحدة الى الف قدم او اكثر عن سطح الصحراء المحيطة بها . وبعد نصف ساعة اخرى رأينا المخيم امامنا من بعيد وهو عبارة عن مدينة صحراوية مميزة من الخيام ناصعة البياض المرتبة فى شكل دوائر كبيرة . ولم يبد ان هناك طريقا دائما من اى نوع يؤدى الى الموقع ، وانما فقط آثار العربات التى أتت بالسكان المؤقتين الى اجتماعهم مع الملك . ولم أستطع او أتبين السبب وراء اختيار هذا المكان بالتحديد ، بيد ان الطيار قال ان هذا المكان يكون جميلا على وجه الخصوص فى أعقاب انهمار الامطار غير المتكرر فى الصحراء . وفيما كنا نحلق مقتربين ، لاحظنا ان خلف كل خيمة من الخيام الرئيسية مباشرة منزل متحرك متطور يجثـم فوق هيكل شاحنة مرسيدس كبيرة ، وهو بمثابة اضافات عصرية لدور الخيام

التقليدية الخاصة بشيوخ القبائل السعودية . وكان يوجد على أطراف المعسكر مباشرة مجموعة من مولدات الديزل الكهربائية التى يمكن حملها وعدد كبير من الهوائيات المتطورة البيضاوية الشكل لتزويد مئات المنازل الصحراوية بالطاقة واتاحة الاتصالات الدولية لحاكم الدولة ، وتوفير متعة مشاهدة التليفزيون لاولئك الموجودين فى المعسكر .

وكل وسائل الراحة العصرية تلك كانت امرا مفروغا منه ، وكذلك هـذا التقليد القديم المتمثل فى دخول جلالته الصحراء النائية للالتقاء بشيوخ القبائل من شتى ارجاء المملكة . وهم لم يحضروا لتقديم الثناء وتجديد تعدهم بالولاء ، وانما ايضا للتباحث مع زعماءهم فى السياسة الداخلية والدولية ، وعرض أحوال شئونهم العشائرية ، وطلب السلع والخدمات لعشائرهم .

وبعد أن تناولنا وجبات طعام خفيفة فى احد المنازل المتنقلة ، طلب منى الانضمام الى الملك بينما انطلقت روزالين لزيارة النساء السعوديات ، اللائى لم ار ايا منهن على الاطلاق اثناء هذه الرحلة أو غيرها من الرحلات الى هذه البلاد. وقد كن فى معسكر مختلف تماما ، فوق الكثبان الرملية وبمنأى عن الانظار .

وكنت قد عرفت فهد بن عبد العزيز آل سعود لسنوات عديدة وتشاور معه عندما كنت رئيسا للجمهورية فى كل من واشنطن والعربية السعودية . ثـم اصبح أقوى ولى عهد . كان مسئولا عن القيام بمهام دولية عديدة خصه بهـــا أخوه غير الشقيق الملك خالد . وكان كل من الرجلين من أعضاء أسرة ســـعود الملكية ، التى حكمت أجزاء من شبه الجزيرة العربية لما يقرب من قرنين ونصف القرن . وكانت السعودية تشكل طرقا برية رئيسية تربط بين الهند والغرب ، منذ فترات بعيدة قبل ابحار السفن حول قارة أفريقية . وكان حكامها العديدون يتمتعون بالغنى والقوة . وبرغم ندرة السجلات التاريخية ، فلا يخفى علينا قصة ملكة سبأ ، التى أتت من العربية السعودية لزيارة الملك سليمان ملك اسرائيـــل الاكثر قوة فى حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد . وقد ترتب على ذلك أن اتبع بعض العرب الديانة اليهودية ، وقد تأسست مملكة يهودية فى الركن الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة ، وتحول كثير من الناس فى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد الى المسيحية . وتاريخ الاقليم تشوبه الفوضى بسبب الصراعـــات السياسية والدينية الكثيرة التى أسفرت عن تغييرات مستمرة فى القيادة وفى أشكال الانحياز بين القبائل .

ثم ظهر النبى محمد ، الذى فكر فى توحيد القبائل العربية داخل دولة الاسلام وعمل الخلفاء الذين خلفوه بعد مماته فى عام ٦٣٢ بعد الميلاد على مد حكم الاسلام الى دمشق فى عام ٦٣٥ ، والى القدس فى عام ٦٣٨ ، والى الاسكندرية فى عام ٦٤٢ ، وبلاد فارس فى عام ٦٤٣ . وامتدت العقيدة ، بعد ذلك صوب الغرب الى أسبانيا والشرق حتى الهند . وفى خضم هذا التوسع ، أصبحت دمشق ، وبغداد

بعد ذلك ومدن اخرى المراكز المسيطرة وتقلصت العربية السعودية وتحولت الى مجرد مقاطعة ، وكانت أهميتها التى ظلت محتفظة بها تتمثل فى أن بها المدينتان المقدستان للاسلام ، مكة والمدينة . وطوال عدة قرون بعد ذلك ، كان يعـــاد تنظيم شبه الجزيرة العربية داخل الامارات العشائرية سريعة التغير .

وقد نجح عبد العزيز آل سعود ، والد خالد وفهد ، خلال السنوات الاولى من القرن العشرين ، فى توحيد مختلف أقاليم شبه الجزيرة معا تحت سلطانه، وفى عام ١٩٣٢ قام بدمجها معا فى شكل المملكة العربية السعودية . وقد أصبح بامكان الملك ، من خلال مزيج مناسب من القـــوة والتفــاهم ، والبعث الدينى والاصلاح الزراعى ،بالاضافة الى عدد كبير من الزيجات المخططة بعناية ،التغلب على اشكال الغيرة القبلية والصراعات ونجح فى أن يظهر بوصفه الزعيم المعترف به لمنطقه جغرافية مترامية الاطراف . وأدار شئون الحكم بكفاءة عظيمة حتى مماته فى عام ١٩٥٣ ، وخلفه بعد ذلك ابناؤه سعود ، ثم فيصل ، وخالد ، وفهد فى الوقت الراهـــــن .

لقد بدأ الانتاج التجارى للنفط فى العربية السعودية عام ١٩٣٨ ، ثم جلب بعد ذلك ثروة هائلة يكاد لا يمكن تصديقها الى جميع أولئك الورثة ورعاياهم . وقد تبوأت العربية السعودية ، مع اولئك الاغنياء مكان الصدارة فى القيـــــادة السياسية والاقتصادية ابان السبعينات ، مما فرض ضغطا كبيرا على العائلة الملكية . ومع ذلك ، فقد حافظوا على الاستقرار السياسى داخل المملكة وعملوا على تعزيز دور قيادتهم بدرجة كبيرة بين سائر العرب من خلال حــل خلافاتهم الداخلية بالتشاور السرى وداخل حجــــرات مغلقة ، وبتوزيع جزء من دخلهم البترولى ، والاستفادة من تفوقهم بوصفهم حراس للاماكن الاسلامية المقدسة . واستطاع الحكام السعوديين الحفاظ على توازن مقبول بين التحول الى مميزات الدولة الحديثة المادية والابقاء فى الوقت نفسه على درجة مناسبة من الالتزام الدينى . كما عوضوا أيضا سلطتهم المطلقة بتقارب ملحوظ الى رعاياهم .

وقد اخبرنى الملك خالد أثناء زيارتى الأولى للعربية السعودية أنه يفتح ابوابه كل يوم لعشرات المواطنين الذين يريدون رؤيته ، ويقدم لزواره الطعام والشراب . كما يسمح لنساء العائلة الملكية بعرض مشكلاتهم وطلباتهم عليه ، فى احدى الامسيات من كل اسبوع . وهو كثيرا ما يجوب صحراء المملكة بصحبة قافلة من الجرارات المتطورة التى تحمل مستشفى متنقل متكامل ويرحب شخصيا بمن يحتاجون العلاج الطبى . وحينما أبديت دهشتى بشأن الوقت الطويل الذى ينفق لهذه الاعمال الادارية الروتينية ، رد قائلا ان المملكة ما كان لها أن تبقـــى اذا ما تخلى زعماؤها عن هذا الالتزام الخاص بالخدمات الشخصية لابنائها .

وأثناء زياراتى الأولى برفقة أعضاء العائلة الملكية ، انتابنى احساس بالدهشة فى البداية والتشكك الى حد ما ، الا اننى اقتنعت بعد ذلك بالأهمية العظيمة للمعتقدات الدينية التى تصبغ تصريحاتهم العامة والخاصة وتحدد شكل تصرفاتهم ومواقفهم التفاوضية .

ويمكن للعائلة الملكية ، برغم سلطانها ونفوذها ، أن — تتمتع بمرونة اصدار القرارات العملية ، بيد انه من المفيد ادراك أن عقيدتهم الاسلامية هى الى حد بعيد أساس القوانين التى تحكم بلادهم ، ومنها تستمد شرعية وسلطة العائلة الملكية وحكمها ، واساس الدور القيادى الذى يقوم به السعوديون فى العالم الاسلامى .

وفى أواخر مايو ١٩٧٧ ، حينما قام ولى العهد الامير خالد بأول زيارة رسمية له للبيت الابيض ، أعددنا عشاء عمل لضيوفنا ، وكبار المسئولين بالادارة ، وللاعضاء البارزين بالكونجرس . وقد سأل أحد الامريكيين ، وهو رئيس مجلس النواب توماس (تيب) أونيل . السعوديين كيف استطاعوا تحقيق مثل هذا النمو الاقتصادى السريع فى بلادهم بلا ظهور واضح لقوى ثورية ، كما يلاحظ فى سائر الامم المتدينة المحافظة التى تشهد تغيرا سريعا .

رد ولى العهد بأفضل تفسير يوضح مدى التأثير الراسخ للعقيدة الدينية فى ابناء أمته . فقال ان السعوديين لم يكن لديهم منذ أمد بعيد ضروريات الحياة التى كان ينعم بها مواطنو العالم الغربى ، الا أنه مع ظهور ثروتهم النفطية أصبحوا الآن قادرين على تحسين احوالهم المعيشية ، وتعليم ابنائهم واعداد مزيد من العمالة الدائمة من أجل المستقبل البعيد حينما تخفق احتياطيات النفط المستنفدة فى توفير احتياجاتهم الاساسية . كما أن تعاليم القرآن تحثهم على العيش المتواضع وكيفية التكيف مع دورة الرخاء والحرمان المادى دون أن يخضع اسلوب حياتهم الاساسى لتأثيرات خارجية . وقال أن الواجب الاعظم للعائلة الملكية هو التكيف مع ضغوط التحديث والحيلولة دون انتهاك الحضارة الغربية لتعاليم الاسلام . وقد تضرع أن يكون لمعتقداتهم الدينية على الدوام المقام الاول ، اذا ما نشب صراع لا يقبل المصالحة يوما ما . واردف قائلا ان زعماء العربية السعودية بشر وعرضة للخطأ مثل الآخرين ولكنهم يعرفون انه طالما ان الناس مقتنعون باستقامتهم الدينية ، فان العائلة الملكية ستظل محتفظة بولاء رعيتها . وقد تأثرنا جميعا تأثيرا عميقا بكلماته المترددة نوعا ما ولكنها بليغة .

وقد لاحظت منذ الحين أن السعوديين فى تصريحاتهم العلنية الخاصة بشرح فلسفتهم ،ومبادئهم السياسية ، والاوليات ومواقفهم من القضايا الدولية الراهنة ، نادرا ما يفوتون فرصة للتأكيد على مركزية مسئوليتهم

الخاصة فى حماية الاماكن الاسلامية المقدسة واعداد القيادة والدعم المالى والوحدة فى العالم الاسلامى .

والآن ، ونحن فى الصحراء ، تقدمت الى الخيمة المركزية ، فاستقبلنى الملك وابن أخيه ، وزير الخارجية الامير سعود الفيصل ، مرحبين ، وكانت أرضية الخيمة مغطاة بأبسطة شرقية ، وكانت هناك بعض الوسائد الاسطوانية التى يستند عليها عند الجلوس .ومع ذلك فقد طلب منى التوجه الى منزل متنقل مريب مكيف ومريح لاجراء مناقشاتنا .وقد كان من المقرر أن نلتقى ساعة أو نحو ذلك ثم تنضم وبقية المجموعة المرافقة لى الى شيوخ القبائل لتناول وجبة المساء ، ولكننى والملك خالد ختمنا حديثا واسع النطاق بعد أكثر من خمس ساعات . وقد بدأ الحديث بالشكوى من ضيقه الشخصى بسبب ضرورة الحد من استهلاكه من الشاى المحلى بالسكر . اذ أنه كان يستمتع من قبل باحتساء اربعين أو خمسين كوبا يوميا أثناء مشاوراته المستمرة تقريبا مع زائريه . وكان هذا يشكل العنصر الرئيسى فى نظام غذائى صارم فرضه عليه أطباؤه لتقليل وزنه ومداواته من العلل الجسدية الاخرى التى وصفها بأنها بسيطة وغير هامة نسبيا .

كان الملك أكثر تواقا لوصف شئون دولته الداخلية : كنواحى التقدم فى العمالة ، والتعليم ، والاسكان ، وحقوق المرأة والزراعة ، والنقل ، والدفاع والعلاقات السياسية المتمركزة حول العائلة الملكية . وقد لخص بالتفصيل برامج تنمية الخدمات والمهارات البشرية المتضمنة فى سلسلة من « الخطط الخمسية » المتتابعة . ثم أكد ، كما اعتاد السعوديون أن يفعلوا على نحو متكرر كثيرا منذ الثورة الايرانية ، على أن ذلك بهدف « تحديث » وليس « تغريب » مجتمعهم .

وقد بدا على سجيته بدرجة أكبر حينما حول دفة الحديث الى دور الدين فى حياة شعبه ، وهو الموضوع نفسه الذى ناقشناه فى البيت الابيض . واعترف بأن مبادىء القرآن الاخلاقية السامية لا تلتقى تماما فى مناسبات كثيرة مع مجريات شئونهم الدينية أو الدنيوية ، بيد أنه أكد على أن هذه المبادىء توجه علاقاته الشخصية مع زعماء القبائل ومع أقل رعاياه مرتبة . وقال ان العقيدة الاسلامية تعمل ، علاوة على ذلك ، على توفير الاساس المشترك الذى تحاول جميع الدول العربية من خلاله العمل على تسوية خلافاتهم وان تتفق معا حتى على أصعب القضايا وأكثرها مدعاة للشقاق .

وقد ابدى فهد أسفه لصورة العرب العامة السلبية فى الولايات المتحدة والدول الغربية الاخرى وما ترتب على ذلك من أفكار خاطئة عن بلاده وشعبه : حيث يعتقد أن قوة العربية السعودية ونفوذها ايما يعتمدان فقط على الثروة وأن حقول النفط هى أثمن ما تمتلكه ، وأن حكومة العائلة الملكية غير مستقرة أو

تفتقر الى تأييد رعاياها ، وان عربا آخرين اقل حظا والفلسطينيون على وجه الخصوص يمكن أن يذهبوا فى طى النسيان ، وأن التطورات الاقتصادية الخاطفة أو القضايا السياسية قد تطغى على الالتزامات والمبادىء التى تحكم منذ أمد بعيد الحكام فى عائلتهم . واكد من جديد أن شعبه قد عاش لأجيال بلا نفط وانه هو وقيادات أخرى يعدون العدة بشكل روتينى لمواجهة المستقبل عندما تستنفد احتياطياتهم تماما .

وقد أثنى على وجه الخصوص على موافقتى بيع طائرات اف-١٥ للعربية السعودية فى ١٩٧٨ وتزويده بطائرات الاواكس بأطقم أمريكية للانذار المبكر من هجمات جوية محتملة ضد بلاده عبر الخليج الفارسى . ولم يستطع فهد أن يفهم كيف يمكن للولايات المتحدة أو اى من حلفائنا الأوربيين الاعتراض على قوة دفاعية عسكرية سعودية مناسبة ، مطلوبة لحماية حدود بلاده الممتدة وغير الحصينة نسبيا . وأكد على أن توجه السعودية الثابت يتعارض مع الحاد العالم الشيوعى وأن ثمة رغبة طبيعية توجد بين مئات الملايين من المسلمين على سطح الأرض لأن يكونوا علاقات صداقة ويعملوا فى تناسق مع الديمقراطيات الغربية .

وقد عمل كل من الملك ووزير الخارجية على وجه الخصوص على ان أتبين أن حماية المدن الاسلامية المقدسة هى أكبر مسئولياتهم العسكرية ، وقد دفعانى الى فحص خريطة أشارا فيها الى المواقع الدينية والمسافات الطويلة التى تضمها بلادهم الواسعة نسبيا . اذ انه بالاشتراك فى حدود الخليج الفارسى الحيوية حيث تدور رحى الحرب العراقية الايرانية على أعتابهم ، ووجود قوى شيوعية فى بلدان مجاورة ، ولا يفصلها عن اسرائيل غير مسافة قصيرة لا تتجاوز بضعة أميال فقط ، فان العربية السعودية تعتبر نفسها محاطة بجيران غير جديرين بالثقة ومن المحتمل ان يكنوا لها العداء .

ان التزام السعوديين تجاه الأخوة العرب ، وخاصة تجاه الفلسطينيين الذين تعرضوا للتضحيات بصورة قاسية ، يعد أحد العناصر الأساسية فى تعزيز معتقداتهم الدينية وفى مساهمتهم فى ضمان السلام والاستقرار فى المنطقة وفى عام ١٩٧٧ ، حينما كنت اقوم باستكشاف كل درجة ممكنة من درجات المرونة مع زعماء الشرق الأوسط لاجراء مفاوضات ، كان السعوديون منفردين تقريبا فى اصرارهم فى كل مرة على أن الفلسطينيين لهم الحق فى دولة مستقلة . واوضح الملك فهد أن نظام تحويل النقد ، الذى يسمح للعمال الوافدين من دول فقيرة بارسال أجورهم التى يتحصلون عليها من العمل فى الدول الغنية الى وطنهم يوضح تماما الاعتماد المتبادل اقتصاديا بين الدول العربية ، واكد على أن الثقافة المشتركة والدين المشترك واللغة المشتركة والفرص التجارية قائمة بين شعوب العالم العربى .

وعلى اية حال ، فثمة ايضا قوى مركزية طاردة كثيرة تعمل على فرض عزلة على الشعوب العربية . ويعرب الزعماء السعوديون على الدوام عن ثقتهم التامة فى أنهم يستطيعون أنفسهم الاحتفاظ بثروتهم ، واستقرارهم ، ووضعهم كحماة للأماكن المقدسة ، بيد أنهم مدفوعون قسرا للنضال مع فلول مؤمنة فى دول أخرى فى خضم انقسامات دينية ثورية ، وغالبا ما يكون ذلك من أكثر الصراعات اراقة للدماء . وقد بحث الملك فهد الثورة الايرانية ، واحتلال مئات من المتطرفين الدينيين لأقدس المساجد فى مكة فى ١٩٧٩ ، — وعمليات النسف الأخيرة فى الكويت ، بوصفها تهديدات خطيرة على الاستقرار ما لم يكن هناك تخفيف للتوهج الثورى المضلل . ويرى أن الاردن يشعر باطراد بتهديد لكيانه الذاتى أو حتى لوجوده بسبب تفاقم الازمة الفلسطينية فى الاراضى المحتلة ، وان الرغبة فى احلال سلام وحل هذه القضية يهدد التزام الملك حسين تجاه قاعدة الاجماع العربى ، وهى القاعدة الاساسية للدبلوماسية السعودية ، وبسبب تلك التحديات تجاه الانسجام والاستقرار كان الدبلوماسيون السعوديون واضحين مثل غيرهم فى محاولاتهم للابقاء على استقلال لبنان وتخفيف حدة التوتر بين بيروت ودمشق . وقد عانوا فى هذه العملية ، مثل الاخرين ممن تحدوا هذا المستنقع السياسى،من نتائج الانتقام الارهابى من خلال اغتيال بعض دبلوماسييهم .وعلى اية حال ، فانهم يعتبرون ، طبقا لكلمات الامير بندر بن سلطان ، السفير السعودى لدى الولايات المتحدة وأحد المفاوضين الرئيسيين فى لبنان ، أن أحراز نجاح فى هذا الجهد ليس اكثر من مجرد ضمادة فى الاسعافات الاولية ما لم يتم التوصل الى حل شامل للصراع العربى — الاسرائيلى .

وفى ايران تحدى آية الله خومينى كافة الجهود الرامية الى حل مشكلة الحرب الطويلة والمكلفة للغاية بين بلاده والعراق ، بيد أن التهديد الأكبر المحتمل للاستقرار الاقليمى لا يكمن فى احتمال مهاجمة ايران لدول الخليج الفارسى الاخرى وانما فى تصديرها لحماس الشيعة الدينى والثورة السياسية الى نظم حكم اسلامية واكثر محافظة . ويمكن أن يكون ذلك بمثابة تحدى مباشر لحكومة الرياض ، التى تراسها العائلة الملكية السنية المسلمة .

وبرغم أن سوريا تدعم ايران الفارسية فى حربها ضد العراق العربية ، فانه لما يدعو الى الدهشة وجود اتجاه ودى نسبيا بين الزعماء السعوديين تجاه الاسد . اذ انهم اوضحوا لى انه تجرى مشاورات مستمرة على مستوى عال بين الرياض ودمشق وان ثمة تفاهما واضحا بشأن العلاقة بين البلدين حتى بما فى ذلك تورط سوريا فى حرب الخليج الفارسى .

والسعوديون يعترفون بذلك الانقسامات والحروب الخطيرة بين اشقائهم، بيد أنهم فى ردهم على الانتقاد الغربى ، كثيرا ما يشيرون الى النزاعات التى تتردى ما بين حروب أهلية حروب عالمية بين المسيحيين . ويؤكدون ، من خلال

الاعتراف بصعوبة التوصل الى اتفاق جماعى بين زعماء العرب على انـه يتعين عليهم جميعا أن يكونوا مستعدين لتقديم تنازلات جوهرية ، تترجـم احيانا فى الغرب على انها دليل ضعف ، أو مخادعة لان كلا منهم مجبر على تعديل خيار او رأى عبر عنه من قبل . ويصر السعوديون على أن أية محاولة من جانب الولايات المتحدة أو آخرين لزيادة تشتت العرب أو للحيلولة دون احلال وفاق بينهم انما تتعارض مع افضل المصالح الخاصة لكل من يرغب فى احـلال السلام والاستقرار .

وليس ثمة ريب فى أن السعوديين يودون احلال الاستقرار فى المنطقـة ويجاهدون باستمرار من أجل تحقيقه ، ومتى يكون هناك غياب أو انحـلال مطرد للوحدة العربية الشاملة ، كما كان الحال عبر السنوات العديدة الماضية، فان السعوديين يكونون أول من يهتم بذلك . وقد بدأ المصريون فى التـو ، بعد طردهم من المجالس العربية ، فى استعادة جزء من نفوذهم التوحيـدى السابق ، ولكن دون التخلى عن تعهدهم تجاه السلام مع اسرائيل أو روابطهم القومية بالغرب . وهـذا يعنى أن الليبيين والسوريين واليمنيين الجنوبيين مازالوا يشعرون بالازدراء ، أو على اقل تقدير بعدم الثقة تجاههم . حتى فى هذه الحالة الصعبة فان السعوديين يعملون فى هدوء على عـلاج أيـة تصدعات خطيرة فى الصفوف العربية .

ويعد الصراع بين القـوتين العظميين أيضا عنصرا مسببا للخـلاف بين العرب ، فالسوفيت يرغبون دائما فى توسـيع نطاق نفوذهـم فى المنطقة . وها هى سوريا معتمدة على نحو متزايد على السوفيت من أجل الأسـلحة والخبرة العسكرية ، ومجاهدو تحرير أفغانستان يناضلون ببسالة للحيلولـة دون الهيمنة السوفيتية الكاملة، وأثيوبيا ترحب فيما يبدو بآلاف من «المستشارين» الدائمين الكوبيين والسوفيت ، واليمن الجنوبى يعتبر داخل الحظيرة السوفيتية تماما ، واليمن الشمالى يوقع فى أكتوبر ١٩٨٤ معاهدة صداقة وتعـاون مع موسكو . وفى الوقت نفسه ، تتمتع الولايات المتحدة فى أغلب الاحيان بعلاقات طيبة مع سائر الحكومات العربية ، بيد أن الاجراء العسكرى غير المحتـك فى لبنان والاعلان عن « تحالف استراتيجى » أمريكى — اسرائيلى فى آواخر عام ١٩٨٣ أسفر عن قلق عميق بين أكثر أصدقاء أمريكا ولاءا من العرب . اذ أنه حينما ظهرت البوادر الاولى لهذا القرار ، وصفه السعوديون بأنه « مدمـر للغاية للعلاقات الوطيدة والدائمة بين الولايات المتحدة والعالم العربى » .

وبرغم الوجود السوفيتى فى أفغانستان ، والقلاقل والتهديدات على شبه جزيرتهم من جانب اليمن الجنوبى ، بل وحتى الحرب بين العراق وايران ، فان الزعماء السعوديين يعتبرون النزاع العربى — الاسرائيلى أهم العقبات الخطيرة لأى حل دائل للخلافات . وقد أعادوا الى ذاكراتى أن جميع حالات الانذار النووى

خلال الخمس عشرة أو العشرين سنة الماضية قد حدثت بسبب التطورات فى الشرق الاوسط ، وهم يعتبرون منطقتهم الى حد بعيد أكثر مكان محتمل لحدوث اية مواجهة عسكرية للقوتين العظميين فى المستقبل .

وبالاضافة الى التحديات الاخرى التى تواجه القيادة السعودية ، فـــان التأثير المجدى الكامن للثروة النفطية العربية يتضاءل . اذ انه حينما كانت تتدفق أموال الأوبك بلا قيود ، كان لدى الدول الرئيسية المنتجة للنفط أموال غير محدودة تقريبا لمساعدة الاشقاء العرب الآخرين ماليا أو التأثير عليهم ليكونوا اكثر تعاونا فيما يتعلق بالحفاظ على التوافق وتجنب أى نضال قد يعرض للخطر هذا الاقتصاد النامى على نحو مطرد . وقد انتهى الى حد ما زمن التحويل غير المحدود ، مـــع قيام الثورة الايرانية ، وحرب الخليج والانخفاض الحاد فى أسعار البترول العربى والطلب عليـــــه .

لقد كان من المسلم به ، فى الماضى بشكل عام ان الولايات المتحدة ستقوم بالدور الرئيسى فى العمل بين الاطراف المختلفة لدفع مزيد من الخطوات نحـــــو السلام وتسوية الخلاف . وعلى أية حال ، فقد اعرب الزعماء العرب عن تحديهم على نحو متزايد فى الشهور الأخيرة لهذا الأمر المسلم به اذ أنهم يعربون عـــن تشككهم علنا فى أن يكون الزعماء الأمريكيون على استعداد لمواجهـــــة النتائج السياسية الداخلية عند محاولة حث اسرائيل على التفاوض ، أو الانسحاب مـــن الاراضى المحتلة ، أو تنفيذ الالتزامات الاساسية الواردة فى قرار الامم المتحدة ٢٤٢ أو اتفاقيات كامب ديفيد .

ما هو شعور السعوديين تجاه الاسرائيليين ووجودهم ؟ انهم حذرون تماما عادة فى تعليقاتهم العلنية ، بيد انه مما لا ريب فيه أن الزعمـــــــاء السعوديون يشاركون اجماع المشاعر العربية تقريبا بالاستياء والعداء تجاه انتهاك اسرائيل للأرض التى كان يحتلها من قبل ويحكمها أشقاؤهم المسلمون . وهـــم يعتبرون الاحتلال الاسرائيلي لأى جزء من فلسطين مماثل لاحتلال الصليبيين ، الذيـــــن كانوا قادرين على مواصلة تواجـدهم الباهظ التكاليف والدموى والمحفـــوف بالمخاطر على فترات متقطعة زهاء قرن من الزمان على هذه الحافة الشرقية من البحر المتوسط » . وهم يعتبرون أن ذلك قلما حدث فى اى وقت على الاطلاق فى التاريخ حيث يتعين ضبط الانماط الثابتة لهذا الجزء من العالم الذى نعيش فيه

وقد اشار متحدث سعودى الى اسرائيل بوصفها « كيان مزروع » يعتمد على التنفس الصناعى الدائم والمفرط من الخارج ، ومع ذلك فهى غير مستعدة او غير قادرة على أن تصبح جزءا من المنطقة .

ويدرك السعوديون ، مع ذلك ، أن الرغبة الساحقـــة فى الاردن ومصر وكثير من الفلسطينيين المشردين انما تتمثل فى التحرك بسرعة أكبر قليلا مما حدث

فى مثال الصليبيين الذى استغرق مائة عام ، وقد أعربوا عن تاييدهم لحـــل النزاع المستمر باستمرار من خلال المفاوضات السلمية ، شريطة ألا تعـــرض النتائج المحتملة للخطر الحقوق الاساسية للفلسطينيين كما عبرت عنها قرارات الأمم المتحدة المختلفـــة .

وقد كان الملك فهد فخورا باعلان فاس ، الذى انبثق عن « بيـــان فهد » الذى قدمه فى أغسطس ١٩٨١ ،واعتبر هذه المشروعات العربية كأساس مناسب يمكن أن يقوم عليه احراز مزيد من التقدم نحو السلام . وبرغم أن العبارات التى صيغت فى فاس تبدو من وجهة النظر الغربية عامة للغاية ويصعب حل رموزها، فان السعوديين لا يرون سوى خلافات ضيقة بين هذا الاعلان ، وبين بيان ريجان الذى سبقه باسبوع واحد . وقد قال الأمير سلطان مؤخرا فى احدى المقابلات « اننى لا أعتقد أن ثمة دولة عربية تود الدخول فى حرب مباشرة مع اسرائيل . وقد أعلن العرب رأيهم فى قمة فاس . وهم الآن يريدون ويرغبون فى سلام يقوم على الحق والعدل . ومازالت بوابة السلام مفتوحة والعمل فى هذا الاتجـــــاه مستمـــــر .

وبرغم النفوذ الواضح الذى يتمتع به القادة السعوديين ، فليس ثمـــة ريب فى أن الامريكيين وكثيرين آخرين يتوقعون منهم الكثير جدا ويخفقون فى ادراك أو الاعتراف بأن السعوديين ، مع كل ثروتهم ومكانتهم ، لا يتمتعون بنفوذ مطلق فى الشرق الاوسط . وأنا أعلم أن الامريكيين توقعوا فى مناسبات عديدة مـــن أصدقائنا السعوديين « التخلى » عن بعض العرب الآخرين أو أن يكونوا أنفسهم زعماء جسورين عند المراهنة على قضايا ذات أهمية . فقد توقعنـــا منهم أن يهدئوا من أدانة العرب للسادات بعد مبادرته للسلام ، وأن يؤيدوا بقوة اتفاقيات كامب ديفيد ، ويحثوا الاردن والفلسطينيين على الانضمام الى محادثات السلام آنذاك مرة أخرى فى ابريل ١٩٨٣ ، وسوريا على قبول شروط اتفاقية الانسحاب بين اسرائيل ولبنان فى وقت لاحق من ذات العام . وغالبا ما كنا نصاب بالاحباط بل وبالغضب أحيانا ـــ حينما لا تتحقق توقعاتنا .

وكشخص يعرف السعوديين على نحو أفضل ، فمن الايسر فهم حذرهم فيما يتعلق بالتعامل مع المسائل المثيرة للجدل الى أبعد حد ، والسبب فى محـــدودية نفوذهم . اذ أن ـــ اتجاهات السعوديون نحو الدبلوماسية واسلوبهم السياسى المتحفظ انها شكلته ظروف وجودهم . فعدد سكانهم الاصليين صغيرا نسبيا ، وقوتهم العسكرية ليست قوة رئيسية ، وتحيط بهم دول مجاورة خطرها محتمل لايستطيعون أن يتحملوا اثارتها بدرجة كبيرة ،وقياداتهم ذاتها تستند على التفاهم وتشكيل اتفاق بين قادة مستقلين ومتقلبين فى عالم عربى منقسم على نفسه بدرجة كبيرة . وقد كنت أشعر بشكل ثابت تقريبا ، حينما كنت رئيسا للجمهورية أن أهدافنا الاساسية كانت متفقة مع اهداف القادة السعوديين وأنها تكاد تـــكون

مفيدة كلما امكن ذلك . وقــد أضيف أن السعوديين وكثيرين غيرهم يغالون فى تقدير نفوذ الولايات المتحدة بدرجة كبيرة وانهم لم يفهموا قط لماذا لا نستطيع « التخلى » عن أصدقائنا فى الشرق الأوسط متى كان ذلك ملائم لاغراضنا .

ويميل زعماء العربية السعودية الى كبح الميول تجاه احداث ثورة أو فوضى سياسية فى منطقتهم ، دون التخلى عن جوهر عقيدتهم الدينية أو أهداف العالم العربى المشتركة كما حددها فى الاونة الاخيرة الاتفاق الجماعى فى الرأى . وهم يؤثرون الاستقرار بين الانظمة القائمة ، والحلول الوسط حينما يتعرض الاجماع العربى للخطر ، واحلال السلام فى المنطقة ، والتوجه السياسى تجاه الغرب . أن السعوديين يعتبرون اسرائيل ككيان مثير للقلق والاضطراب يمكن التخلص منه فى النهاية ، فانهم قد يقدمون تأييدا ضمنيا ، فى الوقت نفسه ، لترتيب سلام يقوم على اساس قرار الامم المتحدة ٢٤٢ أو اعلان فاس ، الذى يعتبرونه وثيق الصلة بدرجة كبيرة من اتفاقيات كامب ديفيد أو لبيان ريجان كأساس للتفاوض.

ويستطيع الزعماء السعوديون ، بأسلوب حذر ، أن يكونوا قوة حاسمة ومفيدة فى الشرق الاوسط حينما يتبين أن نفوذهم يمكن أن يسفر عن تغيير من شأنه أن يعمل على احلال السلام والاستقرار فى المنطقة كبديل للحرب والاضطراب السياسى المستمـــر .

« المستقبـــل »

ليس ثمة حل سحرى للغز الشرق الاوسط . ومن العبث النظر الى القضايا المعقدة للغاية ووجهات النظر المتضاربة بأى درجة من درجات التفاؤل . فمنذ توقيع معاهدة السلام المصرية ــ الاسرائيلية ، أريقت دماء كثيرة بلا داع وتلاشت الآمال الخاصة باجراء مفاوضات للسلام . ومن المستحيل فى الوقت نفســه ، التخلى عن السعى من أجل السلام برغم العقبات التى لا يمكن تخطيها تقريبا .

والاسئلة التى يجب وضعها فى الاعتبار لا نهاية لها على وجه التتريب : فما هى الاحتمالات التى يخبئها المستقبل ؟ وما هى المتطلبات الأساسية للسلام وهل يمكن أن يكون هناك سلام ثابت نسبيا بحيث يعمل على مجرد دوام الظروف والاتجاهات الراهنة ؟ وهل سيرضى هؤلاء المضطهدون بالانتظار فى هدوء وسكينة من اجل تسوية سلمية مشكوك فيها فى المستقبل البعيد ؟ وهل يتعين أن يتدهور الموقف باطراد حتى تدفع أزمة اخرى بالاطراف المعنية الى التحرك ؟ وهل هناك توقع أفضل للنجاح من جهد دبلوماسى هادىء ومتواصل أو من تحـــــرك علنى وجسور تجاه المفاوضات ؟ وما هو الأساس المشترك القائم بالفعل الذى يتسنى للاطراف المتنافسة أن تبنى عليه مستقبلا أكثر أمنا ؟ بل والأكثر رعبا من ذلك كله، هل يمكن أن تؤدى الخلافات الراهنة الى استعمال أسلحة نووية أو الى مواجهة عسكرية مباشرة بين القوتين العظميين ؟ .

لقد أمضيت جزءا كبيرا من حياتى العامة فى التعامل مع تلك التساؤلات ، وقد تحادثت ، فى فترة حديثة جدا ، الى مئات من الشخصيات الموضوعية لكى أحصل على وجهة نظر أوســـع واكثر توازنا الى أقصى حد ممكن . ولقد كنت مقتنعا على الدوام فى أعظم الأوقات احباطا بالرأى القائل بأن شعوب المنطقة ــ بما فى ذلك حتى السوريين والاسرائيليين والفلسطينيين الذين لا يثقون تمامـا بخصوصهم ــ يريدون انجاح جهود السلام . وقد تكون اللغة الطنانة ومطالب جميع الاطراف قاسية ، بيد أن هناك نقاطا واضحة للاتفاق يمكن ان تكون بمثابة أساس لاحراز تقدم . ان المناقشات الخاصة مع الزعماء العرب تبشر بالأمـل بدرجة تفوق كثيرا اى تحليل لتصريحاتهم العلنية ، كما يسود فى اسرائيل عنصر معتدل قوى نادرا ما يلقى آذانا صاغية أو يحظى بالتقدير فى البلدان المجاورة .

والموقف فى الشرق الاوسط مازال مزعزعا بسبب عاملين حاسمين . الأول، هو أن العرب يرفضون منح اسرائيل اعتراف رسمى وصريح بالحق فى الوجود فى سلام داخل حدود آمنة محددة بوضوح . والثانى ، هو أن الاسرائيليين يرفضون الانسحاب من الاراضى المحتلة ومنح الفلسطينيين حقوقهم الانسانية الاساسية ، بما فى ذلك حق تقرير المصير .

ومن بين التعقيدات الأخرى : عدم وجود صوت فلسطيني رسمي وواضح ورفض كل من الطرفين الاشتراك فى محادثات للسلام بدون شروط مرهقة ، والوجود الدائم لقوات خارجية ، واستمرار اراقة الدماء فى لبنان بسبب النزاع الأهلى ، وكذا سياسة التوسع فى اقامة المستوطنات الاسرائيلية فى الأراضى المحتلة ، والتوترات بين مصر واسرائيل بسبب غزو لبنان ، والنفوذ المتزايد للسوفييت فى المنطقة ، الأمر الذى يعزز مقدرتهم على اعاقة اجراء مفاوضات ، والحرب الفظيعة المدمرة الدائرة بين ايران والعراق ، وظهور التطرف الاسلامى ، وعدم وجود أى جهد ممتد من قبل الولايات المتحدة لدفع السلام القائم على اتفاقيات تم التوصل اليها بالفعل .

أنها قائمة مهيبة — ولكن هناك أكثر من ذلك . فالقوى المضادة تميل الى أن تصبح أكثر راديكالية من خلال التكبر المصاحب للانتصار أو اليأس الناجم عن الهزيمة . وفى أية مواجهة ، تكون أكثر تصريحات القلة بذاءة هى تلك التى يتذكرها وينميها على الدوام أولئك الذين يحتقرون بعضهم البعض . فانعدام الأمان يولد جنون الارتياب ، وهذا يؤدى الى قمة القلق بين الاسرائيليين والفلسطينيين مما يحول دون أى تجاه اعتراف متبادل أو التخفيف من حدة الكراهية ، والتهديد بالفناء أو الحرمان من الهوية كشعب .

ان الشرق الأوسط غير مستقر ، ودائم التغير ، ومن الصعب التنبؤ بما قد يحدث داخل منظمة التحرير الفلسطينية وبين الفلسطينيين والعرب الآخرين ، وبين الفصائل السياسية الداخلية فى لبنان وبين تلك الجماعات والقوى العسكرية الخارجية ، وعلى شواطىء الخليج الفارسى ، وفى اسرائيل فيما يتعلق بسياستها فى الأراضى المحتلة . ومن المؤكد أن الضغوط الاقتصادية ، خاصة على اسرائيل سوف تتزايد . وهذه التغييرات يمكن أن تساهم اما فى تحقيق السلام أو اراقة المزيد من الدماء .

بل ان الهلع النهائى من التدمير المتبادل لا يمكن تصوره كلية . اذ انه من المفترض الى حد بعيد أن اسرائيل لديها أسلحة نووية أو القدرة على نشرها بسرعة وان السوفييت تعهدوا بحماية دولهم العميلة من هجوم كهذا بأية وسائل لازمة . فما الذى ستفعله الولايات المتحدة؟ انها لن تقف مكتوفة الأيدى اذا ما اشتعل الموقف فى الشرق الاوسط . وهذا مجرد احتمال بعيد ، بيد أنه من الجلي أن وصول أى طرف الى درجة اليأس من شأنه أن يعجل بحدوث مواجهة اقليمية أكثر خطورة مما حدث من قبل . ولا يجب ان يكون هناك مزيد من التأجيل اذا لم تضيع الفرص الحالية الى الأبد .

وبرغم الحاجة الواضحة الى حل الخلافات ، فان جهود السلام لا تحيا بذاتها ، ولا تعتمد على نفسها . فاسرائيل وغالبية نظم الحكم العربية أصبحت مشغولة على نحو متزايد بمشكلات داخلية ، تشمل بعث الهوية الدينية ، وظهور

آمال بين جمهور الناخبين الأكثر ثقافة ، وظهور طبقات متوسطة ، والخوف من مزيد من تدخل قوى خارجية بما فى ذلك القوتين العظميين ، والانخفاض الحاد فى عوائد النفط . وهذه العوامل سببت تلقا عظيما لبعض الدول العربية التى ركزت أكثر حتى الآن على الأمور الخارجية ، بما فى ذلك السلام مع اسرائيل والتوصل الى حل عادل للمشكلة الفلسطينية . ويتجه الزعماء العرب ، الآن ، الى تحرير أنفسهم من العبء الفلسطينى . وعلاوة على ذلك ، فقد أجبرت الأزمة الاقتصادية المتزايدة القادة الاسرائيليين على التركيز على الشئون الداخلية . كما تركت انتخابات عام ١٩٨٤ اسرائيل عاجزة الى حد ما فى مجال الدبلوماسية الدولية وربما غير قادرة على بدء اى تحرك جسور تجاه اجراء مفاوضات حقيقية مع السوريين ، او الاردنيين أو الفلسطينيين .

ومن الجلى أن الموقف غير مفعم بالأمل ، ولكنه ايضا ليس ميئوسا منه . اذا امكن حث الزعماء على التركيز على التقدم الذى تم احرازه بالفعل ونقاط الاتفاق العديدة القائمة الآن واستكشاف اى سبل جديدة ممكنة تجاه السلام .

لقد كنت والرئيس جيرالد فورد رئيسين مشاركين لمؤتمر حول الشرق الاوسط عقد فى جامعة اموری بأتلانتا ، بولاية جورجيا ، فى نوفمبر ١٩٨٣ . وقد دعونا كثيرين من رجالات السياسة الأمريكيين ممن ساعدوا فى اجراء المفاوضات خلال السنوات القليلة الماضية بالاضافة الى متحدثين رسميين بارزين من مصر ، والأردن ، وسوريا ، ولبنان ، والعربية السعودية ، والاتحاد السوفيتى . وقام خبير فلسطينى متخصص فى الشئون الفلسطينية بتحليل وجهات نظر شعبه ، وقدم نحو ستة من الاسرائيليين عرضا لكثير من الآراء التى كانت سارية فى بلادهم آنذاك . وقد دارت مناقشات حامية ، بما فى ذلك استجواب كل متحدث علنا منجانب الصديق والعدو . وقامت الأطراف كلها بفتح الجراح القديمة من جديد وفحصها ، الا أن ايا منها لم يخرج من اية محاضرة وهو يشعر بالغضب .

وقد امكن ، من خلال المحاضرات التى ادارها فى جو اكاديمى رئيسان سابقان للولايات المتحدة ، التحلل من التحفظات القديمة والاشتراك فى تبادل الآراء والمعلومات ، بل لقد كان هناك حتى فى خلال فترات الاستراحة بين المناقشات العامة تبادل مثمر ومتحرر اكثر للأفكار والآراء بين المشاركين . وقد كان من المثير رؤية باحثين ودبلوماسيين من القدس ، وتل أبيب ، ودمشق ، والقاهرة وعمان ، ومراكز جامعية وحكومية أخرى . وقد اصبح كل منهم متلهفا للتعرف على الآخر . وكان كثيرون منهم قد كرسوا حياتهم لدراسة اعمال بعضهم البعض ، بيد أنه لم تتح لهم فرصة للالتقاء على الاطلاق .

وقد تأثر القادة المجتمعون على وجه الخصوص بدرجة الاتفاق الجماعى التى وردت فى الاتفاقيات والقرارات التى أيدتها بالفعل مختلف الفصائل والدول، وأدركوا مدى قيمة هذا التفاهم كأساس لاجراء مفاوضات فى المستقبل . وفى نهاية المؤتمر طلبت مجموعة من كبار المتحدثين من الرئيس فورد ومنى نقل ما تم استخلاصه الى وزير الخارجية ،ومستشار الامن القومى ، والزعماء الديمقراطيين والجمهوريين فى كل من المجلسين بالكونجرس الامريكى . وقد استجبنا لمطلبهم فى غضون اسبوع واحد .

وكما راينا ، اقرت كل من اسرائيل والدول العربية العديد من قرارات الامم المتحدة وثيقة الصلة بالموضوع . فمازال قرار الامم المتحدة ٢٤٢ متداولا ويعد بمثابة الوثيقة الشاملة التى تقبلها معظم الحكومات فى الشرق الاوسط ، ومن خلاله تولدت مشروعات أخرى . ويدعو قرار الامم المتحدة ٣٣٨ ، الذى تم قبوله بوجه عام ، الى اجراء مفاوضات مباشرة بين الأطراف المتنازعة ، وهو يمثل اساسا هاما لمزيد من التقدم . ومازالت المعاهدة المصرية — الاسرائيلية دليلا حيا على انجازات الدبلوماسية والامكانيات التى مازالت قائمة ، برغم الانتقاد العنيف الموجه لها من مصادر عديدة . ورغم ما يجرى عادة من تأكيد لتباينات بين اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٨ ، واعلان فينيسيا الذى أصدرته الدول الأوربية عام ١٩٨٠ ، ومشروع فهد عام ١٩٨١ وبيان ريجان وقرار فاس عام ١٩٨٢ فانها تحمل فى طياتها عناصر هامة مشتركة يمكن التوسع فيها اذا تمت متابعتها باخلاص . ففى جميع الاتفاقيات والمقترحات الرسمية ، ثمة اتفاق على مبادلة الأراضى المحتلة مقابل الاعتراف المتبادل ، والأمن والسلام الحقيقيين . وحتى مع كل هذه التناقضات ، فان ذلك فى حد ذاته يعد بمثابة أساس مناسب لاجراء مفاوضات حقيقية بين الأطراف المعنية — شريطة أن يعربوا عن رغبتهم باخلاص فى السلام ، واستعدادهم للامتناع عن وضع شروط غير مقبولة ، واحترام الوثائق التى وقعوا عليها بأنفسهم من قبل . ويتعين أن يكون هناك عنصر الجسارة لكسر حالة الجمود القائمة ، وقبول محادثات السلام دون أى ضمان لما تسفر عنه من نتائج ، وكذا الشجاعة من جانب بعض الزعماء العرب للتخلص من الفيتو الفعال الخاص بالاجماع أو الاتفاق الجماعى .

وقد تم احراز تقدم ملموس بالفعل ، وتجلى ذلك فيما يلى :

* أثبت السادات انه من خلال المفاوضات الحقيقية مع اسرائيل ، يكون السلام والانسحاب من الاراضى المحتلة ممكنا .

* تم احترام معاهدة السلام عام ١٩٧٩ بين مصر واسرائيل واتفاقية الانسحاب السورى — الاسرائيلى عام ١٩٧٤ بدقة متناهية . وأجرى لبنان واسرائيل مفاوضات مباشرة . وثمة تاريخ طويل من التعاون بين الأردن

واسرائيل فى مسائل تتعلق بالضفة الغربية وغزة والفلسطينيين الذين يعيشون هناك . ولذا ، فان معظم الدول العربية المجاورة قبلت الوجود الدائم لاسرائيل كحقيقة لا جدال فيها ولم يطالبوا بعد الآن بانهاء دولة اسرائيل ، برغم استمرار وجود بقايا هذا الاحساس .

* حتى بين أؤلئك الذين يعترفون بحق المصير بالنسبة للفلسطينيين ، هناك اجماع متزايد على أن نوعا من الاتحاد الفيدرالى أو الكونفيدرالى قد يكون بمثابة ترتيب مقبول بين الأردنيين والفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة .

* قبل الجميع تقريبا المبدأ الخاص بايجاد فترة انتقالية بين الموقف الراهن غير المرض واتاحة الفرصة فى النهاية للشعب لتقرير مصيره فى مناخ من السلام .

وتبين لى فى أوائل ربيع عام ١٩٨٣ ان الملك حسين مستعد للتحرك تجاه اجراء محادثات للسلام تحت الاطار الشامل لقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ أو بيان ريجان ، واننى لمقتنع بأنه مازال يتطلع الى هذه الفرصة . ويجب توفير بعض المتطلبات الاساسية له حتى يتحرك : مثل ، استعداد واضح من جانب اسرائيل للتفاوض باخلاص ، ووجود دليل على عزم الولايات المتحدة على استئناف عملية السلام ، وموافقة ضمنية على الأقل من جانب العربية السعودية وربما بعض العرب المعتدلين الآخرين ، وتفسير منطقى لتحدثه باسم الفلسطينيين . ولم يكن واضحا فى عام ١٩٨٣ التقاء أى من هذه المتطلبات الأساسية معا ، بيد أنه كان قادرا الى حد ما على التقدم بدونها . ومازالت هناك فرص لتحقيق هذه المتطلبات جميعا .

وبرغم أن بيجين وحكومته ممثلة فى الليكود رفضت على الفور الأفكار التى اقترحها الرئيس ريجان ، فقد استجاب كثيرون من الاسرائيليين أن لم يكن معظمهم على نحو ايجابى لانضام الاردن الى محادثات السلام مع مشاركة من ممثلين فلسطينيين وفقا للمبادىء العامة لقرار الامم المتحدة ٢٤٢ ، أو اتفاقيات كامب ديفيد ، أو بيان ريجان . ويمكن أن يكون ذلك ممكنا مع زعامة سوية فى واشنطن . اذ أن عقد حسين للبرلمان الاردنى الذى يمثل نصف اعضائه من فلسطينيى الضفة الغربية يعطى مؤشرا ما على أن ذلك قد يكون هو السبيل الذى يبحث عنه لعرض الموقف الفلسطينى فى محادثات السلام فى المستقبل . ولم يستطع حسين التوصل الى اتفاق نهائى مع اسرائيل بشأن القدس أو حتى الضفة الغربية وغزة ، ولكن فى الوقت الراهن وبعد أن استأنف الاردن علاقاته الدبلوماسية مع مصر ، فانه يستطيع المساعدة فى اتخاذ خطوات تقدمية تجاه اتفاق أكثر شمولا . فالملك حسين أضعف من أن تعتمد عليه توقعات السلام ، بيد أنه ما زال عضوا مشاركا ضروريا فى مفاوضات المستقبل . وقد تعمل التهديدات المتزايدة لوجود الاردن أو التخفيف من بعض مخاوفه

الحالية الى حفزه على القيام بهذا الدور الحيـوى .والاسـد يرفض مبـدأ اجراء مباحثات ثنائية بين اية دولة عربية منفردة واسرائيل ، ويبذل ما فى وسعه لمنعهما من ذلك ، الا انه أكد لى ولآخرين استعداده للتفـاوض مع اسرائيـل وأطراف أخرى معينة على أساس قرارى الامم المتحدة ٢٤٢ و ٣٣٨ . كما أن سوريا ايضا حريصة للغاية على مراعاة شروط اتفاقية الانسحاب عام ١٩٧٤ مع اسرائيل . ورغم انه لا يمكن التنبؤ بما قد يقـدم عليه الاسد ، فربما لا يتلقى دعم المحسنين اليه من السوفيت أو العرب اذا ما هدد بمهاجمة الاردن فى حالة توجه حسين الى مائدة المفاوضات .

واسرائيل قد ارتبطت بالتزامات اساسية بالنسبة للسلام كمـا أكدتهـا اتفاقية كامب ديفيـد ، وانسـحابها من سيناء ، وقرار الأمم المتحدة ٢٤٢ وغيره من القرارات التى اقرتها رسميا . وثمة بعض التوضيحات والتفسـيرات التى يتعين على العرب أن يجادلوا بشأنها ، بيد أن ذلك جزءا من اية عمليـة للتفاوض . كما أن حكومة الوحدة الوطنية برئاسة شيمون بيريز بذلت جهدا ، على الاقل خلال الشهور الاولى من الحكم ، لتحسين أحوال معيشة الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة . وترى القـاهرة بوضوح ارتباطا مباشرا بين احراز تقدم فى خطى عملية التطبيع بين مصر واسرائيل وبين التخلص من القيـود الادارية والسياسية المتعلقة بالفلسطينيين فى الاراضى المحتلة .

والواقع أن العرب ادركوا فى مشاوراتهم ومن خلال تصريحاتهم العـامة الحاجة الى التفاوض مع الاسرائيليين حتى يتوصلوا الى تسـوية سـلمية للخلافات . وبرغم أن الكلمـات الحذرة ليست واضحة ولا تهدىء من القلق والاستياء السائدين حتى أولئك الاسرائيليين الذين ينتظرون فرصة احراز تقدم نحو السـلام ، فان الزعماء العرب يقررون أن هذا الغموض والابهام هو الهدف الذى تسعى المفاوضات الى حله .

ويتعين أن تأتى المبادأة لمحادثات السلام من الولايات المتحدة ، باستثناء ما قد يظهر من أزمات صعبة قد تجبر اسرائيل على اللجوء الى الأمم المتحـدة وعقد مؤتمر دولى لحماية مصالحها وحتى فى ظل تلك الظروف غير المتوقعة ، فان الاشتراك المتعمق للولايات المتحدة سيكون الزاميا بالنسبة للمفاوضات .

ومع ذلك ، فقد أبدت ادارة الرئيس ريجان اهتماما ضئيلا بالدبلوماسية كوسيلة لحل النزاعات الاقليمية . وهو يميـل ، بعكس السـياسات التى انتهجها سابقوه الديمقراطيون والجمهوريون ، الى تفضيل التهديد أو استخدام القوات المسلحة الامريكية بدلا من التفـاوض . وقد كان هذا التفضـيل على وجه الخصوص مؤلما ومعوقا فى الشرق الاوسط ، اذ ان دبلوماسـية هنرى كيسنجر المكوكية أثنـاء حكم الرئيسين نيكسون وفورد ومحادثـات كامب ديفيـد فى ظل حكم ادارتى كانت لعدة سنوات مظهرا مثمرا وقيمـا على

مسرح الاحداث فى الشرق الاوسط . وفى ظل حكم ريجان ، بلغت عملية السلام حد التعثر المؤلم ، كما أن الهزيمة المفاجئة فى لبنان اضرت أو دمرت بعنف نفوذنا فى هذه المنطقة . وباستثناء خطاب واحد صيغ ببراعة فى سبتمبر ١٩٨٢ سرعان ما طواه النسيان فى واشنطن ، لم تكن ثمة جهود مدعومة لاحلال سلام فى المنطقة تتعامل مع الاسباب الاساسية لحالة العداء والحرب . ومع ذلك ، فقد بذلت بعض الجهود للمساعدة فى ترتيب انسحاب مرض للقوات الاسرائيلية من لبنان .

وليس ثمة ما يدعو الى الدهشة ، فى أن اجد اناسا فى الشرق الاوسط يدينون الولايات المتحدة بقسوة — لانها نشيطة للغاية فيما يتعلق ببنادقها وقواتها ، وعدم نشاطها بدرجة كافية على مائدة المفاوضات ، ولانها خاضعة تماما للاسرائيليين وتتمتع بحرية تامة فى بيع الاسلحة لجميع الاطراف ، ولانها تمنح ضماناتخاصة لزعماء ثم تغفل عنهم حينما تستفحل الضغوط المحتومة عليهم . وثمة انتقاد على نطاق واسع لواشنطن لكونها عاجزة عليهم . ولكونها فى نفس الوقت تتمتع بسلطة مطلقة ولكنها جبانة أكثر من اللازم .

وبرغم هذا الانتقاد ، فما زال الجميع تقريبا يعترفون بأهمية دور الولايات المتحدة . فقد قال لى السفير والمفاوض الخاص فيليب حبيب ، اثر محاولته الفاشلة فى عام ١٩٨٣ لحل الخلافات بين لبنان واسرائيل وسوريا : « لم يقل لى اى شخص على الاطلاق فى جميع رحلاتى التى جبت فيها أنحاء المنطقة ، « ارجع الى وطنك أيها اليانكى (١) ، وانما كان الرد « امكث هنا أيها اليانكى ، واتفق معى » .

وقد كان معروفا عن الزعماء الأمريكيين ومتوقعا منهم لسنوات عديدة أن يمارسوا حدا أقصى من النفوذ باسلوب موضوعى ، غير متحيز لتحقيق سلام . وحتى تستأنف القيام بهذا الدور الحيوى يتعين على الولايات المتحدة أن تكون وسيطا موثوقا به ، وعادلا ومستقيما ، وغير متردد ، ومتحمسا ، وشريكا مع كل الاطراف ، وليس قاضيا لأى طرف . وبالرغم . أنه سيكون هناك حتما ميل فى بعض الأوقات نحو طرف أو آخر ، فان واشنطن تستطيع القيام مرة أخرى بدور الوسيط الشريف فى الأمد البعيد . وكما ثبت بالفعل ، فان أية مفاوضات ناجحة يتعين ان يشارك فيها الرئيس ووزير الخارجية مشاركة واضحة وكاملة .

ومهما يكن مدى تأهيل المفاوضين المعينين على مستوى السفراء ، فانهم ليسوا أكثر من مجرد رسل ومن غير المحتمل تماما ضمان نوع الاقتراحات أو التنازلات التى يقدمها رؤساء الحكومات الاخرى والتى يمكن ان تؤدى الى انجازات ملموسة .

---

(١) اليانكى : تعريف لاحد أبناء ولاية من ولايات الشمال الامريكية — المترجم

وثمة مبادىء واهدافا أمريكية محددة اما أنها كانت تاريخيا بمثابة الدليل المرشد للمفاوضين الامريكيين أو معترف بضرورتها الآن من أجل التوصل الى سلام شامل فى الشرق الاوسط ، وهى :

* ضرورة الحفاظ على أمن اسرائيل .

* ينبغى حل الخلافات بين الخصوم بالوسائل السلمية ، وبالتأكيد بلا تدخل عسكرى سوفيتى أو أمريكى مباشر .

* يتعين التوفيق بين الاطراف من خلال التفاوض مع جميع أطراف النزاع ، على أن يمثل كل طرف تمثيلا عادلا وأن يكون له الحق فى المشاركة فى مناقشات حرة .

* ينبغى احترام سيادة الدول وقدسية الحدود الدولية لتجنب عملية اراقة الدماء المستمرة .

* التخلى عن الارهاب ، الذى يعمل على افساد مبادرات السلام ودوام العداء والقتال .

* ضرورة حماية حقوق الانسان ، بما فى ذلك الحقوق العامة المعترف بها فى دستور الامم المتحدة والقانون الدولى .

ويتضمن ذلك الحق فى تقرير المصير ، وحرية التعبير ، ومعاملة جميع الاشخاص على قدم المساواة ، والتحرر من المهيمنة العسكرية والسجن بدون محاكمة لمدة طويلة ، وحق الأسر فى لم شملها من جديد ، وحق الشعوب غير المتحاربة فى العيش فى سلام .

ان مواجهة القضية المثيرة للخلاف فى الشرق الاوسط ليست بالمهمة السهلة، اذ أنها محفوفة بالمخاطر السياسية . واستعداد الولايات المتحدة وأطراف التفاوض الآخرين لقبول هذه المخاطرة ومواجهة احتمال الفشل ، أو الرفض أو فقدان الشعبية يعد أحد العناصر المفقودة فى عملية السلام .

ولا يمكن حل النزاعات داخل اسرائيل والخلافات بين العرب بعضهم والبعض الآخر وبينهم وبين اسرائيل بلا اجراء مناقشات وجها لوجه للحد من البغضاء والتهديد بمواصلة أو تصعيد الحرب . والواقع أن البعض قد تجنب القضايا الخطيرة من خلال الاعتماد كثيرا على الجهود الدولية الجماعية كبديل لمبادرات السلام المباشرة . وتعتبر قرارات الأمم المتحدة والتصريحات التى تصدر من جانب واحد جميعها طيبة للغاية فيما صدرت بشأنه ولكنها ليست بديلا عن المفاوضات حول أكثر المسائل تحديدا واثارة للخلاف .

وليس ثمة ما يدعو دولة ما التخلى عن اهدافها الاساسية كشرط مسبق لاجراء المفاوضات ، وقد اعرب انور السادات عن الحد الاقصى لوجهات النظر العربية فى خطابه التاريخى أمام الكنيست الاسرائيلى (وهو نفس الخطاب الذى كان يمكن أن يلقيه الرئيس السورى حافظ الاسد دون تغيير كلمة واحدة أساسية) . وقد حافظ السادات على نفس الاهداف حتى مماته ، ولكنه ، فى الوقت نفسه ، خطى خطوة واسعة تجاه السلام بالنسبة لشعبه والعدل بالنسبة للفلسطينيين من خلال الاعتراف بالحاجة الى زيادة احراز تقدم من خلال المفاوضات .

والمشكلة الأساسية وأكثر المشاكل اثارة للخلاف هى ، بالطبع ، ما يمكن عمله بالنسبة للفلسطينيين ، الذين عاشوا اكثر من جيل كلاجئين أو لاكثر من سبع عشرة سنة فى ظل الاحتلال العسكرى المتواصل . ولا يمكن اجراء مفاوضات ناجحة لاحلال سلام دائم الا اذا شملت هذه المفاوضات الفلسطينيين . والمسئولون الامريكيون يعترفون بهذه الحقيقة حتى رغم انهم يرفضون الاعتراف أو التفاوض مباشرة مع منظمة التحرير الفلسطينية . وقد قال السفير حبيب « فى مجال السعى للتوصل الى سلام فى الشرق الاوسط ، لا يمكن التوصل الى حل بدون حل المشكلة الفلسطينية ... فالمشكلة الفلسطينية ، أيا كان تحديدك لها ، هى لب المشكلة » .

وأكد جورج شولتز هذا الاعتقاد فى جلسات استماع مصدق عليها بوزارة الخارجية . ومع ذلك ، فان الاعتراف بالمشكلة لم يؤد الى أية محاولات مستمرة لحلها .

ويتعين الا يغيب عن البال ان اتفاقيات كامب ديفيد ، التى وقعها السادات وبيجين ، والتى صدقت عليها الحكومات الموقعة ، والتى اقرها بيان ريجان عام ١٩٨٢ ، تطالب « بحكم ذاتى كامل » بالنسبة لسكان الاراضى المحتلة ، وانسحاب القوات الاسرائيلية وانهاء الحكم المدنى والعسكرى والاعتراف بالشعب الفلسطينى ككيان سياسى منفصل . وان يشارك الفلسطينيون انفسهم فى مزيد من المفاوضات ، ويعرض الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة » لكى يصوت عليه الممثلون المنتخبون من سكان الضفة الغربية وغزة . وعلاوة على ذلك ، فان الاتفاقيات اعترفت بصفة عامة بان استمرار معاملة غير اليهود فى الاراضى المحتلة بوصفهم طبقة ادنى من طبقات المجتمع يتعارض مع مبادىء الاخلاق والعدل التى تقوم عليها الديمقراطيات . لقد كان بيجين والسادات لفترة قصيرة ، على الاقل ، قادرين على أن يثبتا أن المشكلات الخاصة بحقوق الفلسطينيين التى تبدو غير قابلة لتذليلها يمكن التغلب عليها .

وقد مرت معاهدة السلام بين مصر واسرائيل حتى الآن . ببعض الاختبارات الشاقة : وتجلى ذلك فى وفاة السادات ، والانسحاب الاسرائيلى من سيناء ، والغزو الاسرائيلى للبنان . وهذا الارتباط القانونى فى حاجة الى تعزيزه لذاته

بوصفه مثالا للمزايا التى يمكن ان تسفر عن السلام . ويمكن لمصر أن تكون بمثابة جسر طبيعي بين مفاوضى السلام المحتمل وسائر العالم العربى ، وهو دور سيسعد القاهرة القيام به وستشجعه الولايات المتحدة تماما . ويسود ، فى الوقت الحاضر ، « سلام فاتر » بين مصر واسرائيل ، الا انه من المأمول والمتوقع أن يؤدى انسحاب القوات الاسرائيلية من لبنان واستئناف محادثات السلام طبقا لصيغة كامب ديفيد أو بيان ريجان الى تحسين العلاقات .

لقد كانت مشكلة الالفاظ حاضرة دائما ، حسبما أتذكر أثناء مناقشات كامب ديفيد الحامية الوطيس ، ولا يمكن التغلب على هذه المشكلة الا من خلال المفاوضات المخلصة . فعلى سبيل المثال ، يعد مبدأ « تقرير المصير » بالنسبة للفلسطينيين أمرا مفروغا منه بالفعل فى كل من اتفاقيات كامب ديفيد وفى بيان ريجان ، الذى وافق عليه كثير من العرب . وقد فسر بعض الاسرائيليين العبارة بأنها تحدد على وجه الحصر اقامة دولة فلسطينية مستقلة فى الاراضى المحتلة . بيد أن زعماء عرب كثيرين يتخيلون اقامة نوع من الاتحاد الفيدرالى بين الضفة الغربية وغزة والاردن . كما أثيرت مشكلة أخرى تتعلق بدلالات الألفاظ بشأن تفسيرات المعنى الأساسى لاتفاقيات كامب ديفيد وبيان ريجان الذى يتفق معها . وبالرغم من أن كثيرين من الزعماء الاسرائيليين الحاليين لم يصوتوا لصالح اتفاقيات كامب ديفيد ، فانهم يصرون الآن على أن « كامب ديفيد » هى الاطار الوحيد الذى سيتفاوضون من خلاله ، ومع ذلك فان عنوان « كامب ديفيد » غير مقبول بالنسبة للملك حسين كأساس لمحادثات سلام محتملة .

وثمة مشكلة أخرى صعبة تتعلق بتأثير الاتحاد السوفيتى على احتمال استئناف محادثات السلام فى الشرق الاوسط ، كما أن هناك عدم اتفاق فى الراى بشأن ما ستفعله سوريا .

ويبدو أن الدور الذى سيقوم به اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية هو البقاء ، والتجنب والافساد ــ البقاء فى المنطقة ، وتجنب أية مواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة ، والحيلولة دون بذل أى جهد للتوصل الى تسوية سلمية دائمة يستبعد منها الكرملين . وقد تمثلت احدى النتائج غير الملائمة للحرب اللبنانية الاخيرة فى أنها عملت على تعزيز مقدرة السوفيت بصورة أساسية لتحقيق تلك الاهداف . وبلغ نفوذ السوفيت الآن فى الشرق الاوسط أعظم مستوى قبل قيام السادات بطردهم من مصر ، مستفيدين فى ذلك من أخطاء حكومة ريجان فهم مستقرون بشكل ثابت فى سوريا ، التى تدافع عن شكل من أشكال التفاوض تشارك فيه عدة دول من بينها الاتحاد السوفيتى ، كما يبدو متصورا وفقا لقرار الأمم المتحدة ٣٣٨ . وقد أعرب الاردن بل ومصر أخيرا ، بعد أن أصيبا بالاحباط من تخاذل الزعماء الامريكيين ، عن بعض الاتفاق مع هذا الاتجاه المحبذ لتعدد الدول . ومن الناحية الاخرى ، تتمثل الاستراتيجية الامريكية ــ الاسرائيلية فى

استبعاد الاتحاد السوفيتى من اية مفاوضات والى حصر سوريا فى مناقشات تتضمن الانسحاب من لبنان . وقد يعد البيان السوفيتى - الامريكى الصادر فى اكتوبر ١٩٧٧ اساسا لاشتراك سوفيتى محتمل فى المستقبل (ملحق ٣) .

كما يجب أن تنضم سوريا أيضا لعملية المفاوضات ، قبل امكان التوصل الى سلام شامل ونهائى ، لانها تمثل طرفا للمشكلة وطرفا للحل المحتمل . والزعماء السوريون لديهم مخاوف أمنية حقيقية ، الا انهم لا يريدون أن يصبحوا العوبة فى يد الاتحاد السوفيتى . ولديهم رغبة فى الحصول على معونة اقتصادية وتعاون من العالم الغربى . ومع ذلك ، فمن المحتمل عدم تلبية احتياجاتهم بدون الاعتراف بحقوق اسرائيل فى السلام والامن ، والموافقة على وجود لبنان حر ومستقل . ومن المحتمل الا يتعاون الرئيس الاسد فى أى وقت قريب فى جهد شامل للسلام ، كما ستستمر تهديداته بتقويض مثل هذه المحادثات . ومع ذلك ، فانه يمكن ، من خلال التزام أمريكى قوى لكل من المفاوضات والمفاوضين ، تجاهل تهديدات الاسد اذا لزم الأمر وانتظار فرصة أخرى لتحقيق سلام بين سوريا واسرائيل .

وهناك بعض المتطلبات الاساسية وبعض الاعتبارات التى قد تساعد فى عملية البحث عن حل دائم لنزاعات الشرق الاوسط وهى :

* يجب أن يعترف العرب صراحة وبالتحديد بأن اسرائيل حقيقة واقعة وأن لها الحق فى العيش فى سلام ، خلف حدود آمنة ومعترف بها . واستنادا الى ذلك ، يجب ان يحل الخلاف الداخلى داخل اسرائيل لتحديد حدود اسرائيل الدائمة .

* يجب أن تؤكد اسرائيل من جديد استعدادها للانسحاب من الأراضى المحتلة ، وفقا لما يطالب به قرار الأمم المتحدة ٢٤٢ وأن تصادق من جديد على اتفاقات كامب ديفيد . ويمكن القيام بذلك على مراحل ، الأمر الذى قد يسمح بدرجة من الثقة المتبادلة والكاملة فى غضون وقت محدد طبقا لما تحدده المفاوضات .

* يجب الاعتراف بالحقوق الانسانية للفلسطينيين ، بما فى ذلك الحق فى تقرير المصير . وذلك من شأنه ان يفتح الباب أمام امكانية اقامة اتحاد كونفدرالى بين الفلسطينيين والاردن .

* ينبغى الا يكون التركيز على لبنان على حساب عملية سلام نشطة . ويجب أن يكون هناك جهد متزامن (أو فى اتجاهين) : لحل الازمات الراهنة مثل أزمة لبنان ولحل الاسباب الاساسية لنزاع الشرق الاوسط . وهما لا يتعارضان مع بعضهما البعض ولكنهما مرتبطان ببعضهما البعض على نحو لا ينفصم . ولا ينبغى السماح للرافضين بأن يحولوا دون التحرك نحو الاعتراف

باسرائيل وبأمنها أو نحو منح الفلسطينيين حق تقرير المصير عن طريق خلق الازمات أو العمل على دوامها .

* ينبغى الغاء شروط اجراء المفاوضات : فبالرغم من عدم الاعتراف بها ، فانها حقيقة واقعة مثال ذلك : « يجب ازالة جميع المستوطنات الاسرائيلية قبل ان نتفاوض » .

« لن تتم محادثات سلام حتى تخرج اسرائيل (سوريا) من لبنان » .
« لن نتفاوض الا فى اطار كامب ديفيد (قرار الامم المتحدة ٢٤٢ ، قرار فاس ، مشروع ريجان) » . ينبغى (لا ينبغى) تواجد منظمة التحرير الفلسطينية » .
يجب أولا ازالة التهديدات الموجهة ضد بلادى من داخل لبنان » .

* ان الحل الوسط أمر ضرورى من جانب كل من الطرفين فى اية مفاوضات . اذ يجب أن يتمتع كل مشارك (فى المفاوضات بحرية السعى لتحقيق غاياته الخاصة وأن يحظى ببعض التأكيد الواضح بأن تلك الآراء ستكون محل اعتبار . ويجب وضع فواصل واضحة بين ما تمليه احلامهم وايديولوجيتهم وما هو ممكن عمليا . اذ لن تستطيع اسرائيل اقامة مملكة داوود من جديد ، كما لن يستطيع الفلسطينيون امحاء اسرائيل من خريطة العالم . ولن يستطيع اى منهما أن يتنبأ أو يفرض على الآخرين النتيجة النهائية للمحادثات . وينبغى أن يعى كل منهما ان أى اتفاق يجب أن يكون اختياريا ومقبولا من الجانب الآخر .

* لكل من سوريا واسرائيل الحق فى أن تتوقع الا تتعرض اى منهما لهجوم من جانب قوات احتلال اخرى من لبنان .

* لا يمكن توقع ان يأخذ الخصوم زمام المبادرة . اذ أن الكراهية وانعدام الثقة فى الشرق الاوسط متأصلتان أكثر مما ينبغى ، وكبرياء اى من الاطراف المتنازعة كذلك عظيم بدرجة لا تسمح بتقديم تنازلات كما أنه من المحتم تقريبا أن تلقى الدعوات التى لا تخفى عليهم الرفض .

* بدون قيادة أمريكا ، يعد المؤتمر الدولى وفقا لقرار الامم المتحدة ٣٣٨ البديل المنطقى الوحيد ، ويكاد يصعب تخطى العقبات التى تعترض هذا الطريق نحو السلام . وقد تتمثل الخطوة الأولى الأفضل بالنسبة لوزير الخارجية الامريكى فى استكشاف الخيارات بصورة غير رسمية بين القوى المتنازعة للتحقق بقدر المستطاع من وجود اساس لاتفاق محتمل . وفى هذا المجال يمكن البدء فى اجراء محادثات شبه رسمية ثم رسمية بعد ذلك ، اما فى شكل مؤتمر تشارك فيه عدة دول أو محادثات ثنائية . وبدون انتهاك تعهد كيسنجر للاسرائيليين يمكن للمسئولين الامريكيين تحديد مدى استعداد منظمة التحرير الفلسطينية لمتابعة محادثات السلام دون الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية أو التفاوض معها .

ويتعين على الولايات المتحدة في اية جهود للسلام في المستقبل أن تقنـــم كلا من العرب والاسرائيليين ، قولا وفعـــلا ، بانها تعتزم أن تكون عادلة وغير متحيزة تجاه جميع الاطراف .

ويتعين على الولايات المتحـدة أن تكون مستعدة ، عندما تتطـور عمليـة المفاوضات بصورة مبشرة ، الانضمام للآخرين (بما في ذلك الاوربيين واليابانيين) في تقـديم الحوافز الاقتصادية اللازمة لدعم التفـاهم الذي سيكون هشـــا في البداية ، وأن تكون مستعدة لمساعدة صانعي السلام على اتقاء خطر الراديكاليين والمتطرفين الذين سيسعون لتقويض ما يتم عمله وتطويره بعناية .

وفي التحليل النهائي ، فان مختلف الشعوب في الشرق الاوسط لديهـــا وجهات نظرها ، وشكاواها ، وأهدافها ، وآمالها الخاصة بها . بيد أن اسرائيل ما زالت هي المفتـــاح ، والدوامة الصغيرة التي تدور حولها رياح الكراهية ، والتعصب ، واراقة الدماء . فما زال شعب اسرائيل الذي لا يقهـر يحـــاول تحديد ديمقراطيته الناشئة ـــ شخصيته الاساسية في الحاضر وفي المستقبل ، وحدوده الجغرافية ، والشروط التي يمكن بمقتضـــاها احترام الحقوق المشروعة للفلسطينيين وصياغة تســوية مع الدول المجاورة . وهذه القرارات الداخلية يتعين التوصل اليها بالتشاور مــع العـــرب الذيـــن لا يكنون شـــعورا بالود أساسا نحوها ، وهو الأمر الذي ربما يكون احتمالا سياسيا صعبا لم يشهد له التاريخ مثيلا .

ويسعى كثيرون من الاسرائيليين بشـــوق ، شأنهم في ذلك شأن جيرانهم ، الى درجة من التواجد المتطبع . ويتعين على العرب ان يعترفوا بالواقع ممثلا في اسرائيل تماما كما يتعين على الاسرائيليين أن يعترفوا بالمطالب الفلسطينية في المساواة في الحقوق المدنية وحقهم في التعبير عن انفسهم بحـرية في جزء من حدود وطنهم .

لقد ورد في الانجيل أنه حينما أريقت أول دماء بين ابنـــائه ، قال الرب لقابيل ، « أين هابيل أخـــوك » ؟ فقال « لا أعلم . أحارس أنا لأخي » . فقال : ماذا فعلت ؟ صوت دم أخيك صـــــارخ الى من الارض . فالآن أنت ملعون من الارض التي فتحت فاها لتقبل دم اخيك من يدك . (سفر التكوين ٤ : ٩ ـــ ١١) . وما زالت دماء ابراهيم الاب الروحي للشـــعب المختـــــار تنســـاب في شرايين العـــرب واليهـــود والمسيحيين ، والكثير منه أريق طمعا في أرث الاب المبجل في الشرق الاوسط . ان الدماء المسفوحة في الأرض المقدسة ما برحت تصرخ الى الله ـــ صرخة الم مبرح من أجل السلام .

ملاحـــق

١ ــ قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ ، الصادر فى نوفمبر ١٩٦٧ .

٢ ــ قرار الامم االمتحدة رقم ٣٣٨ ، الصادر فى اكتوبر ١٩٧٣ .

٣ ــ البيان السوفيتى الامريكى ، الصادر فى سبتمبر ١٩٧٧ .

٤ ــ اتفاقيات كامب ديفيد ، سبتمبر ١٩٧٨ .

٥ ــ خطاب الرئيس رونالد ريجان ، سبتمبر ١٩٨٢ .

٦ ــ بيان الزعماء العرب فى فاس ، بالمغرب ، سبتمبر ١٩٨٢ .

ملحق رقم (١)

قرار مجلس الامن التابع للامم المتحدة

رقم ٢٤٢ ، الصادر فى ٢٢ نوفمبر ، ١٩٦٧

ان مجلس الامن اذ يعرب عن قلقه المستمر للموقف الخطير فى الشرق الاوسط ، واذ يؤكد عدم جواز حيازة الارض بطريق الحرب ، والحاجة الى العمل من أجل سلام عادل ودائم تستطيع فيه كل دولة فى المنطقة أن تحيا فى أمن ، واذ يؤكد أيضا أن جميع الدول الاعضاء بقبولها ميثاق الامم المتحدة قد تعهدت بالالتزام بالعمل وفقا للمادة الثانية من الميثاق .

١ — يؤكد أن تطبيق مبادىء الميثاق يقتضى اقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الاوسط ينبغى أن يشمل تطبيق كل من المبدأين التاليين :

(أ) انسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من اراضى احتلت فى الصراع الاخير .

(ب) انهاء كل دعاوى أو حالات الحرب والاحترام والاعتراف بسيادة كل دولة فى المنطقة ووحدة أراضيها واستقلالها السياسى وحقها فى الحياة فى سلام داخل حدود آمنة معترف بها متحررة من التهديدات بالقوة أو باستخدام القوة .

٢ — يؤكد ايضا ضرورة :

(أ) ضمان حرية الملاحة عبر الطرق المائية الدولية فى المنطقة .

(ب) تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين .

(جـ) ضمان حصانة الاراضى والاستقلال السياسى لكل دولة فى المنطقة عن طريق اجراءات تشمل اقامة مناطق منزوعة السلاح .

٣ — مطالبة السكرتير العام بتعيين ممثل خاص يتجه الى الشرق الاوسط لاجراء اتصالات مع الدول المعنية من أجل تنشيط الاتفاق ومساعدة الجهود المبذولة لتحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفقا لاحكام ومبادىء هذا القرار .

٤ — مطالبة السكرتير العام بابلاغ مجلس الامن فى أسرع وقت ممكن بالتقدم فى الجهود التى يبذلها الممثل الخاص .

ملحق رقم (٢)

قرار مجلس الامن التابع للامم المتحدة

رقم ٣٣٨ الصادر فى ٢١ ــ ٢٢ اكتوبر ١٩٧٣

ان مجلس الأمن :

١ ــ يدعو جميع أطراف القتال الحالى بوقف كل اطلاق النيران وانهاء كل نشاط عسكرى فورا فى مدى ١٢ ساعة على الاكثر من اتخاذ هذا القرار ــ فى المواقع التى يحتلونها الان .

٢ ــ يدعو جميع الاطراف المعنية بالبدء فورا بعد وقف اطلاق النيران فى تطبيق قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ بكامله .

٣ ــ يقرر مجلس الامن ، أن تبدأ فورا وفى نفس الوقت مع وقف اطلاق النار المفاوضات بين الاطراف المعنية تحت اشراف مناسب تهدف الى اقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الاوسط .

❋❋❋

ملحق رقم (٣)

البيان الامريكى ــ السوفيتى المشترك حول

الشرق الاوسط الصادر فى نيويورك فى ١ اكتوبر ١٩٧٧

بعد تبادل وجهات النظر بشأن الوضع غير الآمن المستمر فى الشرق الاوسط ، يصدر وزير خارجية الولايات المتحدة سيروس فايس وعضو المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى ، ووزير الشئون الخارجية لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية أ . أ . جروميكو البيان التالى نيابة عن بلديهما ، اللتين ترأسان معا مؤتمر جنيف للسلام حول الشرق الاوسط :

١ ــ ان كلا الحكومتين مقتنعتان بأن المصالح الحيوية لشعوب هذه المنطقة ، بالاضافة الى مصالح تعزيز السلم والامن الدولى عامة ، تملى على وجه الاستعجال ضرورة تحقيق تسوية عادلة ودائمة للنزاع العربى ــ الاسرائيلى . ويجب أن تكون هذه التسوية شاملة ، تضم كل الاطراف المعنية

وجميع المشكلات . تعتقد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى أنه يجب حل كافة المشكلات المحددة الخاصة بالتسوية ، داخل اطار تسوية شاملة لمشكلة الشرق الاوسط ، بما فى ذلك المسائل الرئيسية مثل انسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من أراضى احتلت فى نزاع ١٩٦٧ ، وحل المشكلة الفلسطينية ، بما فيها تأمين الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ، وانهاء حالة الحرب واقامة علاقات سلمية عادلة على اساس الاعتراف المتبادل بمبادىء السيادة ، ووحدة الاراضى ، والاستقلال السياسى .

تعتقد الحكومتان ، بالاضافة الى التدابير الخاصة بتأمين أمن الحدود بين اسرائيل والدول العربية المجاورة كاقامة مناطق منزوعة السلاح ، والاتفاق على أن تتواجد فيها قوات او مراقبين تابعين للامم المتحدة ، أن الضمانات الدولية لهذه الحدود بالاضافة الى مراقبة شروط التسوية يمكن أيضا توفيرها اذا ما رغبت الاطراف المتعاقدة فى ذلك . ويبدى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة استعدادهما للمشاركة فى تلك الضمانات ، وفقا لعملياتهما الدستورية .

تعتقد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ان السبيل الوحيد الصحيح والفعال للتوصل الى حل جوهرى لكل نواحى مشكلة الشرق الاوسط برمتها هو المفاوضات داخل اطار مؤتمر جنيف للسلام ، المنعقد على وجه الخصوص لتحقيق تلك الاهداف ، مع مشاركة ممثلى جميع الاطراف المتورطة فى النزاع فى عمله بما فى ذلك ممثلى الشعب الفلسطينى ، واضفاء الصبغة الرسمية القانونية والتعاقدية على القرارات التى يتم التوصل اليها فى المؤتمر .

يؤكد اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية والولايات المتحدة عزمهما ، انطلاقا من اهليتهما كرئيسين معا لمؤتمر جنيف ، ومن خلال جهودهما المشتركة واتصالاتهما بالاطراف المعنية ، على تسهيل استئناف عمل المؤتمر بكل السبل فى تاريخ لا يتجاوز شهر ديسمبر ١٩٧٧ . ويلاحظ الرئيسان معا انه مازالت توجد هناك مشكلات عديدة ذات طابع اجرائى وتنظيمى يجب اتفاق المشتركين فى المؤتمر عليها .

٢ — استرشادا بالهدف الخاص بتحقيق تسوية سياسية عادلة فى الشرق الاوسط وانهاء الموقف المتفجر فى هذه المنطقة من العالم ، تناشد الولايات المتحدة واتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية جميع اطراف النزاع ادراك الحاجة الى أن يضع كل طرف منهما فى الاعتبار بدقة حقوق ومصالح الطرف الآخر المشروعة وأن يبدوا استعداد متبادلا للتصرف وفقا لذلك .

ملحق رقم (٤)

اطار السلام فى الشرق الاوسط

الذى تم الاتفاق عليه فى كامب ديفيد

الوثائق التى تمت الموافقة عليها فى كامب ديفيد

فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨

اجتمع محمد انور السادات ، رئيس جمهورية مصر العربية ، ومناحم بيجين ، رئيس وزراء اسرائيل ، مع جيمى كارتر ، رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، فى كامب ديفيد فى الفترة من ٥ الى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٧٨ ، واتفقوا على الاطار التالى للسلام فى الشرق الاوسط . وهم يدعون أطراف النزاع العربى الاسرائيلى الاخرى الى الانضمام اليه .

❋ ❋ ❋

مقدمة

ان البحث عن السلام فى الشرق الاوسط يجب أن يسترشد بالآتى :

ـ ان القاعدة المتفق عليها للتسوية السلمية للنزاع بين اسرائيل وجيرانها هى قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بكل أجزائه (❋) .

ـ بعد اربعة حروب خلال ثلاثين عاما ورغم الجهود الانسانية المكثفة ، فان الشرق الاوسط مهد الحضارة ومهبط الاديان العظيمة الثلاثة ، لم يتمتع بعد بنعم السلام . أن شعوب الشرق الاوسط تتشوق الى السلام حتى يمكن تحويل موارد الاقليم البشرية والطبيعية الشاسعة لمتابعة أهداف السلام وحتى تصبح هذه المنطقة نموذجا للتعايش والتعاون بين الامم .

ـ ان المبادرة التاريخية للرئيس السادات بزيارته للقدس والاستقبال الذى لقيه من برلمان اسرائيل وحكومتها وشعبها ، وزيارة رئيس الوزراء بيجين للاسماعيلية ردا على زيارة الرئيس السادات ، ومقترحات السلام التى تقدم بها كلا الزعيمين ، وما لقيته هذه المهام من استقبال حار من شعبى البلدين ، كل ذلك خلق فرصة لم يسبق لها مثيل لا يجب اهدارها ان كان يراد انقاذ هذا الجيل والاجيال المقبلة من مآسى الحرب .

(❋) نصوص القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ ملحقة بهذه الوثيقة .

— ان مواد ميثاق الامم المتحدة والقواعد الاخرى المقبولة للقانون الدولى والشرعية توفر الآن مستويات مقبولة لسير العلاقات بين جميع الدول

— ان تحقيق علاقة سلام وفقا لروح المادة ٢ من ميثاق الامم المتحدة ، واجراء مفاوضات فى المستقبل بين اسرائيل واية دولة مجاورة مستعدة للتفاوض بشأن السلام والامن معها ، هو أمر ضرورى لتنفيذ جميع البنود والمبادىء فى قرارى مجلس الامن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ .

— ان السلام يتطلب احترام السيادة والوحدة الاقليمية والاستقلال السياسى لكل دولة فى المنطقة وحقها فى العيش فى سلام داخل حدود آمنة ومعترف بها دون التعرض لتهديدات أو اعمال عنف . وأن التقدم تجاه هذا الهدف من الممكن أن يسرع بالتحرك نحو عصر جديد من التصالح فى الشرق الاوسط يتسم بالتعاون على تنمية التطور الاقتصادى والحفاظ على الاستقرار وتأكيد الامن .

— ان الامن يتعزز بعلاقة السلام وبالتعاون بين الدول التى تتمتع بعلاقات طبيعية . وبالاضافة الى ذلك ، وفى ظل معاهدات السلام يمكن للاطراف ، على اساس من التبادل ، الموافقة على ترتيبات أمن خاصة مثل مناطق منزوعة السلاح ومناطق ذات تسليح محدود ، ومحطات انذار مبكر ووجود قوات دولية ، وقوات اتصال ، واجراءات يتفق عليها للمراقبة والترتيبات الاخرى التى يتفقون على أنها ذات فائدة .

اطــــار عمــــل

ان الاطراف اذ تضع هذه العوامل فى الاعتبار ، مصممة على التوصل الى تسوية عادلة وشاملة دائمة لصراع الشرق الاوسط عن طريق عقد معاهدات سلام يقوم على قرارى مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ لكل فقراتهما . والهدف من ذلك هو تحقيق السلام وعلاقات حسن الجوار . وهم يدركون أن السلام ، لكى يصبح سلاما دائما ، يجب ان يشمل جميع هؤلاء الذين تاثروا بالصراع اعمق تأثير . لذا فانهم يتفقون على ان هذا الاطار مناسب فى رايهم ليشكل اساسا للسلام لا بين مصر واسرائيل فحسب ، بل وكذلك بين اسرائيل وكل من جيرانها الآخرين ممن يبدون استعدادا للتفاوض على السلام مع اسرائيل على هذا الاساس . وان الاطراف اذ تضع هذا الهدف فى الاعتبار ، قد اتفقت على المضى قدما على النحو التالى :

(أ) الضفة الغربية وغزة :

١ — ينبغى أن تشترك مصر واسرائيل والاردن وممثلو الشعب الفلسطينى فى المفاوضات الخاصة بحل المشكلة الفلسطينية بكل جوانبها ، ولتحقيق هذا الهدف ، فان المفاوضات المتعلقة بالضفة الغربية وغزة ينبغى ان تتم على ثلاث مراحل :

(أ) تتفق مصر واسرائيل على أنه من اجل ضمان نقل منظم وسلمى للسلطة مع الأخذ فى الاعتبار الاهتمامات بالأمن من جانب كل الأطراف ، يجب أن تكون هناك ترتيبات انتقالية بالنسبة للضفة الغربية وغزة لفترة لا تتجاوز خمس سنوات . ولتوفير حكم ذاتى كامل لسكان الضفة الغربية وغزة ، فان الحكومة الاسرائيلية العسكرية وادارتها المدنية ستنسحبان وفقا لهذه الترتيبات بمجرد أن يتم انتخاب سلطة حكم ذاتى من قبل السكان فى هذه المنطقة عن طريق الانتخاب الحر لتحل محل الحكومة العسكرية الحالية . ولمناقشة تفاصيل الترتيبات الانتقالية ، فان حكومة الاردن ستكون مدعوة للانضمام للمباحثات على أساس هذا الاطار . ويجب أن تعطى هذه الترتيبات الجديدة الاعتبار اللازم لكل من مبدأ الحكم الذاتى لسكان هذه الاراضى واهتمامات الامن الشرعية لكل من الاطراف التى يشملها النزاع .

(ب) أن تتفق مصر واسرائيل والاردن على وسائل اقامة سلطة الحكم الذاتى المنتخبة فى الضفة الغربية وقطاع غزة . وقد تضم وفود مصر والاردن فلسطينيين من الضفة الغربية وغزة أو فلسطينيين آخرين طبقا لما يتفق عليه. وستتفاوض الاطراف بشأن اتفاقية تحدد مسئوليات سلطة الحكم الذاتى التى ستمارس فى الضفة الغربية وغزة وسيتم انسحاب للقوات المسلحة الاسرائيلية وسيكون هناك اعادة توزيع للقوات الاسرائيلية التى ستبقى فى مواقع أمن معينة وستتضمن الاتفاقية أيضا ترتيبات لتأكيد الامن الداخلى والخارجي والنظام العام . وسيتم تشكيل قوة بوليس محلية قوية ، قد تضم مواطنين اردنيين . بالاضافة الى ذلك ، ستشترك القوات الاردنية والاسرائيلية فى دوريات مشتركة وفى تقديم الافراد لتشكيل مراكز مراقبة لضمان أمن الحدود .

(جـ) ستبدأ الفترة الانتقالية ذات السنوات الخمس ، عندما تقوم سلطة الحكم الذاتى (مجلس اذارى) فى الضفة الغربية وغزة . وستجرى المفاوضات فى أسرع وقت ممكن دون أن تتأخر عن العام الثالث بعد بداية الفترة الانتقالية، لتحديد الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة وعلاقاتها مع جيرانها ولابرام معاهدة سلام بين اسرائيل والاردن بحلول نهاية الفترة الانتقالية . وستدور هذه المفاوضات بين مصر ، واسرائيل والاردن والممثلين المنتخبين لسكان الضفة الغربية وغزة . وسيجرى انعقاد لجنتين منفصلتين ولكنهما مترابطتان فى احدى هاتين اللجنتين تتكون من ممثلى الاطراف الاربعة التى ستتفاوض وتوافق على الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة وعلاقاتها مع جيرانها ، وتتكون اللجنة الثانية من ممثلى اسرائيل وممثلى والاردن والتى سيشترك معها ممثلو السكان فى الضفة الغربية وغزة للتفاوض بشأن معاهدة السلام بين اسرائيل والاردن ، واضعة فى تقديرها الاتفاق الذى تم التوصل اليه بشأن الضفة الغربية وغزة . وسترتكز المفاوضات على أساس جميع النصوص والمبادىء لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . وستقرر هذه المفاوضات ، ضمن

أشياء أخرى ، موضع الحدود وطبيعة ترتيبات الامن . ويجب أن يعترف الحل الناتج عن المفاوضات بالحقوق المشروعة للشـــــعب الفلسطينى ومتطلباتهم العادلة ، وبهذا الاسلوب سيشارك الفلسطينيون فى تقرير مســـــتقبلهم من خـــــلال :

١ ــ الاتفاق فى المفاوضات بين مصر واسرائيل والاردن وممثلى السكان فى الضفة الغربية وغزة على الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة والمسائل الاخرى البارزة بحلول نهاية الفترة الانتقالية .

٢ ــ عرض اتفاقهم للتصويت من جانب الممثلين المنتخبين لسكان الضفة الغربية وغزة .

٣ ــ اتاحة الفرصة للممثلين المنتخبين عن السكان فى الضفة الغربيـــة وغزة لتحديد الكيفية التى سيحكمون بها أنفسهم تمشيا مع نصوص الاتفاق .

٤ ــ المشاركة ــ كما ذكر أعلاه فى عمل اللجنة التى تتفاوض بشــــأن معاهدة السلام بين اسرائيل والاردن .

٢ ــ سيتم اتخاذ كل الترابير والاجراءات الضرورية لضـــــمان أمن اسرائيل وجيرانها خلال الفترة الانتقالية وما بعدها . وللمساعـــدة فى توفير مثل هذا الامن ستقوم سلطة الحكم الذاتى بتشكيل قوة قوية من الشرطـــــة المحلية . وتشكل هذه القوة من سكان الضفة الغربية وغزة . وستكون قوة الشرطة على اتصال مستمر بالضــــباط الاسرائيليين والاردنيين والمصريين المعينين لبحث الامور المتعلقة بالامن الداخلى .

(٣) خلال الفترة الانتقالية يشكل ممثلو مصر واسرائيل والاردن وسلطة الحكم الذاتى لجنة تعقد جلساتها باستمرار وتقرر باتفاق الاطراف صلاحيات السماح بعودة الافراد الذين طردوا من الضفة الغربية وغزة فى عام ١٩٦٧ مع اتخاذ الاجراءات الضرورية لمنع الاضطراب وأوجه التمزق . ويجوز أيضا لهذه اللجنة أن تعالج الامور الاخرى ذات الاهتمام المشترك .

(٤) ستعمل مصر واسرائيل مع بعضهما البعض ومع الاطراف الاخرى المهتمة لوضع اجراءات متفق عليها للتنفيذ العاجل والعادل والدائم لحــــل مشكلة اللاجئين .

(ب) مصر واسرائيـــــل

١ ــ تتعهد كل من مصر واسرائيل بعدم اللجوء للتهـــــديد بالقوة أو استخدامها لتسوية المنازعات . وأن أى نزاعات ستتم تسويتها بالطـــــرق السلمية وفقا لما نصت عليه المادة ٣٣ لميثاق الامم المتحدة .

٢ ــ يوافق الطرفان من أجل تحقيق السلام فيما بينهما على التفاوض باخلاص بهدف توقيع معاهدة سلام بينهما خلال ثلاثة أشهر من توقيع هذا الاطار ، بينما تتم دعوة الاطراف الاخـــــرى فى النزاع للتقدم فى نفس الوقت

للتفاوض وابرام معاهدات سلام مماثلة لغرض تحقيق سلام فى المنطقة . وان اطار ابرام معاهدة السلام بين مصر واسرائيل سيحكم مفاوضات السلام بينهما . وسيتفق الطرفان على الشكليات والجدول الزمنى لتنفيذ التزاماتهما فى ظل المعاهدة .

(جـ) مبادىء مرتبطة

١ — تعلن مصر واسرائيل أن المبادىء والنصوص المذكورة أدناه ينبغى أن تطبق على معاهدات السلام بين اسرائيل وبين كل من جيرانها مصر والادرن وسوريا ولبنان .

٢ — على الموقعين أن يقيموا فيما بينهم علاقات طبيعية كتلك القائمة بين الدول التى هى فى حالة سلام بعضها مع البعض الاخر . وعند هذا الحد ، ينبغى أن يتعهدوا بالالتزام بنصوص ميثاق الامم المتحدة ، ويجب أن تشتمل الخطوات التى تتخذ فى هذا الشأن على :

(أ) اعتراف كامل

(ب) الغاء المقاطعات الاقتصادية

(جـ) ضمان أن يتمتع مواطنو الاطراف الاخرى فى ظل سلطتهم القضائية بالحماية التى تكفلها الاجراءات القانونية المناسبة .

٣ — يجب على الموقعين استكشاف امكانيات التنمية الاقتصادية فى اطار اتفاقيات السلام النهائية بهدف المساهمة فى خلق جو من السلام والتعاون والصداقة ، الامر الذى يعتبر هدفهم المشترك .

٤ — يجوز تشكيل لجان للنظر فى الدعاوى التى ترفع لحسم متبادل لجميع المطالب المالية .

٥ — دعوة الولايات المتحدة للاشتراك فى المحادثات الخاصة بموضوعات متعلقة بشكليات تنفيذ الاتفاقيات واعداد جدول زمنى لتنفيذ تعهدات الاطراف .

٦ — دعوة مجلس الامن التابع للامم المتحدة للمصادقة على معاهدات السلام وضمان عدم انتهاك نصوصها . ودعوة الاعضاء الدائمين فى مجلس الامن للتوقيع على معاهدات السلام وضمان واحترام نصوصها . وكذا دعوتهم لمطابقة سياسة وتصرفات الاطراف مع التعهدات التى يحتويها هذا الاطار .

عن حكومة جمهورية مصر العربية :	انور السادات
عن حكومة اسرائيل :	مناحم بيجين
الشاهد على التوقيع :	جيمى كارتر
	رئيس الولايات المتحدة الامريكية

« اطار الاتفاق لمعاهدة سلام »

بين مصر واسرائيل

توافق مصر واسرائيل ، من أجل تحقيق سلام فيما بينهما ، على التفاوض بحسن نية توقيع معاهدة سلام فيما بينهما فى غضون ثلاثة أشهر من توقيع هذا الاطار .

وقد تم الاتفاق على :

أن يتم المفاوضات تحت علم الامم المتحدة فى موقع أو مواقع يتفق عليها الجانبان .

تطبق كافة مبادىء قرار الامم المتحدة رقم ٢٤٢ فى هذا الحل للنزاع بين مصر واسرائيل .

ما لم يتفق الطرفان على غير ذلك ، يتم تنفيذ بنود معاهدة السلام فى فترة تتراوح ما بين عامين الى ثلاثة أعوام من توقيع معاهدة السلام .
وقد وافق الطرفان على المسائل التاليـــة :

(أ) الممارسة التامة للسيادة المصرية حتى الحدود المعترف بها دوليـــا بين مصر وفلسطين تحت الانتداب .

(ب) انسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من سيناء .

(جـ) استخدام المطارات التى يتركها الاسرائيليون بالقرب من العريش ، ورفح ، ورأس النقب ، وشرم الشيخ للاغراض المدنية فقط ، ويتضمن ذلك استخدامها تجاريا من قبل كافة الدول .

(د) حرية المرور للسفن الاسرائيلية فى خليج السويس وقناة السويس طبقا لمعاهدة القسطنطينية عام ١٨٨٨ التى تنطبق على جميع الدول ، واعتبار مضايق تيران وخليج العقبة ممرات مائية دولية مفتوحة أمام الدول للملاحة أو الطيران دون اعاقة أو تعطيل .

(هـ) انشاء طريق بين سيناء والاردن بالقرب من ايلات مع كفالة حرية وسلامة المرور من جانب مصر والاردن .

(و) تمركز القوات العسكرية على النحو التالى :

تمركز القـــوات

(أ) عدم تمركز اكثر من فرقة عسكرية واحدة (ميكانيكية او مشـــاة) من القوات المسلحة المصرية داخل منطقة تبعد قرابة خمسين كيلو مترا شرقى خليج السويس وقناة السويس .

(ب) تتمركز قوات تابعة للامم المتحدة فقط وشرطة مدنية مسلحة باسلحة خفيفة لاداء المهام العادية للشرطة داخل المنطقة التى تقع غرب الحدود الدولية وخليج العقبة فى مساحة يتراوح عرضها ما بين ٢٠ و ٤٠ كيلو مترا .

(جـ) أن تتواجد فى المنطقة فى حدود ٣ كيلو مترات شرق الحدود الدولية قوات اسرائيلية عسكرية محدودة لا تتعدى أربع كتائب مشاه ومراقبون من الامم المتحدة .

(د) تلحق وحدات دوريات حدود ، لا تتعدى ثلاث كتائب ، بالبوليس المدنى للمحافظة على النظام فى المنطقة التى لم تذكر آنفا .

يتم التخطيط الدقيق لحدود المناطق سالفة الذكر وفقـــا لما يتقرر خـــلال مفاوضات الســـلام .

يجوز أن تقام محطات للانذار المبكر لضمان الامتثال لبنود الاتفاق .

تتمركز قوات الامم المتحدة فى المناطق التالية :

(أ) فى جزء من المنطقة التى تقع فى سيناء الى الداخل لمسافة ٢٠ كيلو مترا تقريبا من البحر المتوسط وتتاخم الحدود الدولية .

(ب) فى منطقة شرم الشيخ لضمان حرية المرور فى مضيق تيران ، ولا يتم ابعاد هذه القوات ما لم يوافق مجلس الامن التابع للامم المتحدة على ذلك باجماع أصوات الاعضاء الخمسة الدائمين .

بعد توقيع اتفاقية سلام ، وبعد اتمام الانسحاب المؤقت تقام علاقات طبيعية بين مصر واسرائيل تتضمن : الاعتراف الكامل ، بما فى ذلك قيام علاقات دبلوماسية واقتصادية وثقافية ، وانهاء المقاطعات الاقتصادية والحواجز أمام حركة السلع والاشخاص ، والحماية المتبادلة للمواطنين وفقا للقانون .

« الانسحاب المؤقت »

تنسحب جميع القوات الاسرائيلية خلال فترة تتراوح من ثلاثة الى تســـعة أشهر بعد توقيع معاهدة السلام شرقى خط يمتد من نقطة تقع شرق العريش الى رأس محمد ، ويتم تحديد الموقع الدقيق لهذا الخط بالاتفاق بين الطرفين .

عن حكومة جمهورية مصر العربية : انور الســـادات

عن حكومة اسرائيل : مناحم بيجـــين

الشـــاهد على التوقيـــع : جيمى كارتـــر

رئيس الولايات المتحدة الامريكية

ملحوظة : صدرت نصوص الوثائق فى ١٨ سبتمبر .

الخطابات الملحقة بالوثائق التى تمت
الموافقة عليها فى كامب ديفيد ، فى ٢٢ سبتمبر ١٩٧٨

١٧ سبتمبر ١٩٧٨

سيدى الرئيس :

اتشرف بأن ابغلكم بانه خلال الاسبوعين التاليين لعودتى الى اسرائيل سأطرح على البرلمان الاسرائيلى « الكنيست » مشروع قرار للبت فيه يتضمن الاجابة على السؤال التالى :

اذا تمت خلال المفاوضات الخاصة بابرام معاهدة سلام بين اسرائيل ومصر لتسوية جميع المشكلات المعلقة « هل تؤيدون اجلاء المستوطنين الاسرائيليين من المناطق التى يقيمون فيها شمال وجنوب سيناء ، أم انكم تؤيدون بقاء هؤلاء المستوطنين فى تلك الأماكن ؟ » .

ان التصويت على هذا السؤال — سيدى الرئيس — سيتم بحرية تامة بعيدا عن جميع تقاليد البرلمان المتبعة التى تقضى بأن يتقيد النائب برأى حزبه . ورغم أن الائتلاف الحكومى يحظى بتأييد ٧٠ نائبا من بين ١٢٠ نائبا هم كل أعضاء الكنيست ، ففى اعتقادى انه سيكون فى استطاعة كل عضو فى الكنيست سواء من المؤيدين للحكومة أو فى مقاعد المعارضة الادلاء بصوته بوحى من ضميره الشخصى .

المخلص

(توقيع)

مناحم بيجين

(الرئيس ، كامب ديفيد ، ثورونت ، مريلاند)

٢٢ سبتمبر ١٩٧٨

سيدى الرئيس :

ارفق طيه نسخة من الرسالة التى بعث بها الى رئيس الوزراء مناحم بيجين موضحا كيفية طرح قضية مستوطنات سيناء على الكنيست لاتخاذ قرار بشأنها فى وقت لاحق .

وفيما يتعلق بهذه القضية ، فاننى افهم من رسالتكم ان موافقة الكنيست على اجلاء جميع المستوطنين الاسرائيليين من سيناء طبقا لجدول زمنى خلال الفترة المحددة لتطبيق معاهدة السلام تعتبر شرطا مسبقا لاية مفاوضات من أجل ابرام معاهدة السلام بين مصر واسرائيل .

المخلص

(توقيع)

جيمى كارتر

المرفقـــات : خطاب من رئيس الوزراء بيجــين .

(سيادة الرئيس انور السادات ، رئيس جمهوريـــة مصر العربيـــة ، القـــاهرة) .

١٧ سـبتمبر ١٩٧٨

سيدى الرئيس

الحاقا باطار التسوية فى سيناء الذى ينبغى التوقيع عليـــه هذا المساء ، أود ان أؤكد من جديد موقف جمهورية مصر العربية بشـأن المسـتوطنات :

١ ــ يجب اجلاء جميع المستوطنين الاسرائيليين من سـيناء طبقـــا لجدول زمنى خلال الفترة المحددة لتطبيق معاهدة السلام .

٢ ــ ان موافقة حكومة اسرائيل ومؤسساتها الدستورية على هذا المبدا الاساسى تعتبر بنـــاء على ذلك شرطا مســبقا لبـــدء مفاوضـات الســلام التى تستهدف الوصول الى معاهـــدة سلام .

٣ ــ فى حالة فشل اسرائيل فى الوفاء بهذا الالتزام ، فـــان « اطار » التسوية سيكون لاغيا وغير قائــم .

المخلص

(توقيع)

محمـــد انور الســادات

(سيادة الرئيس جيمى كارتر ، رئيس الولايات المتحدة الامريكية) .

٢٢ سـبتمبر ١٩٧٨

سيدى رئيس الوزراء

لقد تسلمت رسالتكم بتاريخ ١٧ سبتمبر ، توضحـون فيهـا كيف أنكم تنوون طرح قضية مستقبل المستوطنات الاسرائيلية فى سيناء علـى الكنيست لكى يتخذ بشأنها قرارا ومرفق هنا نسخة من رسالة الرئيس الســادات فى شأن هــــذا الموضوع .

المخلص

(توقيع)

جيمى كارتـــر

مرفقات : خطاب من الرئيس السادات .

(سيادة مناحم بيجين ، رئيس وزراء اسرائيل) .

١٧ سبتمبر ١٩٧٨

سيـدى الرئيس

اكتب اليكم لأعيد تأكيد موقف جمهورية مصر العربية بشأن القدس :

١ ـ تعتبر القدس العربية جزءا لا يتجزأ من الضفة الغربية . ويجب احترام واعادة الحقوق العربية الشرعية والتاريخية فى المدينة .

٢ ـ ان القدس العربية يجب أن تكون تحت السيادة العربية .

٣ ـ ان من حق السكان الفلسطينيين فى القدس ممارسة جميع حقوقهم الوطنية المشروعة ، بوصفهم جزءا لا يتجزأ من الشعب الفلسطينى فى الضفـة الغربيـة .

٤ ـ ان القرارات الصادرة من مجلس الامن ، وخاصة القرارين رقـم ٢٤٢ ورقم ٢٦٧ ، يجب أن تطبق بشأن القدس . وتعتبر كافة الاجراءات التى اتخذتها اسرائيل لتغيير وضع المدينة باطلة ويجب الغاؤها .

٥ ـ يجب أن تتوافر لجميع الشعوب حرية الوصول الى القدس وممارسة الشعائر الدينية وحق زيارة الاماكن المقدسة والمرور بها دون تمييز أو تفرقة .

٦ ـ يجوز وضع الاماكن المقدسة لكل دين تحت ادارة واشراف ممثلى هـذا الديـن .

٧ ـ ينبغى ان تبقى الوظائف الاساسية فى المدينة دون تقسيم . ويمكن اقامة مجلس بلدى مشترك يتكون من عدد متساوى من كل من العرب والاسرائيليين للاشراف على تنفيذ هذه الوظائف .

وبهذه الطريقة ، فان المدينة سوف تبقى دون تقسيم .

المخلص

(توقيع)
محمـد انـور السـادات

(سيادة الرئيس جيمى كارتر ، رئيس الولايات المتحدة) .

١٧ سبتمبر ١٩٧٨

سـيدى الرئيس

يشرفنى أن ابلغكم ، ياسيادة الرئيس ، بأن البرلمان الاسرائيلى (الكنيست) اصدر قانونا فى ٢٨ يونيو سنة ١٩٦٧ يقضى : « بأن يكون من سلطة الحكومة عن طريق مرسوم يصدره اخضاع أى جزء من أرض اسرائيل ـ فلسطين للقانون والقضاء والسلطة الادارية للدولة على النحو المبين فى المرسوم » .

وقد قامت حكومة اسرائيل ، على أساس هذا القانون باصدار مرسوم فى يوليو ١٩٦٧ ينص على أن القدس مدينة واحدة غير قابلة للتقسيم وانها عاصمة لدولـة اسرائيـل .

المخلص

(توقيع)
مناحـم بيجـين

(الرئيس ، كامب ديفيد ، ثورمونت ، ميريلاند) .

٢٢ سبتمبر ١٩٧٨

سـيدى الرئيس :

لقد تسلمت رسالتكم المؤرخة فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ ، والتى توضح الموقف المصرى بشأن القدس . وقد أرسلت نسخة من هذه الرسالة الى رئيس الوزراء مناحم بيجين لاحاطته علما بهـا .

ان موقف الولايات المتحدة بشأن القدس هو نفس الموقف الذى اعلنه السفير (آرثر) جولدبرج أمام الجمعية العامة للامم المتحدة فى ١٤ يوليو عام ١٩٦٧ ، وهو ما أكده من بعده السفير (تشارلز) يوست امام مجلس الامن التابع للامم المتحدة فى أول يوليو ١٩٦٩ .

المخلص

(توقيع)
جيمى كارتـر

(سيادة الرئيس انور السادات ، رئيس جمهورية مصر العربية ، القاهرة).

١٧ سبتمبر ١٩٧٨

سيــدى الرئيس

الحاقا « باطار السلام فى الشرق الاوسط » ، اكتب اليكم هذه الرســالة لاحيطكم علما بموقف جمهورية مصر العربية بشــأن تطبيق التسوية الشاملة .

لضمان تنفيذ البنود المتعلقة بالضفة الغربية وغزة ومن أجل حماية الحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى ، فان مصر سوف تكون على استعداد للاضطلاع بالدور العربى الذى تحدده هذه البنود بعد التشاور مع الاردن وممثلى الشعب الفلسطينى .

المخلص

(توقيع)
محمــد انــور السادات

(سيادة الرئيس جيمى كارتر ، رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، البيت الابيض ، واشنطن) .

٢٢ سبتمبر ١٩٧٨

سيدى رئيس الوزراء :

اننى اقر هنا بانكم احطمونى علما بما يلى :

(أ) انكم تفسرون وتفهمون عبارات « الفلســطينيين » أو « الشــعب الفلسطينى » الواردة فى كل فقرة من وثيقة اطار التسوية المتفق عليها باعتبار انها تعنى « عرب فلسطين » .

(ب) ان الحكومة الاسرائيلية تفهم تعبير « الضفة الغربية فى كل فقرة يرد فيها من وثيقة اطار التسوية على انه يعنى يهودا والسامرا .

المخلص

(توقيع)
جيــمى كارتــر

(سيادة مناحم بيجين ، رئيس وزراء اسرائيل) .

ملحـــق رقـــم (٥)

خطاب الرئيس ريجان الى الامــة

بشان الضفة الغربية والفلسطينيين أول سبتمبر ١٩٨٢

لقد كان اليوم من تلك الايام التى ينبغى أن نفخر بها جميعا . اذ انه يمثل الترحيل الناجح لمنظمة التحرير الفلسطينية من بيروت ، بلبنان . وما كان لهــذه الخطوة السلمية أن تتخذ على الاطلاق بدون المساعى الحميدة للولايات المتحدة وخاصة العمل البطولى الحقيقى للدبلوماسى الامريكى العظيم ، السفـــير فيليب حبيب . واننى اذ أشكر جهوده ، ويسعدنى أن أعلن أن فرقة مشاة البحـــرية الامريكية التى ساعدت فى الاشراف على عملية الترحيل قــد أتمت مهمتهــا . وسيخرج شبابنا من لبنان فى غضون السبوعين وقد خدموا ، أيضا ، قضية السلام بشرف ويمكن لنا جميعا أن نفخر بهم للغاية .

ولكن الموقف فى لبنان مجرد جزء من المشكلة الشاملة للصراع الدائر فى الشرق الاوسط . لذا ، وطوال الاسبوعين الماضيين ، وبينما كانت الاحــداث الدائرة فى بيروت تحتل الصفحة الاولى ، كانت أمريكا تعمل فى هدوء من وراء الكواليس لاعداد الاساس لسلام أوسع فى المنطقة . ولمرة ، لم تكن هنــــاك جهود ضائعة لم تكتمل . ذلك لان البعثات الدبلوماسية الامريكية توجهت الى عواصم الشرق الاوسط والتقيت هنا فى الولايات المتحدة وعدد كبير من الخبراء لوضع مبادرة امريكية للسلام من أجل شعوب الشرق الاوسط التى تعانى منذ أمد بعيد ، العرب والاسرائيليين على حد ســواء .

وقد بدا لى ، مع التوصل الى اتفاق فى لبنان ، ان امامنا فرصة لجهد أكبر للتوصل الى سلام فى المنطقة . وقد عقدت العزم على التمسك بها . وطبــقا لكلمات الكتاب المقدس ، لقد حان الوقت « لمتابعة الاشياء التى تصنع السلام » . وأود ان اعرض عليــكم مســاء اليوم ، الخطوات التى اتخذناها والاحتمــالات التى يمكن أن تسفر عنها لاحلال سلام عادل ودائم فى الشرق الاوسط .

ان امريكا ملتزمة منذ امد طويل باحلال سلام فى هذه المنطقة المضطربة . ولاكثر من جيل ، سعت الادارة الامريكية المتعاقبة لاستكشاف عملية عادلة وقابلة للتنفيذ يمكن أن تؤدى الى سلام عربى — اسرائيلى حقيقى ودائم . واسهامنــا فى البحث عن سلام فى الشرق الاوسط ليس مسألة خيار ، وانما هو ضرورة أخلاقية والاهمية الاستراتيجية للمنطقة بالنسبة للولايات المتحدة معروفة جيدا .

بيد أن سياستنا تحركها أمور تفوق المصالح الاستراتيجية . اذ علينا أيضا التزام لا يمكن نقضه تجاه بقاء ووحدة أراضى الدول الصديقة . ولا يمكننا تجاهل

حقيقة أن رفاهية الكثير من الاقتصاد العالم مرتبط بالاستقرار فى الشرق الاوسط الذى تمزقه الصراعات . وأخيرا ، فان اهتماماتنا الانسانية التقليدية تملى علينا بذل جهد متواصل لحل النزاعات سلميا .

وحينما تولت ادارتنا السلطة فى يناير عام ١٩٨١ ، قررت أن يتبع الاطار العام لسياستنا فى الشرق الاوسط الخطوط العريضة التى وضعها اسلافى .

كانت هناك مسألتان أساسيتان كان علينا بحثهما اولا ، كان هناك التهديد الاستراتيجي للمنطقة ممثلا فى الاتحاد السوفيتى وأعوانه ، الذى يتضح على افضل نحو فى الحرب الوحشية فى افغانستان ، وثانيا ، عملية السلام بين اسرائيل وجيرانها العرب . وفيما يتعلق بالتهديد السوفيتى ، عملنا على تعزيز جهودنا لكى نطور مع أصدقائنا وحلفائنا سياسة مشتركة لا عاقة السوفيت واعوانهم عن تحقيق مزيد من التوسع فى المنطقة واذا لزم الامر الدفاع عنها . وفيما يتعلق بالنزاع العربى ــ الاسرائيلى ، اعتنقنا اطار كامب ديفيد بوصفه السبيل الوحيد للتقدم . ومع ذلك ، فاننا نقر أيضا بأن حل النزاع العربى ــ الاسرائيلى ، نفسه وفى حد ذاته ، لا يمكن أن يضمن سلاما فى أرجاء منطقة واسعة ومضطربة كمنطقة الشرق الاوسط .

وكان هدفنا الاول طبقا لعملية كامب ديفيد هو ضمان الانجاز الناجح لمعاهدة السلام المصرية ــ الاسرائيلية . وتحقق ذلك بعودة سيناء سلميا الى مصر فى ابريل عام ١٩٨٢ . ومن اجل تحقيق ذلك ، عملنا بجد مع أصدقائنا المصريين والاسرائيليين ، وأخيرا مع الدول الصديقة لنا ، لتشكيل القوة متعددى الجنسيات التى تعمل الآن فى سيناء .

وطوال هذه الفترة من المفاوضات الصعبة التى استغرقت وقتا طويلا ، كان نصب اعيننا دوما على الخطوة التالية لكامب ديفيد ، ممثلة فى محادثات الحكم الذاتى لتمهيد الطريق للسماح للشعب الفلسطينى بممارسة حقوقه الشرعية . ومع ذلك ، وبسبب الاغتيال المأساوى للرئيس السادات والازمات الاخرى فى المنطقة ، لم يكن باستطاعتنا بذل جهد رئيسى حتى يناير ١٩٨٢ لاستئناف تلك المحادثات . اذ قام وزير الخارجية (الكسندر) هيج والسفير (ريتشارد) فيربانكس بثلاث زيارات لاسرائيل ومصر هذا العام لمواصلة محادثات الحكم الذاتى . وتم احراز تقدم ملحوظ فى تطوير الشكل الاساسى للمنهج الامريكى الذى سيقدم لمصر واسرائيل بعد شهر ابريل .

واقتنعنى الاتمام الناجح لانسحاب اسرائيل من سيناء والشجاعة التى ابداها رئيس الوزراء بيجين والرئيس مبارك فى هذه المناسبة فيما يتعلق

باحيــاء اتفاقياتهما ، بأن الوقت قـد حان لاتبـاع سياسة امريكيـة جديدة لمحاولة تخطى الخلافات الباقية بين مصر واسرائيل بشـأن عملية الحـكم الذاتى . ولذا ، فقد طالبت فى شهر مايو ، باتخاذ تدابير محددة ووضـع جدول زمنى للمشـاورات مـع حكومتى مصر واسرائيل بشأن الخطوات التـالية فى عمليـة السلام . ومـع ذلك ، وقبـل الشروع فى هـذا العمل ، احتل الصراع فى لبنـان مكان الصدارة فى جهودنا . وتوقفت محادثـات الحـكم الذاتى اساسا فيما كنـا نفكر فى فك اشتباك الاحزاب فى لبنـان وايقاف نار الحرب المستمرة . /

وقد اتاحت لنا حرب لبنان المأسوية ، فرصة جديدة للسلام فى الشرق الأوسط . وينبغى علينا أن ننتهز هذه الفرصة الآن ونعمل على احلال السلام فى هذه المنطقة المضطربة الحيوية للغاية بالنسبة لاستقرار العالم حيث مازال هناك متسع من الوقت لتحقيق ذلك . وباقتناع شديد منذ ما يزيد على شهر ، وقبل اتمام المفاوضات الحالية فى بيروت ، طلبت من وزير الخارجية (جورج) شولتز مراجعة سياستنا مرة أخرى والتشاور مع عـدد كبير من الأمريكيين البارزين حول افضل السبل لتعزيز فرص السلام فى الشرق الاوسط .

وتشاورنا مع كثير من المسـئولين ممن اشـتركوا على مـر التاريخ فى العملية ، ومع اعضاء من الكونجرس ، ومع شخصيات من القطاع الخاص ، واجريت مشاورات مكثفة مـع مسـتشاريى الخاصين حول المبـادىء التى سالخصها لكم الليلة .

لقد تم الآن ترحيل منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت ويمكننا أن نساند اللبنانيين الآن فى اعادة بناء بلادهم التى مزقتها الحرب . ويتعين علينا ، ولأجيال القادمة ، التحرك سريعا لتحقيق هذا الانجاز . اذ ان وجود لبنان مستقر ومزدهر من جديد أمـر جوهرى لجمـيع آمالنا بالنسـبة للسـلام فى المنطقة . وشعب لبنان يستحق بذل افضل الجهود من قبل المجتمع الدولى لتحويل احـلام السنوات العديدة الماضية المروعة الى فجـر جديد مشرق بالامـل .

بيد ان فرص السلام فى الشرق الاوسط لا تبدأ وتنتهى فى لبنان . فبينما نساعد لبنان على اعادة البناء ، ينبغى أيضا أن نتحرك لحل الأسباب الاساسية للصراع بين العرب والاسرائيليين .

وقد أوضحت الحرب فى لبنان كثيرا من الامور ، وثمة نتيجتان هامتان بالنسبة لعملية السلام :

الأولى : ان الخسارة العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية لم تقلص من توق الشعب الفلسطينى الى حل عادل لمطالبه .

الثانية : انه فى حين أن نجاح اسرائيل العسكرى فى لبنان قد أوضح أن قواتها المسلحة لاتدانيها قوة فى المنطقة ، الا انها لا تستطيع بمفردها تحقيق سلام عادل ودائم لاسرائيل وجيرانها .

والسؤال الآن هو كيف يمكن التوفيق بين مخاوف اسرائيل الأمنية الشرعية والحقوق المشروعة للفلسطينيين . والاجابة على هذا السؤال لايمكن أن تتم الا على مائدة المفاوضات . اذ ينبغى أن يدرك كل طرف أن النتيجة يجب أن تكون مقبولة للجميع وأن السلام الحقيقى يتطلب حلولا وسط من قبل الجميع .

ولذا ، فاننى ادعو الليلة لبداية جديدة . اذ أن هذه هى اللحظة المواتية لكل أولئك المعنيين مباشرة للاشتراك معا أو تقديم تأييدهم — لأساس عمل من أجل السلام . ومازال اتفاق كامب ديفيد يشكل أساس سياستنا . وصيغته تمنح جميع الاطراف المهلة التى يحتاجونها لاجراء مفاوضات ناجحة .

واننى أطالب اسرائيل بأن توضح أن الامن الذى تتوق اليه لا يمكن تحقيقه الا من خلال سلام حقيقى ، سلام يتطلب شهامة ، ورؤية وشجاعة .

وأطالب الشعب الفلسطينى بأن يدرك ان أمانيه السياسية مرتبطة على نحو لا ينفصم بالاعتراف بحق اسرائيل فى مستقبل آمن .

وأطالب الدول العربية بقبول واقع اسرائيل ، وحقيقة ان السلام والعدل لا يمكن تحقيقهما الا من خلال المفاوضات الجادة والعادلة والمباشرة .

ومع توجيه تلك المطالب للآخرين ، ادرك أن الولايات المتحدة عليها مسئولية خاصة . اذ انه لاتوجد دولة اخرى فى وضع يتيح لها التعامل مع الأطراف الأساسية للنزاع على أساس من الثقة والمسئولية .

وقد حان الوقت لأن تدرك جميع شعوب الشرق الأوسط الواقع الجديد . فدولة اسرائيل حقيقة واقعة ، وهى تستحق شرعية لا اعتراض عليها داخل مجتمع الأمم . ولكن شرعية اسرائيل حتى هذه النقطة لم يعترف بها الا عدد قليل جدا من الدول وانكرتها كل الدول العربية ما عدا مصر . ان اسرائيل قائمة ، ولها حق فى انتطالب جيرانها بأن يعترفوا بتلك الحقائق .

وأظهرت الحرب فى لبنان حقيقة أخرى فى المنطقة . اذ ان خروج الفلسطينيين من بيروت صور على نحو مأساوى اكثر من اى وقت مضى تشرد الشعب الفلسطينى . وينتاب الفلسطينيين شعور قوى بأن قضيتهم اكثر من مجرد مشكلة لاجئين . وأنا اتفق مع ذلك وقد اعترفت اتفاقية كامب ديفيد بهذه الحقيقة حينما تحدثت عن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ومطالبه العادلة . وبالنسبة لاحلال السلام ، فيجب أن يشمل ذلك جميع من تأثروا كثيرا بدرجة كبيرة بالنزاع . ولن يكون بمقدور اسرائيل الثقة فى ادراك ان جيرانها

سيحترمون أمنها ووحدة اراضيها الا من خلال اشتراك أوسع للفلسطينيين والأردن ، على نحو عاجل للغاية فى عملية السلام . فمن خلال عملية المفاوضات فقط يمكن لجميع دول الشرق الأوسط تحقيق سلام آمن .

تلك اذن هى أهدافنا العامة . فما هى المواقف الامريكية الجديدة ، ولم نتخذ هذه المواقف ؟

لقد كان لكل من مصر واسرائيل ، فى محادثات كامب ديفيد حتى الآن ، حرية التعبير صراحة عن وجهات نظرهما بالنسبة لما يجب أن تؤول اليه نتيجة تلك المحادثات . ومن المفهوم أن تختلف وجهات نظرهما حول كثير من النقاط .

وقد فكرت الولايات المتحدة عند هذا الحد فى القيام بدور الوسيط . وتجنبنا التعليق العلنى على الموضوعات الاساسية اذ كنا ندرك على الدوام ، ومازلنا ، أن الاتفاق الاختيارى ، لهؤلاء الاطراف المتورطين على نحو مباشر تماما فى النزاع يمكن أن يكون وحده بمثابة حل ثابت . الا انه اتضح لى أن ادراك أوضح للموقف الامريكى حول الموضوعات الأساسية يعد أمرا ضروريا لتشجيع تقديم تأييد أوسع لعملية السلام .

ويجب أن تكون هناك أولا ، كما تحدد فى اتفاقيات كامب ديفيد ، فترة من الوقت يحصل خلالها السكان الفلسطينيون من الضفة الغربية وغزة على حكم ذاتى كامل يشمل شئونهم الخاصة وينبغى أن يؤخذ بعين الاعتبار مبدأ الحكم الذاتى بواسطة سكان الأراضى ، وكذا المخاوف الأمنية الشرعية للأطراف المعنية .

والهدف من الفترة الانتقالية لمدة خمس سنوات تبدأ عقب انتخابات حرة بشأن حكم ذاتى فلسطينى هو أن تثبت للفلسطينيين أنهم يستطيعون تدبير امورهم الخاصة ، وأن مثل هذا الحكم الذاتى الفلسطينى لا يمثل تهديدا لأمن اسرائيل .

ولن تؤيد الولايات المتحدة استغلال أية أراضى أخرى بهدف اقامة مستوطنات فى أثناء الفترة الانتقالية . والواقع ان تبنى اسرائيل الفورى لمبدأ تجميد انشاء مستوطنات ، اكثر من أى اجراء آخر ، قد يخلق الثقة المطلوبة لاشتراك أوسع فى تلك المحادثات ، أن اقامة المزيد من المستوطنات ليس ضروريا بأية حال لأمن اسرائيل ولا يؤدى الا الى تقليص ثقة العرب فى امكانية التفاوض بشأن النتائج النهائية بحرية وبوضوح .

وأود أن يكون الموقف الامريكى مفهوما بوضوح : فالهدف من هذه الفترة الانتقالية هو الانتقال السلمى والمنظم للسلطة المحلية من اسرائيل الى السكان الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة ، وفى الوقت نفسه ، ينبغى الا يتعارض هذا الانتقال للسلطة مع متطلبات أمن اسرائيل .

وحينما نتطلع الى مستقبل الضفة الغربية وغزة ، بعد الفترة الانتقالية ، فانه يتبين لى أن السلام لا يمكن تحقيقه من خلال انشاء دولة فلسطينية مستقلة فى هذه الأراضى . كما لا يمكن تحقيقـــه على أساس الســــيادة الاسرائيلية او السيطرة الدائمة على الضفة الغربية وغزة .

ولذا فان الولايات المتحدة لن تؤيد اقامة دولة فلسطينية مستقلة فى الضفة الغربية وغزة ، ولن تؤيد ضم اسرائيل او سيطرتها الدائمة عليهما .

ومع ذلك ، فثمة سبيل آخر للسلام . وهو ان الوضع النهائى لهـــذه الأراضى ينبغى التوصل اليـــه - بالطبع من خلال الأخذ والرد فى المفاوضات . وترى الولايات المتحدة على نحو حاسم ان حكم الفلسطينيين الذاتى للضـــفة الغربية وغزة بالاتحاد مع الاردن يقـــدم افضـــل فرصة للتوصل الى ســـلام دائم وعادل .

ويقوم منهجنا بأمانة على مبدأ ضرورة حل النزاع العربى الاسرائيلى من خلال المفاوضات التى تشمل تبادل الأرض مقـــابل السلام . وهذا التبـــادل قد نص عليه قرار مجلس الامن التابع للأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الذى تضمنته بدوره وبكل أجزائه اتفاقيات كامب ديفيـــد . وما زال قرار مجلس الامن التـــابع للأمم المتحدةرقم ٢٤٢ صالحا برمته كحجر الاساس لجهود أمريكا للســـلام فى الشرق الاوسط .

ويتمثل موقف الولايات المتحـــدة فى ان شرط الانسحاب الوارد بالقرار ٢٤٢ — فى مقابل السلام — ينطبق على جميع الجبهات ، بما فى ذلك الضفة الغربية وغزة .

وحينما يتم التفاوض بشأن الحدود بين الأردن واسرائيل ، فان وجهـــة نظرنا بالنسبة للمدى الذى يتعين على أساسه مطالبة اسرائيـــل بالتخلى عن بعض الأراضى،ستتأثر بدرجة كبيرة بمدى السلام الحقيقى والتطبيع وترتيبات الأمن التى تقدم مقابل ذلك .

وأخيرا ، فاننا ما زلنا مقتنعين بأن القدس يجب ان تظل غـــير مقسمة ، ولكن يجب أن يتقرر وضعها النهائى من خلال المفاوضات .

وســـوف تؤيد الولايات المتحدة ، فى المفاوضات التى تتم فى المستقبل ، المواقف التى تبدو لنا انهـــا حلول وسط عادلة ومعقولة ، ومن المحتمـــل ان تسفر عن اتفاق ثابت . كما اننا سنتقدم ايضا بمشروعاتنا الخاصة حينما نرى انها يمكن أن تكون مفيـــدة . وستعارض الولايات المتحـــدة ، بلا شــــك ، أى مشروع من جانب أى طرف وفى أية نقطة من نقـــاط عملية التفـــاوض — من شـــــأنه أن يهـــدد أمن اسرائيل . اذ ان التزام أمريكا بأمن اسرائيل التزام صارم .

وخلال الأيام القليلة الماضية قدم سفراؤنا لدى اسرائيل ومصر والأردن والعربية السـعودية ، لحكومات هذه الدول المضيفة المقترحات التى عرضتها هنا الليلة بكامل تفاصيلها .

واننى لمقتنع بأن تلك المشروعات يمكن ان تحقق العدالة والأمن والدوام لسلام عربى — اسرائيلى .

وسوف تساند الولايات المتحدة هذه المبادىء بتفان تام فهى تتفق بالكامل مع متطلبات أمن اسرائيل وأمانى الفلسطينيين . ولسوف نعمل بجد لتوسيع المشاركة فى مائدة السلام التى تم تحديدها فى اتفاقيات كامب ديفيد . واننى آمل بحماس أن يغتنم الفلسطينيون والاردن ، بتأييد من رفاقهم العرب ، هـــذه الفرصـــة .

ان الاضطراب المأساوى فى الشرق الأوسط يرجع الى فجر التاريخ . وفى عصرنا الحديث تقلت الصراعات الواحد تلو الآخر المكوس الوحشية الى هناك وفى عصر التحدى النووى والاعتماد الاقتصادى المتبادل ، تمثل هذه الصراعات تهديدا لجميع شعوب العالم ، وليس للشرق الاوسط فحسب . وقد آن الأوان لنا جميعا ، فى الشرق الاوسط وفى أنحاء العالم ، لأن ندعو الى وقف الصراع ، والبغضاء والتحيز ، لقد حان الوقت لنا جميعا لبدء جهد مشترك من أجل اعادة البناء والسلام والتقدم .

لقد قيل الكثير — وهو للأسف قول حق فى أحيان كثيرة ان قصة البحث عن سلام وعدل فى الشرق الأوسط هى مأساة الفرص الضائعة .

اننا الآن فى اعقاب التوصل الى تسوية فى لبنان نواجه فرصة لســلام اوسع . وينبغى الا ندعها تفلت من قبضتنا هذه المرة .

ويجب أن نتخطى الصعاب والعقبات الحالية والنظر بوضـوح وحـزم لمستقبل أكثر اشراقا . واننا لنتعهد ، وكذا الأجيال القادمة كلها ، بأن نفعل ذلك . لاننا ان اضعنا هذه الفرصة ولم نبدأ فورا ، فاننا ربما ننظر خلفنا الى تلك اللحظة عندما تحين فرصة تالية مواتية ويدرك كم كلفنا جميعا هذا الفشل .

تلك اذن ، هى المبادىء التى ستقوم عليها السياسة الأمريكية تجـــاه النزاع العربى — الاسرائيلى . وقد اخذت على نفسى التزاما شخصيا بتحملها ، وبأنها بمشيئة الله ، سوف يعتبرها كل العقلاء والرحماء عادلة ومنجزة وفى صالح جميع من يودون رؤية السلام مستتبا فى الشرق الأوسط .

والليلة ، عشية ما يمكن ان يكون فجرا لأمل جديد لشعوب الشرق الاوسط المضطرب — ولكل شعوب العالم الذين يحلمون بمستقبل عادل وآمن اطلب منكم ، رفاقى الامريكيين ، تأييدكم وصلواتكم لهذا المشروع العظيم .

ملحق رقـــم (٦)

مقتطفات من بيان (فاس) بجامعة الدول العــربية الصـــادر فى ٩ سبتمـــبر ١٩٨٢

فيما يلى الجزء الذى يتناول القرار الخاص بالنزاع العربى الاسرائيلى الوارد فى بيان جامعة الدول العربية ، الصادر فى ٩ سبتمبر . كما يتناول البيان أيضا النزاع الدائر فى لبنان وحرب الخليج والنزاع الاثيوبى — الصومالى

ان القــمة اذ تعــرب عن تقديرها للمقاومة التى تبديها قوى الثــورة الفلسطينية والشعبين الفلسطينى واللبنانى ، والقوات المسلحة السورية ، لتؤكد من جديد تأييدها للشعب الفلسطينى فى النضال من أجل استعادة حقوقه الوطنية التى لا يمكن التخلى عنها .

واقتناعا من القمة بقوة الأمة العربية لتحقيق الغايات المشروعة وانهاء العدوان على أساس المبادىء الاساسية التى أرستها مؤتمرات القمة العربية ، وبالنظر فى رغبة الدول العربية لمواصلة العمل بكل الوسائل لتحقيق سلام عادل فى الشرق الأوسط ، واذ تضع فى الاعتبار خطة فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة التى تعتبر الشرعية الدولية هى الأساس لحل المشكلة الفلسطينية ، وخطة جلالة الملك فهد بن عبد العزيز الخاصة بالسلام فى الشرق الأوسط،وفى ضوء المناقشات والملاحظات التى أبداها جلالته ، وفخامة وسمو الملوك والرؤساء والأمراء ، تقــر القمة المبادىء التالية :

— ١ —

انسحاب اسرائيل من جميع الأراضى العربية التى احتلت عام ١٩٦٧ بما فى ذلك القدس العربية .

— ٢ —

ازالة المستوطنات التى أقامتها اسرائيل على الأراضى العربية بعد عام ١٩٦٧ .

— ٣ —

ضمان حرية العبارة وممارسة الشعائر الدينية لجميع الأديان فى الأماكن المقدســـة .

— ٤ —

التأكيد من جديد على حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره وممارسة حقوقه الوطنية الاساسية التى لا يمكن التخلى عنها تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، ممثله الوحيد والشرعى ، وتعويض كل أولئك الذين لا يرغبون فى العودة .

— ٥ —

وضع الضفة الغربية وقطاع غزة تحت اشراف الأمم المتحدة لفترة انتقالية لا تزيد على بضعة أشهر .

— ٦ —

اقامة دولة فلسطينية مستقلة على أن تكون القدس عاصمتها .

— ٧ —

يضمن مجلس الأمن قيام سلام بين جميع دول المنطقة ، بما فى ذلك الدولة الفلسطينية المستقلة .

— ٨ —

يضمن مجلس الامن احترام هذه المبادىء .

المحتــــويات

مراجعـــة مطبعية : على كامل دسوقى